

د. نبيل فاروق



وَالْجَاسُوسِيَّةُ  
فِنْونٌ

دار دُون

د. نبيل فاروق

# الجاسوسية دون فن



\book100100



دار النشر والتوزيع

إلى رجال المخابرات العامة المصرية، الذين أكمل لهم كل  
الاحترام والتقدير، والذين لولا سنوات عديدة، من نشر أعمال  
وروايات الجاسوسية، تحت رعايتهم وإشرافهم، لما كان هذا  
الكتاب بين أيديكم الآن.



\book100100

## مقدمة

منذ زمن طويل، وبات تحديد عندما نشأت الأمم، وبدأ الصراع على السلطة والسيطرة، أدرك الباحثون عن الاثنين، أنه من المستحيل الفوز بهما دون قتال، وهكذا نشأت الحروب؛ كوسيلة لذلك، ولكن سرعان ما كشف الكل، أن خسائر الحروب تفوق الاهتمام، ولا بد من البحث عن وسيلة؛ للإقلال من الخسائر، ومن زمن الحرب والقتال في آن واحد، وأن سباق التسلح وحده لن يكفي... ومن هنا نشأت الجاسوسية، كثاني أقدم مهنة في التاريخ...

في البداية، اقتصرت الجاسوسية على جمع كل المعلومات الممكنة عن العدو، وعن تسلیحه وقوّة جيشه وعدده، ثم تطور الأمر إلى معرفة اقتصاده، وروحه المعنوية، ومدى قناعة وحماسة جنوده، للحرب التي يخوضونها، وإيمانهم بشرعيتها وضرورتها وبنبلها...

ثم، وفي القرن السادس قبل الميلاد، بُرِزَ (صن تزو)، ذلك القائد العسكري الصيني العبرقي، الذي وضع قواعد الحرب الحديثة، ووضع أيضًا الركيزة الأولى، والقواعد الأساسية للجاسوسية، تحت مصطلح (الحرب السرية)، في كتابه، الذي ما زال يعد دستور العسكريين، حتى يومنا هذا (فن الحرب)... ولأن (صن تزو) استطاع، بفضل قواعده تلك، وجيشه الذي

لم يتجاوز الثلاثين ألف محارب، في هزيمة ممالك أكبر، يتجاوز أقل جيوشها عشرة أضعاف جيشه، ووضع بذرة الامبراطورية الصينية، تبعه الكل، وشغف بحربه السرية وقواعدها، التي راحت تتطور أيضاً، مع مرور الزمن، واكتساب الكثير من الخبرات، وتعلم الدروس من الأخطاء، وتطور المعرفة والعلوم، فأضيفت قواعد أخرى، مثل تحليل المعلومات، وقياسها، وتجنيد الجواسيس وزرعهم، وفن نشر الشائعات وتقسيماتها، وسبل منع العدو من الفوز بالمعلومات، وتطورت تكنولوجيا جمع المعلومات، وإخفاء الأسرار وغيرها...

وهكذا لم تعد الجاسوسية هي الأساس، بل صارت مجرد جزء من عالم أكبر وأوسع، اعتمد على الذكاء ولعبة العقول، فيما يشبه لعبة **شطرنج بشرية**، رقعتها تمتد إلى الكوكب كله...

لعبة أجهزة قوية عملاقة، وصراع لا يمكن أن يتوقف لحظة واحدة، من الليل والنهار، وتساوي فيه الثانية الواحدة أحياناً، الفارق بين النصر والهزيمة...

### أجهزة المخابرات

د. نبيل فاروق



(١)

من الأمور التي لا ريب في أنك قد لاحظتها يوماً، أنه ما إن يبدأ الحديث عن الجاسوسية وعاليها، حتى ترتفع الآذان، وتصغي العقول، وتتسع الأعين، ويرتسم الاهتمام والانبهار على الوجه...

هذا لأن عالم الجاسوسية والمخابرات، هو عالم مثير؛ لما فيه من غموض وأسوار، تخفي خلفها أطناناً من الأسرار، وتطلق في الخيال قناطير من الإثارة واللهمة، والشغف بمعرفة أسرار وغموض ذلك العالم، الذي لا يكشف أستاره لأحد فقط، حتى لبعض العاملين فيه...

وهذا يتعلق بعمليات التخابر الخاصة فحسب، والتي تحوي أسراراً، تخص دولة بعينها، سواء في زمن الحرب، أو زمن السلم، أما بالنسبة لفنون عالم التخابر والتجسس، فهي ليست فنوناً سرية أو غامضة، كما يتصور البعض، بل هي اليوم علم معروف، له قواعده وأساليبه، ونظمه وأساسياته، ولكن معرفة العلم شيء، وممارسة فنه شيء آخر...

تماماً مثل لعبة الشطرنج... من السهل أن تعرف قواعدها

وقوانينها، ولكن ليس من السهل أبداً أن تتفوق فيها، أو أن تصل معها إلى مرحلة الإتقان...

وكل لاعب شطرنج في العالم يعرف قواعد اللعبة، ولكن هناك من يمارسها على مقدمي شعبي بسيط، ومن يتنافس فيها على بطولة العالم... وبالقواعد نفسها...

وفنون الجاسوسية هذه لم تتوّج في يوم وليلة، بل هي تراكم لخبرات سنوات عديدة، قد يدهشك أن أقول: إنها آلاف السنين، وهذا ليس أمراً مبالغًا، بل هي حقيقة تاريخية مدهشة، إذ يسجل لنا التاريخ أن (تحتمس الثالث) هو أول من وضع لبنة في فن الجاسوسية، عندما طال حصار جيشه لمدينة (يافا)، فأرسل مجموعة من جنوده، داخل أكياس دقيق إلى المدينة المحاصرة؛ لكي يعملوا على إشاعة الفوضى والاضطراب فيها، ولقد أشار (تحتمس الثالث) إلى خططه المخابراتية باسم (العلم السري)، وكأنه كان يعلم أنه يضع أول طوبة، في جدار هائل، صار يحيط اليوم بكل شيء تقريباً...

وحتى عندما أراد (موسى) عليه السلام أن يدخل أرض (كنعان)، فقد أرسل إليها جواسيسه أولاً؛ ليخبروه عن قوتهم، واستعداداتهم، ومدى تحصينهم ومقدار مؤنهم، وكان بهذا يستخدم فن الجاسوسية بفطرة رياضية مدهشة، جعلت ما طلبه من رجاله، هو نفس ما تطلبه الدول الآن من أجهزة مخابراتها، وهي تستعد للحروب...

ولكن (صن تسو)، أبو الجاسوسية الصينية، هو أول من وضع قواعد فن الجاسوسية في كتابه (أصول الحرب)، عام ٥١٠ ق.م، وهذا الكتاب لم يكن أول ممارسة تجسسية صينية، ولكنه كان أول تنظيم لشبكات الجاسوسية ونظمها، التي مازالت متبقعة، حتى يومنا هذا ؛ إذ أن ذلك الكتاب قد قسم الجواسيس إلى خمسة أقسام: جاسوس محلي: وهو الجاسوس الذي يتم تجنيده، داخل الدولة التي يتتجسس عليها، ويكون من أبنائها، ويتناقضى مقابلًا نقيدياً لعمله... وجاسوس داخلي: وهو الجاسوس الخائن لوطنه، في الصفوف الأولى لهذا الوطن... وجاسوس محول: أي ما نطلق عليه الآن اسم الجاسوس المزدوج، وهو جاسوس أمكن السيطرة عليه، أو إقناعه بتغيير جهة انتئائه... ثم جاسوس هالك: وهو شخص يعتمد عليه؛ لتزويد العدو بمعلومات خاطئة، وهذا سيلقى حتفه حتى، فور انكشاف أمره... وأخيراً جاسوس أساسي: وهو ذلك الذي يفترض فيه أن يؤدي مهمته، ويعود منها بسلام ونجاح... ولقد تغير ذلك التقسيم بالطبع، مع تطور علم الجاسوسية، وتطور فنونها وتقنياتها، ولكن يبقى كتاب (صن تسو) أحد أقدم كتب فن التجسس في التاريخ..

وما من عصر أو حرب، أيا كانت، لم يستخدم فيها التجسس، كسلاح رئيسي، ينقل المعلومات والأسرار عن العدو، حتى تخفف احتفالات المفاجآت، إلى الحد الأدنى،

وترتفع في الوقت ذاته، القدرة على مفاجأة الخصم، وتوجيه ضربات موجعة إليه...

وعلى الرغم من أن (صن تسو) قد وضع أول قواعد اللعبة، إلا أن فن التجسسية له طابع خاص، يتراكم دوماً مع تطورات العصر، بل ويسبقها دوماً بخطوتين على الأقل، مستفيداً طوال الوقت بكل خبرة يكتسبها، وكل خطأ يقع فيه، أو تقع فيه حتى أجهزة مخابرات أخرى...

هذا لأن فن التجسسية يتتطور دوماً، في سرعة تفوق سرعة تطور أي فن آخر، وللمعلومات فيه أكبر قيمة، خاصة وأن تراكمها يصنع مع الوقت قاعدة معلوماتية، يستحيل أن تجد مثلها، في أي نظام آخر، حيث يتم فيه الاهتمام بأبسط وأدق المعلومات، التي قد تبدو سطحية أو تافهة؛ بالنسبة لأي تفكير غير تخابري، وأرض الواقع تثبت أحياناً الأهمية القصوى للمعلومات الصغيرة، ففي عملية قديمة، كانت معرفة المشروب المفضل للشخص المستهدف، هي أساس نجاح العملية برمتها؛ إذ كان يحمل حقيبة خاصة، مربوطة في معصمه بأغلال فولاذية، وفي الطائرة التي تقله، قدمت إليه مضيفة الطيران مجموعة مشروبات، كان من الطبيعي أن يتذمّر منها مشروبه المفضل، الذي كان الزجاجة الوحيدة، التي تحوى عقاراً أصابه بآلام معوية حادة، شخصها أحد الأطباء، على الطائرة نفسها، بأنه انفجار زائف دوديّ، وهكذا، لأنها حالة طارئة، هبطت الطائرة

في أقرب مطار، وهو نفسه الذي انتظره فيه رجال المخابرات، وفقاً لحساباتهم، وبسرعة أيضاً، تم نقله إلى مستشفى بعينه، وإلى حجرة عمليات صغيرة، تم فيها تخديره، وفتح رجال المخابرات الحقيقة، والتقطوا صوراً لكل ما تحويه من وثائق وتصميمات سرية، ثم أعيد إغلاقها بنفس الإحكام، قبل أن يستعيد وعيه ويطمئن إلى أن الحقيقة ما زالت مربوطة في يده بإحكام... .

ولأن المعلومات هي الركيزة الأساسية، التي تستند إليها أجهزة المخابرات، فقد راح كل جهاز مخابرات يتذكر وسائله لجمع المعلومات، وعلى رأس تلك الوسائل كان التجسس، كوسيلة سرية لجمع المعلومات من مصادرها، مما استتبع بالتالي عمليات زرع العملاء في صفوف العدو، وتجنيده من يمكن تجنيده من صفوفه، وهكذا... .

ولكن تطور الأحداث، في بدايات ثلاثينيات القرن العشرين، أدهش الكل بوسيلة غير متوقعة، جمع المعلومات؛ ففي تلك الفترة كان (أدولف هتلر) قد تولى مقايد السلطة في (ألمانيا)، وبدأ مع حزبه النازي يضعون خطة سرية؛ لإعادة تكوين وتسلیح الجيش النازي، استعداداً لخرق معاهدة (فرساي)، التي أجبرت (ألمانيا) على توقيعها، عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وكان الفوهرر يحلم بغزو العالم كله، ورفع العلم النازي على كل قاراته، ولكن، وبينما يستعدون لهذا، فوجئوا بكتاب أصدره صحفي سويسري، يدعى (برتولد جاكوب)، ينشر

كتاباً، يشرح تفاصيل الجيش النازي، ووحداته، وفصائله، وأماكن تمركزها، وأسماء ضباط وقادة ألويته وكتائبه...

وأصيب (هتلر) بالذهول، واشتعل غضبه، وطلب من مخباراته إحضار ذلك الصحفي من (سويسرا)، بأية وسيلة كانت؛ لمعرفة كيف حصل على تلك المعلومات...

وبالفعل، تم اختطاف (جاكوب)، ونقله بطائرة خاصة إلى (برلين)، حيث فوجئ بنفسه في قبو مقر (الجستابو)، وزبانية جهاز الرعب النازي يسألونه، عن كيفية حصوله على المعلومات...

وكانت المفاجأة... فذلك الصحفي السويسري لم تكن له آية صلة بأي جهاز مخابرات، وأنه إنما حصل على كل تلك المعلومات، من الصحف الألمانية نفسها، ومن صفحات الوفيات بالتحديد، ففي كل نعي عسكري، كانت هناك عبارات مثل «الفصيلة رقم كذا، الكائنة في (... )، تنتهي زوجة الجنرال فلان، قائد اللواء رقم كذا، في المنطقة (... )»... وهكذا حصل الصحفي، بشيء من الصبر وكثير من البحث والتنظيم، على كم هائل من المعلومات، عن الجيش النازي، وبدأ في ترتيبها وتنسيقها؛ ليضع بها كتابه، الذي تسبب فيما هو عليه...

وهكذا دخلت وسيلة جديدة، من وسائل جمع المعلومات، إلى عالم المخابرات، وابتكر فرع جديد، تحت اسم (المعلومات العلنية)، والذي يعتمد على جمع المعلومات من الصحف، والنشرات الدورية، والقرارات الاقتصادية، وغيرها من

المعلومات المعلنة، والتي يطالعها الجميع بعيون عادية، وطالعها  
أجهزة المخابرات بعيون استخباراتية..

والأهم أنه، ومنذ تلك الواقعة، لم يعد هناك نعي واحد  
لأحد العسكريين، يحوي أية تفاصيل، عن وحده، أو موقعه، أو  
حتى رتبته، اللهم إلا بعد خروجه من الخدمة، فقد أدرك الكل،  
وبلا شك، خطورة المعلومات العلنية، في عالم تراكمي كهذا....  
ولقد أثبتت الأيام هذه الخطورة...

ففي مرحلة ما قبل يونيو ١٩٦٧م، جلس عامل، في إحدى  
شركات الأغذية المحفوظة، يتحدث مع صديق له، على مقهى  
شعبي بسيط، في مدينة مجاورة للقاهرة، وشكّا له من أن العمل  
مضاعف هذه الأيام؛ لإنتاج ضعف المعتمد، من علب الخضروات  
المحفوظة... والتقط أحد جواسيس العدو المعلومة، وأبرق بها  
فوراً، إلى سادته، الذين وضعوا تلك المعلومة، إلى جوار معلومة  
أخرى، تقول إن الجندي، في حالات الحرب، يحصل على ضعف  
عدد علب الخضروات المحفوظة، التي يحصل عليها في الظروف  
العادية، وتوصلا من هذا إلى أن (مصر) تستعد جدياً للحرب،  
فتم توجيه ضربة إليها، قبل أن تكتمل استعداداتها...  
وهكذا، كان حديثاً بسيطاً، يتصور صاحبه أنه بلا معنى،  
سبباً في نكسة يونيو ١٩٦٧م...

ولكن، ولأن عمل المخابرات تراكمي، يستفيد من كل خطأ،  
فقد أدرك رجال المخابرات، أهمية وخطورة المعلومات العلنية،

واستخدموها بنجاح ساحق، في خطة الخداع الاستراتيجي، قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، بل وطوروا أسلوبها إلى أسلوب لم يستخدم من قبل قط، ألا وهو الإغرار في العلنية، إلى حد عدم تصور العدو أنها متعمدة، وهكذا نشرت الصحف كافة، قبيل حرب أكتوبر، كل أخبار انتشار التيتانوس في المستشفيات، والاضطرار إلى إخلاقتها، ونشرت أخبار فساد القمح، وإعدامه، واستيراد قمح بديل، ولم يدرك العدو، إلا عقب الحرب، أن كل هذا كان خدعة مبتكرة؛ لكي يتم إخلاء المستشفيات؛ لاستقبال جرحي الحرب ومصابيها، واستيراد مخزون احتياطي للقمح، دون أن يدرك العدو أن كل هذا استعداد للحرب.... ونجحت الخدعة... وتم تسجيلها في تاريخ المخابرات وفنونه، لكي لا يقع فيها جهاز مخابرات آخر فيما بعد....

وبهذا الأسلوب التراكمي، تتطور فنون الجاسوسية وتتغير، مع كل خبرة مكتسبة، وكل نجاح لجهاز ما، أو فشل لأخر... وربما يمنع الفشل خبرات أكثر وأسرع؛ لأنه في عالم المخابرات يظل النجاح في معظم الأحوال سراً لفترة طويلة، ولكن فضيحة الفشل تنتشر في سرعة...

والمعلومات في فن الجاسوسية أشبه بلعبة بازل كبيرة، لكل قطعة منها أهميتها، منها بلغ صغرها؛ لتكون الصورة الكاملة، ولكن بعض المعلومات يصعب، وأحياناً يستحيل التوصل إليها؛ لذا يستوجب العمل بأساليب سرية وغير تقليدية؛ للحصول

عليها، وهو ما يطلق عليه اسم التجسس، أي الحصول على المعلومات في سرية...

والسرية هنا حتمية، إذ أن قيمة الحصول على المعلومة تكمن في جهل الخصم بحصولك عليها، وإلا فقدت قيمتها الأساسية، فلو أن العدو يستخدم شفرة ما مثلاً، وأمكنته الحصول على مفتاحها، فإن قيمة هذا المفتاح تكمن في جهل العدو حصولك عليه، وإلا فإنه سيقوم بتغيير الشفرة نفسها، أو مفتاحها، فلا تعود للمعلومة أية قيمة...

وفي الحرب العالمية الثانية، ابتكر الألمان جهازاً عبرياً للشفرة، باسم (أنيجرا)، أو (اللغز) وهو أشبه بالآلة كاتبة، تستخدم فرضاً دواراً لطبع الأحرف، يمكن استبداله بمجموعة أخرى من الأقراص، لكل منها ترتيب ورمز مختلفين؛ فعندما تطبع حرف السين مثلاً، فأخذ الأقراص يطبعه ميّماً، والأخر كافاً، وهكذا، وباستخدام الجهاز، يمكن طبع أوامر مباشرة، تظهر على الورق في صورة كلمات ليس لها معنى أو مدلول، وعندما يتسلل العрев الآخر تلك الأوامر، التي تحوي في بدايتها رمزاً، يشير إلى قرص بعينه، فكل ما عليه هو أن يضع ذلك القرص المشار إليه في جهاز مماثل، ويطبع تلك الكلمات عديمة الدلالة، فتظهر الرسائل على الورق بكلمات واضحة، تحوي أوامر مباشرة، أو تعليمات صريحة...

ولم تكن المشكلة هنا هي معرفة مفتاح الشفرة، ولكن الحصول على الجهاز نفسه، أو تصميمه، وترتيب الحروف على

كل قرص من أقراصه... وكانت عملية من أقوى عمليات المخابرات البريطانية، في تلك الفترة الساخنة، نجحت خلالها في إعادة صنع الجهاز، وفك أعقد شفرات النازية، مما كشف كل رسائل وأوامر العدو السرية، وحقق الانتصار في الحرب... ولنجاح هذه العملية، كان من الضروري استخدام فنون الجاسوسية، إلى أقصى حد ممكن، وبكل أنواعها، من زرع وتجنيد وتنصّت وتقنيّة، و... وهذا حديث آخر.

\* \* \*



(٢)

الجاسوسية علم وفن... العلم يمكن أن تجده في أي مكان، في كتب وموسوعات، وحتى على شبكة الانترنت، أما الفن، فهو كأي فن... موهبة وإبداع وابتكار... وتاريخ الجاسوسية العالمية هو مدرسة، في فن إبداع وابتكار عمليات الاستخبارات والتجسس، وخاصة فيما يتعلق بعملية جمع المعلومات السرية... ففي هذا المجال، يبذل الكل قصارى جهدهم؛ لابتكار وسائل جديدة، يصعب على العدو كشفها أو تصوّرها، ولكن كل الوسائل، منها بلغت حداثتها وابتكاراتها، لابد وأن تضم أهم عامل في اللعبة كلها... الجاسوس... وفي هذه النقطة بالتحديد، يقع معظم الناس، في عصرنا هذا، في خطأ كبير، عندما يخلطون بين التجسس، وتقنية التجسس، ففي كثير من الأحيان، يبدي البعض تشكيكه من جدوى التجسس، في عصر التكنولوجيا وثورة المعلومات الرقمية، وسهولة الحصول على المعلومة ونقلها، ويبدون تشكيكه أكثر، في جدوى وجود جاسوس بشري، مع كل هذه التقنية... وهذا خطأ كبير... جداً... فالتكنولوجيا الحديثة، بكل أنواعها، قادرة فحسب على

رصد ما يباح من الأمور الظاهرة، فالأقمار الصناعية قد ترصد متراكك، وتصل دقتها حالياً إلى رصد أدق تفاصيل ثيابك أيضاً، ولكنها عاجزة تماماً عن كشف ما تخفيه داخلك، ولعلنا مازلنا نذكر كيف تباهى الأميركيون لوقت طويل، بأنهم قادرون بوسائلهم التكنولوجية، على معرفة نسيج الملابس الداخلية للرئيس العراقي السابق، وعلى الرغم من هذا، فقد عجزت كل تكنولوجياتهم هذه في رصد الرئيس نفسه، عندما قرر الاختباء، والاختفاء عن الأنظار، ولو لا وجود عامل بشري، أرشد إلى مكانه، لربما ظل مخفياً، حتى يومنا هذا...

ومازلنا نذكر أيضاً، في ضربتهم الأولى للعراق، في أوائل التسعينيات، كيف أن طائراتهم قد قصفت العديد من الأهداف، التي رصدها وسائلهم التكنولوجية المتقدمة، ثم كشفوا بعدها أنها لم تكن سوى هيكل خشبي، خسروا قذائف بملايين الدولارات لقصفها، ولو كان لديهم جاسوس بشري واحد على الأرض؛ لأمكنه أن يكشف حقيقة تلك الهياكل التمويهية، ويقود قذائفهم إلى أهداف حقيقية، أكثر أهمية...

التقنية الحديثة إذن هي عامل مساعد قوي، في أعمال الجاسوسية، وسنعود إليها وإلى تاريخ تقنية التجسس كلها، في مقال آخر، أما الآن، فعلينا أن نفهم العامل الرئيسي أولاً، وهو الجاسوس نفسه..

وكلمة جاسوس هذه تعني أنه شخص مندس، بين فئة من

الناس، على نحو خفي وسري، بحيث يمكنه كشف أسرارهم، ونقلها إلى الجهة التي يعمل لحسابها، وفي هذا المضمار، نجد أنه لا يوجد نوع واحد من الجواسيس، بل عدة أنواع، لكل منها أهميته ودوره، وفقاً لموقعه وقدراته... فهناك الجاسوس الداخلي، أو الشخص الذي يتمي رسمياً إلى الجهة المضادة، وتم تجنيده لخيانة جهة انتهاه، ونقل أسرارها إلى الجهة المعادية لها، وكل دول العالم تعامل مع هذا النوع من الجواسيس، باعتباره أحقن الأنواع على الإطلاق، وأقلها مداعاة للثقة ؛ فالجاسوس الذي يخون وطنه لصالح أعدائه، شخص لا يمكنه أبداً أن تثق في ولائه ؛ لذا فعندما يتم تجنيد أحد هؤلاء الأشخاص، يحرص جهاز المخابرات على تحديد نوعيته أولاً، ومن ثم إيجاد الوسيلة المناسبة للسيطرة عليه، والتي ينبغي أن تكون من القوة، بحيث تضمن خضوعه، وتجعل استمراره في عمله، هو الخيار الأمثل، إن لم يكن الوحيد بالنسبة إليه... .

وهذا النوع من الجواسيس يخضع دوماً لأحد أهم أسباب رئيسية للخيانة، أولاًها المال، وهو أحد الأسباب القوية، التي تدفع بعض الجشعين إلى خيانة أو طاغفهم، طمعاً في ثروة، يتصورون أنها سهلة المنال، وهو يمثل النسبة الأكبر من دوافع التجسس والخيانة، ثم يليه الجنس، وهو ليس دافعاً فحسب، ولكنه وسيلة مثالية أيضاً ؛ لوضع الجاسوس تحت السيطرة، إما بتزويديه به، أو بخوفه من حجبه عنه، أو خشيته انكشف أمره... .

تأتي بعد هذا العقيدة، وليس المقصود هنا هو الدين فحسب، ولكن الانتهاء المذهبى أو الفكرى أيضاً، وتاريخ الجاسوسية حافل بالجوايس، الذين خانوا أوطانهم، من أجل إيهانهم بفكر العدو، وأبرز مثال على هذا هو نائب مدير المخابرات البريطانية، الذى انكشف أنه كان جاسوساً للسوفيت، في زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب اعتنائه للفكر الشيوعي، وسياقى الحديث عنه بتفاصيل أكثر فيما بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى...  
بعدها تأتي الكراهية لنظام ما، كدافع رئيسى، يدفع البعض إلى الارتماء في أحضان النظام المعادى، كنوع من الانتقام أو التشفى، وتلتقط المخابرات العدوة هذا الخيط دوماً، وتعمل على تغذيته بكل فنونها؛ دفعاً للشخص إلى مستنقع خيانة وطنه... ثم هناك السقطة، أي تورط شخص ما في عمل مشين، أو موقف خطير، تلتقطه مخابرات العدو، ويصبح سلاحاً في يدها، خاصة لو رأى صاحب هذه السقطة أن الخيانة أقل ضرراً، من كشف سقطته...  
هذه فقط الدوافع الرئيسية الكبرى للخيانة، ولكن هناك أحياناً بعض الدوافع الشخصية، التي تجعل صاحبها لقمة سائفة في فم مخابرات العدو، حتى وإن لم يدرك هو نفسه هذا، و....

لذا حديث آخر..

\*\*\*

عملية تجنيد الجاسوس عملية معقدة للغاية، وكل خطوة فيها تحتاج إلى دقة متناهية، وإلا فبدلاً من أن يعمل الجاسوس

حساب من يريد تجنيده، فقد يتهمي به الأمر إلى الإبلاغ عنه... .  
وهذا تبدأ عملية التجنيد بزرع عنصر ما وسط مجموعات  
من الناس، في مختلف المجالات، وفقاً للفئة المستهدفة، التي تهم  
العدو، وهذا العنصر يكون في المعاد جاسوساً قدّيماً، من البيئة  
نفسها، يسهل عليه الاختلاط بالناس، والاندماج معهم، وكسب  
صداقتهم وودهم، وثقتهم أيضاً، وهو يوصف دوماً بأنه شخص  
طيب، بسيط، لا يشتبك مع أحد على الإطلاق، لا في شجار بدني،  
ولا حتى في مشادة كلامية؛ لذا فمن أهم سمات هذا الجاسوس،  
هو أنه لا يدخل أبداً في نقاش حول السياسة، أو الدين، أو  
حتى مباريات كرة القدم، أو أي نقاش يمكن أن يوغر صدر  
أحد الحالسين ضده... وهذا العنصر يطلق عليه اسم (الفرّاز)،  
والاسم نفسه يوحّي بعمله، إذ أنه يتم تدريسه على نحو مكثف،  
على فرز كل الموجودين في مساحة عمله، وكل من يمكنه عقد  
صلة ما معهم، وتحديد من منهم لديه دوافع مناسبة وحقيقة،  
ونقطات ضعف واضحة قوية، وغياب للمبادئ الأساسية، على  
النحو الذي يجعله مؤهلاً، للعمل حساب دولة أخرى... .

وهذه مهمة ليست باليسيرة، فقد تجد حولك شخصاً  
ساخطاً على الدولة، وعلى نظام الحكم فيها، وعلى القوانين التي  
تحكمها، ويعلن شكواه وغضبه طوال الوقت، وعلى الرغم من  
هذا، فهو ليس مستعداً لخيانة وطنه، مهما كان الشمن، أو كانت  
المغريات، وعلى العكس، قد يكون هناك شخص صامت، لا

يشكوا أبداً، ولكن دوافعه للخيانة لا حدود لها؛ فقد يعاني من أزمات مالية حادة، تضطره للاستدانة من كل من يعرفه مثلاً، ثم يعجز دوماً عن السداد، فتتراكم عليه الديون، ويتوقف الكل عن إقراضه، ويصبح مستعداً للعمل مع الشيطان نفسه، لو أنه سيساعده على سداد ديونه، وتخليصه من دائناته فحسب.... وهذا مجرد مثال للدوافع، التي يرصدها الفراز...  
و(الفراز) يتلقى العناصر، التي يراها صالحة ومؤهلة للتجنيد، ويسعى للاقتراب منها، والتقارب إليها، وعقد صداقات معها، ولكسب ثقتها، قد يساعدها مرحلياً، على التخلص من بعض متابعيها، وبخاصة المتابع المالئية، أو يعمل على توريطها في أمور أكثر خطورة، حتى يضمن بقاءها في قبضته، ولكن مهمة الفراز تقتصر على هذا فحسب، وليس من صلاحياته أن يقوم بعملية التجنيد نفسها، ولا حتى أن يلمح إليها، بل كل ما عليه، هو أن يرسل ما لديه من معلومات، عن العناصر المرشحة للتجنيد، إلى العدو، الذي يعمل حسابه، بالوسائل المتاحة له، أو عن طريق جاسوس آخر مقيم، سيتم الحديث عنه فيما بعد، وهناك، في أرض العدو، تعاد دراسة العناصر المرشحة، على ضوء كل المعلومات، وقد يتم دفع عنصر آخر، من عناصر العدو؛ للتحقق من المعلومات، التي سيتم تحديد شخصية و هووية كل مرشح من خلاها... وتقوم الأقسام الفنية والنفسية بدراسة كل هذا بمتنهى الدقة، وتنقية العناصر المرشحة، والتركيز على

الأصلح منها، وتحديد الوسيلة المناسبة للسيطرة عليه، وبعدها يتم إبلاغ الفرّاز بأنه هناك ضابط، من مستوى أعلى، سيحضر لفرز العناصر المطلوبة، أو العنصر الذي وقع عليه الاختيار عن قرب، ومن خلال مقابلة مباشرة، ويتم إبلاغ (الفرّاز)؛ لتدبير مقابلة بين العنصر المرشّح وخبير الفرز، وتكون هذه في المعتاد آخر مهمة للفرّاز مع العنصر، إذ بعدها ينسحب من الساحة، ويتولى الخبير الأمر، مدعوماً بتقارير وتصصيات الأقسام الفنية، حول شخصية العنصر، ونقاط ضعفه ووسائل سقوطه...

وعلى نحو متدرج، يبدأ الخبير في عرض فكرة التعاون على العنصر المستهدف، بعد أن يتأكّد من مقابلته الشخصية، أنه صالح للتجنيد، وهي لا تكون أبداً في شكل عرض مباشر، بل يتم طرح عرض مغرٍ، لا يمس وطنه بأي شيء، من قريب أو بعيد، ويتم استدراجه تدريجياً، وإشباع نقاط ضعفه، ومناطق طموحه، حتى تصبح آماله وأحلامه كلها مرتبطة بذلك العرض، وربما يبدأ الخبير في منحه بعض المال، الذي يخرجه من دائرة الحاجة، وربما ينقله أيضاً إلى دائرة الانتعاش، ويحرص على تزويده به لبعض الوقت؛ حتى يعتاد الحياة السهلة، والكسب بدون عمل...

ثم يختفي الخبير فجأة، بعد أن يضمن تعلّق العنصر به، وبهار يغدقه عليه بلا حساب، ويواصل الاختفاء لفترة كافية، ينهار خلاها العنصر، ويتصوّر أن آماله وأحلامه قد تبخرت، ويصاب بالذعر والهلع، من فكرة عودته إلى حالة الاحتياج مرة أخرى،

بعد أن اعتاد رغد العيش، والكسب الوفير السهل، ويكون في هذه الحالة مستعداً لعمل أي شيء، وبأي ثمن؛ حتى يستعيد ما اختفى مع اختفاء الخبرير...

وهنا، وعندما يقرر القسم الفني أن الوقت قد حان، يظهر الخبرير مرة أخرى، ويتسلل العضو من ضياعه، فيتشبث به هذا الأخير في لففة، وكأنها يتثبت بالحياة نفسها، وهنا تبدأ عملية التجنيد...

والخيانة...

ويتوڑط العنصر دون أن يدرى، وتحرص لعبة الجاسوسية على تسجيل وتوثيق تورّطه؛ حتى يعجز عن الإفلات والتراجع، عندما تحيّن لحظة المواجهة والمصارحة....

والسقوط....

وللحديث عن فن الجاسوسية بقية.

\*\*\*

من أكثر أنواع الجواسيس أهمية، وأكثرها خطورة في الوقت ذاته، الجاسوس المزروع، الذي يأتي من وطنه؛ ليحيا في وطن العدو، متocomصاً شخصية أحد أبنائه، حتى يصبح جزءاً منه، لا يمكن تمييزه عن الآخرين، وربما يحتل مكانة ما في ذلك الوطن الآخر، فيسهل عليه الحصول على معلومات بالغة الأهمية والخطورة، أو تجنيد آخرين، وإدارة شبكات تجسس كاملة، وهو مضمون الولاء إلى حد كبير؛ لأنّه يتميّز فعلياً إليك، وليس إلى عدوّك..

ومن أشهر عمليات الزرع الناجحة، في عالمنا العربي، عملية (رفعت الجبال)، أو (رأفت الهجان)، كما أسماء المسلسل التليفزيوني، واسمته رواية الراحل المبدع (صالح مرسي)، فلقد كان (رفعت) شخصاً ضائعاً في (مصر)، عمل في عدة مهن، ولم يحرز نجاحاً يذكر في أي منها، والتحق بأكثر من وظيفة، وانتحل أكثر من صفة، إلى أن صار، حتى بالنسبة لعائلته، أشبه بشاب محتال فاشل...

ولكن يبدو أن القدر كان يعد رفعت للدور الذي لعبه؛ فقد مارس التمثيل في فيلمين مع (بشرة واكييم)، وانتحل شخصية يهودي مرتبين، مرة ليقيم علاقة عاطفية مع الراقصة (كйти)، ومرة أخرى عندما ألقى القبض عليه، عند الحدود الليبية... لم يكن جهاز المخابرات المصري قد تم تأسيسه بعد، عندما سقط (رفعت) في قبضة الشرطة، وجذب اتهامه انتبه (عبد المحسن عبد الفائق)، الذي استخدمه في البداية، وبعد أن كشف هويته الحقيقية، كعنصر للتجسس على اليهود، المقيمين في (الإسكندرية)، حيث انتحل شخصية يهودي يدعى (جالك بيتون)، من أم قبرصية وأب فرنسي، وعمل كموظف محترم في شركة تأمين معروفة، وارتاد على نحو متنظم، المعبد اليهودي، في شارع النبي (Daniyal)، وانتظم في الجلوس في مقهى على الكورنيش، اعتاد اليهود الجلوس فيه، وكان منطويًا مهذبًا، مما دفعهم هم للتعرف عليه، والارتباط به، حتى صار واحداً منهم...

ثم تم تأسيس المخابرات المصرية، في مايو عام ١٩٥٥م، وصار (عبد الفائق) أحد ضباطها، وقرر عندئذ تحقيق استفادة أكبر من (رفعت)، بنقل نشاطه الناجح مع اليهود، من (الإسكندرية) إلى (إسرائيل) نفسها، التي نجح في الوصول إليها، والحصول على جنسيتها، وصار من أقوى وأنجح عيوننا هناك...

ولقد نجحت عملية زرع (رفعت الجمال) نجاحاً، يعد مثلاً يحتذى، في عالم المخابرات وتاريخها وتاريخ فنون الجاسوسية؛ فقد أنجز مهمته بنجاح، ثم استقر في هويته الإسرائيلية، حتى مات في فراش المرض، بعد معاناة طويلة..

والأمر هنا مختلف عن حالة زرع أخرى عكسية، والمقصود هنا هو زرع الإسرائيلي (إيلي حوفي كوهين)، الذي ولد ونشأ وتربي وأنهى تعليمه في (مصر)، في قلب الكيان السوري، باعتباره (كامل أمين ثابت)، الوطني المخلص، المهاجر إلى أمريكا الجنوبيّة، والذي ظل يغدق التبرعات على حزب البعث السوري من هناك، حتى أن السوريين المهاجرين ألحوا عليه أن يعود إلى (سوريا)؛ فالحزب، على حد قوله، كان بحاجة إلى كل وطني مخلص مثله...

وببناءً على إلحاحهم، سافر (إيلي) إلى (سوريا)، التي استقبلوه فيها استقبال الأبطال، وتم ضمه، بكل فخر واعتزاز، إلى حزب البعث السوري، الذي ترقى فيه بسرعة؛ بسبب سخائه الشديد، إلى مناصب عليا، في اللجنة المركزية، ثم لم يلبث

أن صار مستشاراً لوزارة الدفاع في (سوريا)، وأوشك على أن يحتل منصب نائب وزير الدفاع السوري، وكان هذا سيصبح كارثة، أن يكون إسرائيلياً نائباً لوزير دفاع دولة عربية، من دول المواجهة، والمرشح الأول لمنصب وزير الدفاع، فور خلو المنصب، الذي كان يمكن أن يخلو، برصاصه يصعب تحديد مصدرها، أو بوحد من السموم، التي يتم إنتاجها، في معامل جهاز (الموساد) الإسرائيلي...

ولقد عمل (إيلي) في سوريا كتاجر تحف، وكان يقوم بتصدير بعض المشغولات الخشبية المتميزة، إلى أوروبا و(أمريكا الجنوبية)، دون أن يدرى أحد أنه كان يخبي في أماكن سرية منها، الميكروفيلم، الذي يحوي أدق وأخطر الأسرار السورية، والتي يعرفها في سهولة، باعتباره عضواً بارزاً في الحزب، ومستشاراً لوزير الدفاع... ولكن (إيلي) ارتكب أكبر خطأ في حياته، مع شعوره الكبير بالثقة والأمان، وبالسيطرة التامة على الموقف...

ففي ذلك الحين، في أوائل الستينات، زار الفريق (علي عامر) الجبهة السورية، وعرضت الصحف صورته، مع عدد من قادة الجيش السوري، وكان بينهم مدني واحد، وهو (كامل أمين ثابت)، أو (إيلي حوفي كوهين)... ولأنه مدني منفرد، وسط صورة عسكرية، كان من الطبيعي أن يلفت الانتباه في شدة، ومن سوء حظه أنه قد لفت انتباه (رفعت الجمال) نفسه، والذي كان يعرفه جيداً، منذ أن التحق كلاهما فيما سمى بالوحدة (١٣١)،

والتي قام بعض أفرادها بعملية تفجير المصالح الأمريكية، في (القاهرة) و (الإسكندرية)، فيما عرف باسم (عملية سوزانا)، ففي تلك الأونة، تم اعتقال عدد من اليهود في (مصر)، ومن بينهم (إيلي كوهين) و (جاك بيتون) نفسه، حتى يتأكد تواجده بين يهود الإسكندرية، ويصبح بالنسبة لهم واحداً من أبطالهم، وقضى (رفعت) مع (إيلي) فترة ليست بالقصيرة في الحجز، توطدت خلالها صداقتها، ووожدها (رفعت) فرصة مثالية؛ لتبسيط هويته، في المجتمع اليهودي السكندري، ثم أطلق سراحهما، بعد أن أثبتت التحقيقات عدم تورّطهما في عمليات التفجير... و... للرواية بقية.

\* \* \*

منذ اللحظة الأولى، التي وقع فيها بصر (رفعت الجمال)، على صورة (كامل أمين ثابت)، كمدني منفرد وسط مجموعة من العسكريين، حتى ربط عقله على الفور، بينه وبين رفيق زنزانته السابق (إيلي حوفي كوهين)، الذي لم يتغيّر فيه سوى شارب شرقي، أضيف إلى ملامحه؛ ليمنحه مظهراً شامياً تقليدياً...

وعلى الفور، طلب (رفعت) مقابلة عاجلة، مع أحد ضباط المخابرات المصرية، الذي التقى به في (روما)، وهناك سلمه (رفعت) نسخة من الصحيفة، وأشار إلى صورة (كامل)، وأكّد أنه يعرفه باسم (إيلي كوهين)... وعاد رجل المخابرات بالمعلومة إلى (مصر)، وسحب ملف (إيلي)، وأيقن الكل أنه بالفعل ليس

سورياً كما يدعى، ولكنه يهودي إسرائيلي، وكان الموقف شديد الحساسية بالفعل، فالرجل يحوز ثقة حزب البعث وقياداته، ومرشح لمنصب نائب وزير الدفاع في سوريا، وهو شخصية سياسية واجتماعية مرموقة، ليس من السهل اتهامها بمثل هذا الاتهام، دون أدلة قاطعة حاسمة...

وبعد اجتماع مع الرئيس (جمال عبد الناصر)، الذي هاله أن يكون المرشح الأول لمنصب نائب وزير الدفاع السوري جاسوساً إسرائيلياً، حل (صلاح نصر)، مدير المخابرات المصرية حينذاك، ملف (إيلي كوهين) بنفسه، ليضعه بين يدي الرئيس السوري شخصياً... وكانت صدمة رهيبة، ليس للرئيس السوري وحده، ولكن لمدير مخابراته، وكل المقربين منه بلا استثناء، وخصوصاً القادة العسكريين، الذين كاد الرجل يصبح نائب وزيرهم، بعد وقت قليل....

كانت المخابرات السورية آنذاك، ومنذ فترة ليست بالقصيرة، تتبع بشّا لاسلكياً مشفرًا، وتحاول، بالأجهزة المتاحة في ذلك الحين، تحديد موقع البث بالضبط، ولكن كل ما توصلت إليه هو تحديد الحي، الذي ينبعث منه البث، وإن لم يخطر على بال مخلوق واحد، أن يكون مصدره هو منزل (كامل أمين ثابت)، الذي يقيم في شقة فاخرة، في ذلك الحي...

ومع المعلومات الجديدة، وعندما تمت مداهمة منزل (إيلي)، برجال المخابرات السوريين، ووكيل نيابة عامة، ثار الرجل

وهاج وماج، وهدد وتوعد، خاصة وأن عملية التفتيش لم تسفر في البداية عن العثور على جهاز اللاسلكي المنشود، ولكن يقطة أحد رجال المخابرات السورية، جعلته يلاحظ ميلاً خفيفاً، في إطار ستارة النافذة الرئيسية، وبتفتيشه، تم العثور على جهاز الاتصال اللاسلكي داخله، مخفياً بمهارة حرفية، وكان دليلاً للإدانة الرئيسي، الذي حسم الأمر كله...

وانهار جهاز المخابرات الإسرائيلي، عندما سقط (إيلي)، وراح يبذل قصارى جهده لاسترجاعه، وبأي ثمن، حتى أنه عرض مليون دولار ثمناً لهذا، وكان مبلغاً شديداً الضخامة في ذلك الحين، ولكن (سوريا) رفضت العرض بشدة؛ لأن الصدمة كانت أكبر من أن تساوي أي مبلغ مادي في الوجود؛ فالرجل تعرف كل السياسيين والعسكريين هناك تقريباً، وحصل على معلومات شديدة الدقة وباللغة الخطورة، حتى أن الإسرائيليين أكدوا فيما بعد، أن ما حصل عليه كان أحد أهم أسباب نجاحهم في حرب ١٩٦٧م...

وعلى عكس (رفعت الجمال)، سقط (إيلي كوهين)، وتمت محاكمته على نحو علني، وأرسلت (إسرائيل) محامياً فرنسياً للدفاع عنه، ولكن النظم القانونية في (سوريا) آنذاك لم تسمح بهذا، فتم توكيل محام سوري بمبلغ خرافي، إلا أنه، وعلى الرغم من هذا، فقد صدر الحكم بإعدام (إيلي كوهين)، وتم تنفيذ الحكم في ميدان عام، وتركت جثته معلقة هناك لعدة أيام بعدها..

وحتى هذه اللحظة، وفي كل مفاوضات إسرائيلية سورية، يحتمل مطلب إعادة رفات (كامل أمين ثابت) البند الأول المقترنة؛ لأن العقيدة اليهودية تؤمن بأنه ما لم يدفن اليهودي في أرض يهودية، فروحه ستظل معذبة، حتى يحدث هذا....

عملية الزرع إذن ليست هينة أو بسيطة، بل هي ثمار جهد طويل، وعمل شاق بلا حدود، منذ اختيار العنصر المناسب للعملية، وحتى معاونته، عبر فريق كامل من الخبراء، على تقمّص الشخصية الجديدة، التي سيتم زراعتها بها، ونسياط هويته الأصلية، حتى في نومه وأحلامه....

وليس من السهل أن تتم عملية زرع ناجحة، في أية ظروف، ففي بعض الأحوال يكون زرع العميل أمراً ممكناً، وفي أحوال أخرى يكون مستحيلاً؛ فلأن (إسرائيل) بلدًا يعتمد على المهاجرين الجدد، من كل أنحاء العالم، ولأن كل من يهاجر إليها، يبدأ في تعلم لغتها العبرية منذ البداية، فهذا يجعل عملية زرع العميل فيها أكثر سهولة، على عكس (مصر) مثلاً، التي لا يمكن لأحد أن يتَّحدث بلكتتها، ما لم يكن قد ولد وعاش في أحضانها، وهذا ينطبق أيضاً على الفارق بين المجتمع الأمريكي، الذي زرع السوفيت فيه آلاف الجنوسيس، عقب الحرب العالمية الثانية؛ لأنَّه يعتمد على الهجرة، من كل أنحاء العالم، في حين كان من العسير على الأمريكيين أن يزرعوا عميلاً في قلب الاتحاد السوفيتي؛ لسماته الانغلاقية، وسهولة كشف الغرباء فيه....

وعندما يتم زرع عميل بنجاح، في مجتمع ما، فهو يمر بمراحل من المسميات، في عالم الجاسوسية، منذ بداية الزرع، وحتى نهاية المهمة...  
وهذا حديث قادم.

\* \* \*

الجاسوس المزروع، هو أكثر جاسوس يحتاج إلى التدريب، ولا بد وأن يتمتع بموهبة حقيقية، تتيح له البقاء طويلاً، في الوسط الذي سيتم زرعه فيه، وهو يتلقى نوعاً خاصاً من التدريبات، يمكنه من التعايش وسط العدو، دون أن ينكشف أمره، ومنذ يضع قدميه في الوسط الجديد، يمر بعدد من المراحل والمسميات، التي يتضمنها وجوده، بدءاً من العميل النائم، أو (الجاسوس النائم)، وحتى ما نطلق عليه اسم (الجاسوس المقيم)...

ففي البداية، وعندما يصل الجاسوس إلى الأرض الجديدة، يطلق عليه اسم (الجاسوس النائم)، وهذا المسمى يعني أنه جاسوس لا يمارس أية نشطة تجسسية، منها كانت الأسباب أو المغريات، حتى لا ينكشف أمره، أو يثير الشبهات من حوله، بل وربما يتعين عليه أحياناً، أن يبلغ سلطات الأرض الجديدة، عن كل ما يثير شكوكه فيما حوله، أو أية محاولة لاستقطابه، كما يفعل أي مواطن شريف هناك... والغرض من هذا أن يمر الجاسوس أولاً بمرحلة مد جذوره في الأرض الجديدة، بنفس الأسلوب والترتيب الطبيعي، الذي يمر به أي قادم جديد،

ودون أية معاونة، أو حتى اتصال مباشر، أو غير مباشر، بجهاز المخابرات الذي يعمل لحسابه، وعليه أن يمر بكل المتابع والصعب، ويتجاوز وحده كل المحن وكل العقبات، وأن يعاني معاناة أي شخص عادي، وألا يتعرّض عقد الصداقات، أو تكوين المعارف، بحيث تسير أموره عادياً للغاية؛ فإذا ما وقع على سر هام، فعليه أن يتجاهله تماماً، منها بدا له شديد الخطورة أو الحساسية؛ لأنّه من المحتمل جداً، أن يكون هذا السر قد وُضع أمامه عمداً؛ لا اختبار ولا إثاثة... .

وهذه المرحلة النائمة غير محدودة المدة، بل متروكة للظروف الطبيعية، ولقدرة الجاسوس على التكيف مع المجتمع الجديد... ولن يحاول جهاز المخابرات حتى متابعته في البداية؛ حتى لا تتعرّض العملية لأية احتيالات فشل، وعليه أن يدرك هذا من البداية، ويستعد له تماماً، وأن يتحمل كل ما سيلاقيه في سبيل هذا، وهذا السبب بالتحديد، يتحتم أن يتمتع بوطنية صادقة، ورغبة مخلصة في العمل والتضحية في سبيل وطنه... .

ثم تأتي اللحظة المناسبة، وهي لحظة نقل الجاسوس، من مرحلة (الجاسوس النائم) إلى مرحلة (الجاسوس النشط)، وكما أوردنا، فهذا لا يتم بجدول زمني محدود، وإنما وفقاً لتطورات الأمور وتداعياتها، إذ بعد عام متزرعه تقريباً، ستبدأ مخابراته في متابعة أخباره وتطوراته من بعيد، وربما من خلال جاسوس آخر، حتى تتيقن من أنه قد حقّق الاندماج الكامل مع المجتمع

الجديد، ولا تحيط به أية شبكات، مع ملاحظة حتمية ألا ثير أية خلافات مع أية جهة، أو أي فريق، ولهذا نجد دوماً أن سمة كل الجواصيس، أنهم لا يرغبون في الدخول في أية مناقشات، حول السياسة أو الدين بالتحديد...

وعندما تتيقن المخابرات من أنه قد بلغ هذه المرحلة، ترسل إليه ما يعرف باسم (إشارة التنشيط)، وهذه الإشارة تكمن دوماً في شيء عادي للغاية، لا يحوي أية رسائل خفية أو سرية، ولا يمكن أن يثير أدنى شبهة، مثل رسالة من حبيبة سابقة، أو قريب يقيم في مكان بعيد، أو هدية باللغة البساطة، مثل طاقم حلقة، أو قميص عادي...

وعندما يتلقى (الجاسوس النائم) هذه الإشارة، التي تم تعريفه بها، قبل بدء مهمته، يدرك أن مرحلة النوم قد انتهت، وحانَت لحظة النشاط، التي ما يكون غالباً في شوق إليها...

ويبدأ الجاسوس عندئذ في جمع المعلومات، وتكون لديه في البداية وسيلة بسيطة لتوصيلها، مثل تركها فيها يسمى (النقطة الميتة)، وهذا يعني أن يذهب إلى مطعم ما مثلاً، في ساعة محددة، ويدخل دورة مياهه، ويترك المعلومة في مكان متفق عليه مسبقاً، وبعد خروجه، سيدخل شخص آخر، لا يعرفه الجاسوس على الأرجح، ويلتقط المعلومة، من المكان نفسه، ثم ينصرف، دون أن يتلقى أحدهما بالأخر...

وبعدها، ومع نجاح الجاسوس في جلب معلومات مفيدة،

تحقّق نتائج إيجابية في التعامل مع العدو، يتم اعتباره (جاسوساً إيجابياً)، ويصبح محل ثقة جهاز المخابرات أكثر، فتتحول عملية نقل المعلومة إلى ما يسمى (اللقاء الخاطف)، حيث سيلتقى لأول مرة بجاسوس آخر، يتبادل معه المعلومة مباشرة، خلال ثوان معدودة، وبوسيلة تختلف في كل مرة، ويكون هذا تمهيداً لنقله إلى مرحلة تدريب جديدة، ترفع رتبته في عالم الجاسوسية...  
ولا بد في هذه الحالة من أن تصل إلى الجاسوس رسالة جديدة، إما عبر لقاء خاطف آخر، أو من خلال رسالة بريدية عادية، من نفس الحبيبة، التي يتبادل معها الرسائل طوال الوقت، وفيها، وبأسلوب متفق عليه، ويحفظه هو عن ظهر قلب، من قبل أن يبدأ مهمته، ومن خلال كلمات بسيطة، عادية المظاهر، يتم تحديد موعد خاص معه، في مكان ما، خارج الدولة التي تم زرعه فيها، وعلى الجاسوس عندئذ أن يجد مبرراً منطقياً للسفر، يجد قبولاً لدى كل من يحيطون به، ثم يذهب إلى اللقاء...  
ولهذا فن آخر.

\* \* \*



### (٣)

اللقاء بأي جاسوس، يكون دوماً في أحد ما يطلق عليه اسم (المنزل الآمن)، وهو مكان لا يثير الشبهات في المعتاد، تقيم فيه عائلة عادية، أو يقيم فيه شخص يحمل جنسية بلد اللقاء، وهناك يلتقي الجاسوس بعده من الخبراء، الذين يقومون بتدريبه على وسائل اتصال أكثر تقدماً، مثل (الشفرة) أو (الخبر السري)، أو كلاماً معـاً....

وتعتمد الشفرة دوماً على ما يسمى بالفتح، الذي يكون عبارة عن كتاب عادي، أما (الخبر السري)، فهو مادة كيماوية خاصة، ذات تركيب معقد، يتميز بانعدام اللون والرائحة، يكتب به الجاسوس ما لديه من معلومات، بين أسطر رسالة بسيطة، مكتوبة بالخبر العادي، فلا يمكن رؤية ما كتبه، إلا باستخدام مادة كيماوية أخرى معادلة...

وهذا أبسط أسلوب قديم، تم استخدامه في كتابة الرسائل السرية، إذ أن تقنية الخبر السري قد تطورت كثيراً عبر السنين، حتى وصلت إلى أخبار خاصة خفية، لا يمكن رؤيتها، إلا تحت تأثير موجة بعينها، من الأشعة فوق البنفسجية، كما أن هناك وسائل مختلفة، لا تعتمد على الكيماويات، التي يمكن الآن كشفها وتحليل

تركيباتها، مع تطور التكنولوجيا الحديثة، ففي البداية، كان هناك ما يسمى بالكربون الأبيض، وهو أشبه بالكربون العادي، الذي كان يستخدم قديماً، في النسخ الفوري للأوراق، والذي يظهر في النسخة، باللون الأزرق أو الأسود، وأحياناً الأحمر، ولكن الكربون الأبيض ينسخ الرسالة بلا لون، بين سطور رسالة أخرى، وتستخدم مادة خاصة؛ لمعادلة اللون، بحيث يبدو مرئياً، عند استلام الرسالة، ولكن هذه الوسيلة كانت سهلة الكشف، إذا ما وقعت الرسالة في يد العدو، وهذا كان من الأساسيات ألا تحوى الرسالة أية إشارة إلى المرسل، وأن يتم إرسالها في كل مرة، من مكان مختلف، بعيداً عن مقر إقامة المرسل....

ثم تطورت التكنولوجيا، فحلَّ - الكيماويات محل الكربون الأبيض، وينفس القواعد، وبدأت حرب الكيمياء، بين كل الأطراف المتصارعة، في عالم التكنولوجيا، وراح الفنيون في كل فريق، يعملون على ابتكار كيماويات جديدة خفية، ذات تركيبات معقدة، بحيث لا يمكن إظهارها، إلا بوساطة كيماويات أخرى أكثر تعقيداً، ونشط كل طرف أيضاً، في محاولة كشف تركيبات الخصم، وإيجاد وسيلة لإظهارها، قبل أن تتطور التكنولوجيا أكثر وأكثر، وتظهر الأجهزة الحديثة، التي تستخدم مقاييس الطيف، في تحليل المواد الكيماوية، ومهمها بلغ تعقيدها....

وهنا بدأ البحث عن وسائل جديدة، كان أشهرها إيجاد تركيبات مشعة، ذات طول موجي خاص، بحيث لا يمكن إظهارها، إلا

باستخدام الأشعة فوق البنفسجية، ويطول محدود للغاية...  
ولكن حتى هذا أمكن كشفه، بالأجهزة الأحدث والأحدث، وكل هذا قبل أن يظهر الكمبيوتر إلى الوجود، ويجعل فكرة الخبر السري تبدو ساذجة، ثم يضع أبعديات جديدة للعمل السري، وهو ما أربك الكثير من المفاهيم لدى العامة، وجعلهم يتصورون أنه لم تعد هناك حاجة للجاسوس البشري، في ظل تكنولوجيا رقمية، تتطور في كل يوم، وأحياناً في كل ساعة، وهذا حديث سنعود إليه فيما بعد، ولكن المهم الآن هو أن نشير إلى أنه حتى التكنولوجيا الرقمية، ليست آمنة كما يتصور البعض، بل وربما تكون أكثر يسراً في كشف عملية نقل المعلومة، إذ أن أي اتصال رقمي يمكن تتبعه، ومعرفة مصدره بالتحديد، مهما حاول صاحبه إخفاء هذا، مع ملاحظة أنها تتحدث عن إمكانيات أجهزة مخابرات كاملة، وليس عن إمكانيات فردية بسيطة... ففي عالم الجاسوسية هناك دوماً حرب لا تنتهي، بين التكنولوجيا والتكنولوجيا المضادة؛ فكل طرف يسعى لابتکار وسائل تكنولوجية حديثة، والطرف المضاد يسعى لكشفها، عبر وسائل تكنولوجية أخرى، وابتکار وسائل مختلفة، في الوقت ذاته؛ لإخفاء ما يرسله من معلومات...

ومع بداية عصر الكمبيوتر، ظهرت برامج عديدة لتشفيـر كل ما يرسل رقمياً، ثم برامج لفك الشفرات، وتواصلت هذه الحرب في السنوات الأولى، قبل أن يتوصل عباقرة الرياضيات،

إلى أساليب ومعادلات رقمية، يمكنها عن طريق رصد تكرار الحروف في الرسالة، فك أية شفرة رقمية، مهما بلغ تعقيدها، وهنا وجب البحث عن وسيلة جديدة؛ لإخفاء المعلومة، التي يتحتم إرسالها رقميًا؛ نظرًا للإيقاع السريع، للعالم الحديث، الذي نعيش فيه، وهذا تم ابتكار ما يعرف باسم (الصورة الخفية)، وهي وسيلة رقمية عقريّة، تستخدم لإخفاء المعلومات، عبر صورة عاديّة، يتم إرسالها بالبريد الإلكتروني، فالصورة الرقمية – أية صورة – هي في واقعها عبارة، يتم إرسالها بالبريد الإلكتروني، فالصورة الرقمية، التي تراها العين بسيطة وأضحة، وفكرة (الصورة الخفية)، تعتمد على دس نص الرسالة، وسط معادلات الصورة الأصلية، وبأسلوب فني، لا يؤثر على الشكل العام للصورة، ولكن المستقبل وحده يعلم ما تحويه؛ لذا فهو يعيد الصورة إلى معادلاتها الأولى، ويستخلص المعلومة من بين معادلاتها ورموزها، بوساطة برنامج خاص لهذا...

وعلى الرغم من عقريّة الفكرة، إلا أن هناك قاعدة في عالم التكنولوجيا، تقول: إنه ما دامت هناك عقول قد صنعت هذا، فهناك حتّى عقول أخرى، قادرة على كشفه، وهذا يتحتم أن تكون الرسالة، المخفاة داخل الصورة، مشفرة أيضًا، وألا تكون الصورة مرسلة وحدها، وإنما ضمن مجموعة من الصور الأخرى العاديّة، التي لا تحوي أية رسائل، مع وسيلة متعارف عليها، بين المرسل والمستقبل؛ لتحديد الصورة المطلوبة بالضبط...

وفي بعض الأحيان، لا يتم حتى إرسال المعلومة كاملة في صورة واحدة، بل يتم تقسيمها إلى عدة أجزاء، يتم إرسال كل جزء منها في صورة مختلفة، وإلى مستقبل مختلف؛ لضمان وصولها دون كشف أمرها... وهذا الأسلوب هو تطوير لأسلوب آخر، يتسم أيضًا بالعصرية، استخدمته المخابرات الألمانية، خلال الحرب العالمية الثانية... وهذا حديث آخر.

\* \* \*

التكنولوجيا وشبكة الإنترنت، صار الملعب الرئيسي الكبير، في عالم الجاسوسية، وعلى عكس ما يتصور البعض، فإن مراقبة شبكة الإنترنت، ليست مهمة مستحيلة، بالنسبة للتكنولوجيا، التي تتطور في كل لحظة، فعلى الرغم من إبحار مليارات الرسائل والصور والمعلومات، عبر الشبكة العنكبوتية، في كل لحظة، إلا أن هناك برامح متقدمة، يمكنها اقتناص أية رسالة، يمكن أن تثير الشك، من وسط كل هذه المليارات، منها بلغت درجة تأمينها أو تشفيرها، وهذا قد لا يتفق مع الصورة الخفية، التي يصعب رصدها، دون معلومة مسبقة، أو مراقبة لشخص بعينه، وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى الجاسوس البشري، كآخر سلاح في هذا العالم السري الغامض، والذي يمكنه أن يبلغ الجهة، التي يعمل لحسابها، عن أشخاص بعينهم، يمكن متابعة اتصالاتهم ورسائلهم عبر الإنترنت، بصورة خاصة، وفحص كل ما تحويه، بوساطة مجموعة من الخبراء والفنين، كل في مساره، وهذا يوفر

آلاف الساعات، من فحص رسائل تحوي بعض الشك فحسب، ونعود من هذا إلى الحديث عن الجاسوس، الذي مرّ بمرحلة (جاسوس نائم)، ثم (جاسوس نشط)، ثم تحوّل مع التدريب والخبرة إلى (جاسوس فعال)، يمكنه تزويد جهة عمله بكم مفيد من المعلومات، ويمكنه عقد شبكة من العلاقات المتعددة، التي تساعدة على هذا...

عندئذ يتلقى الجاسوس دورة تدريبية أخرى، الهدف منها نقله إلى مرحلة جديدة، يمكنه فيها أن يدرس دائرة معارفه؛ لتحديد إمكانية تجنيد بعض الأشخاص، ثم يبلغ الجهاز الذي يتبعه؛ لاتخاذ ما يلزم في هذا الشأن، ولكنه لا يقوم بتجنيد الأشخاص بنفسه في هذه المرحلة، حرصاً على استقراره وسرية موقعه في بلد الزرع، إلا أنه، وبعد أن تستقر به الأوضاع تماماً، ويصبح محل ثقة جهاز المخابرات، على نحو لا يقبل الشك، يتحول إلى (جاسوس مقيم)، وهو الجاسوس الذي يدير معظم عمليات التجسس في منطقة عمله، وعبره تصل الأوامر والأموال إلى الجواسيس الأقل شأناً، ومنهم تصل إليه المعلومات، عبر (نقطة ميّة)، ويصبح أشبه بالممثل الخفي لجهاز المخابرات، في تلك المنطقة... وفي حالات نادرة، يتنهي عمل الجاسوس، دون أن ينكشف أمره، فيعود بعد تقاعده شبه الكامل، إلى حالة (جاسوس نائم) مرة أخرى، كما حدث مع (رفعت الجمال)، وأخرين لم يفصح عنهم بعد، فيستقر به المقام في دولة الزرع، أو يحتفظ بهويته

الجديدة خارجها، دون أن يزاول أية انشطة في مجال التجسس، أو يجري أية اتصالات، يمكن أن تحيطه بالشبهات، ويمكن للجهاز الذي زرعه أن يعيد تنشيطه، إذا ما تختم هذا، أو يحتفظ به كسلاح سري، ربما لا يستخدم مرة ثانية أبداً... ولقد تعددت وسائل التجنيد، في أجهزة المخابرات المختلفة، وفقاً لفاهيم كل جهاز، فجهاز الاستخبارات السوفيتية مثلاً (KGB)، استخدم قدِّيماً أسلوبَاً، أطلق عليه اسم (المخرج الوحيد)، وهو يعتمد على محاصرة أهداف وتوريطه، بحيث يكون مخرجه الوحيد من الأزمة، هو التعاون مع المخابرات السوفيتية السابقة، ففي إحدى الحالات مثلاً، وقع اختيار الجهاز على أحد المبعوثين الدراسيين، الذي كان يحصل من دولته على مبلغ مالي شهري زهيد، يكفي متطلباته الأساسية بالكاد، والقانون هناك يمنع المبعوثين من العمل خارج الجامعة، طوال فترة الدراسة، ولهذا دَسَت المخابرات السوفيتية عليه عميلاً، أقنعه بتحويل دوالراته في السوق السوداء؛ ليحصل بذلك على ضعف المبلغ، الذي يحصل عليه شهرياً، من تحويلها بالطرق الرسمية، ولما كانت عقوبة الاتجار بالعملة مخيفة أيامها، فقد طمأنه العميل بأنه لن يعرّض نفسه لأي خطر؛ إذ سيحضر له الروبلات بنفسه، ويتقاضى الدولارات بعدها... وتم الأمر، ومر بسلام أكثر من مرة، وابتھج المبعوث بالزيادة الكبيرة في الدخل، واعتاد الأمر، والعیش بهذا الدخل الجديد، حتى اتصل به العميل ذات

مرة، وأخبره أن ظروفه تمنعه من الحضور هذا الشهر، وآخره أن صديقاً مؤمناً سيصل إلى ناصية منزله، وعليه أن يلتقي به، ويتبادل معه النقد، وفي هذه المرة بالذات، ظهرت الشرطة فجأة، واعتقلت المعمود، متلبساً بتغيير العملة في السوق السوداء، وتم وضعه في زنزانة رهيبة، مع عدد ضخم من الملقي القبض عليهم، وكان عليه أن ينظر طوال الوقت إلى نافذة الزنزانة المغلقة، وإلا تعرض لعقاب رادع، لو فتح السجّان النافذة فجأة، في أية لحظة من الليل أو النهار، فوجده ينظر إلى أية جهة أخرى...

وبعد ثلاثة أيام فحسب، صار المعمود مستعداً لعمل أي شيء في الوجود؛ للخروج من هذه المأساة، وعندما وافق على العمل مع السوفيت، خرج من الزنزانة، وتناول وجبة ساخنة، وارتدى ثياباً نظيفة...

ووقع على إيصال باستلام مبلغ كبير من الروبلات، مقابل العمل لحساب المخابرات السوفيتية...

وبهذا الإيصال، وقع في الفخ، وصار مضطراً لاستمرار العمل، أو للبقاء على ذمة المخابرات السوفيتية، في حالة (جاسوس نائم)، أو (جاسوس احتياطي)، قد لا ينتقل إلى حالة (جاسوس نشط)، إلا لو ترقى في عمله، و... وما زال للحديث بقية.

\* \* \*

لكل جهاز من أجهزة المخابرات العالمية، أسلوبه ووسائله،

في الإيقاع بمن يستهدف تجنيدهم، وفقاً لأيديولوجيته، ومنهجه الفكري، فالنسبة لجهاز المخابرات السوفيتية السابق، كانت لديهم وسيلة مضمونة، معروفة باسم (الخرج الوحيد)، حيث يتم وضع العنصر المستهدف في حالة سيئة، يكون خرجه الوحيد منها، هو التعاون مع المخابرات السوفيتية، فقدّيماً، كانت معظم البعثات تذهب إلى الاتحاد السوفياتي، وكانت ميزانية المبعوث محدودة، تتيح له الحياة بالكاد، خاصة وأن القانون لم يكن يسمح له بالعمل، طوال فترة بعثته، وكان على المبعوث أن يحول ما يصله من المال إلى الروبلات السوفيتية، بالسعر الرسمي هناك، والذي كان مختلفاً كثيراً عن سعر الروبلات الحقيقي، في السوق السوداء، في نفس الوقت الذي كانت عقوبته تحويل العملة في السوق السوداء مفزعـة إلى حد كبير...

وكانت المخابرات السوفيتية تختار العنصر المستهدف، من بين المبعوثين، ثم تدرس عليه أحد عملائها، الذي يطرح عليه فكرة تحويل العملة بسعر السوق السوداء، دون أية مخاطرة، وتأكد لحسن النوايا، يحضر له المبلغ فعلياً، قبل أن يتسلّم منه راتب البعثة، ويكون المبلغ ضعف مبلغ التحويل الرسمي على الأقل، فيفرح الهدف بالفارق المالي الكبير، الذي يتتيح له حياة أكثر انتعاشًا، مع الانعدام التام للمخاطرة...

ويتكرر هذا الأمر مرات ومرات، حتى يعتاد المبعوث لهذا الدخل الجديد، ويعتمد العيش بهذا المستوى، وهنا تأتي مرة،

يعتذر فيها عميل المخابرات السوفيتية عن الحضور، ويطلب من المبعوث أن يتبادل المبلغ مع صديق له، سيلتقى به عند ناصية سكنية، وأمام الموقف، واعتياض الأمر، يلتقي المبعوث بذلك الصديق المزعوم، ويتم التبادل...

وهنا تظهر الشرطة فجأة، وتلقى القبض على الرجلين، ويتم نقل ثلاثة شخصاً، في زنزانة صغيرة قدرة، سيئة التهوية، بها مرحاض بدائي في منتصفها، يزيدها سوءاً، مع تعليمات صارمة من السجان، الذي يبدو شرساً، قاسى الملamus، بأن ينظر المبعوث طوال الوقت إلى نافذة الباب المغلقة، ليل نهار، بحيث إذا ما فتح السجان النافذة فجأة، وضبطه ينظر إلى جهة أخرى في آية لحظة، يتم جذبه في قسوة خارج الزنزانة، وضرره في شراسة، حتى يكاد يفقد الوعي، ويتم حرمانه من وجبة الطعام الوحيدة الهزيلة، التي تقدم يومياً، والتي تعافها النفس، وتكتفي طفلاً بالكاف...  
وبعد ثلاثة أيام على الأكثر، في هذه المأساة الرهيبة، يصبح الهدف مستعداً للتعاون مع الشيطان نفسه، إذا لزم الأمر؛ للخروج من هذا الجحيم... وهنا، وعندما يقرر الخبراء أن الوقت قد حان، يتم إخراجه من الزنزانة، ويحصل على حمام ساخن، وملابس نظيفة، ووجبة دسمة، ثم يخبره الخبراء، بأن كل المطلوب منه، هو أن ينقل إليهم أخبار الأميركيين أو الإنجليز في (مصر)، ويؤكدون له أنه لا نية لديهم ولا هدف، في الحصول على آية معلومات عن المصريين أو أسرارهم، مما يجعل ضميره يهدأ،

ويجد في هذا العرض (المخرج الوحيد)، من الجحيم الذي عاشه، والذي يمكن أن يعود إليه، فيوافق على الفور، ويتقاضى عقب الموافقة مبلغًا جيداً من الروبلات، ويوقع إيصالاً باستلامه، من المخابرات السوفيتية...

وبتوقيع هذا الإيصال، يكون قد غاص في المستنقع حتى أذنه، وترك خلفه دليلاً دامغاً، على تعاونه مع مخابرات أجنبية... وينهي المبعوث بعثته، وقد وقع عدداً آخر من الإيصالات، ويتورط أكثر وأكثر، دون أن يطالبه أحد بأية معلومات، وبعد انتهاء بعثته، يعود إلى (مصر)، ويرسل في البداية، تحت ضغط الخوف، بعض المعلومات القليلة عن الاجانب في مصر، ثم يحاول التناصل من الأمر، فلا يعترض أحد، ولا يطالبه بأي عمل، أو أية معلومات....

ويمضي الزمن، ويكبر المبعوث، ويتصور أن ما حدث كان مجرد ذكرى سيئة من الماضي، وأنهم قد نسوا أمره تماماً، حتى يحتل منصباً كبيراً، بعد عدة سنوات، أو يصبح من أصحاب القرار... وهنا يفاجأ بمن يجري اتصالاً به، لتشييده، مع التأكيد على أنهم سيفضحون أمره، من خلال الإيصالات، التي ثبت عمله معهم لسنوات، وأن هذا كفيل بتدمير مستقبله، والقضاء على كل ما وصل إليه من منصب ومكانة...

ومرة أخرى، يصبح استمرار التعاون معهم هو (المخرج الوحيد)؛ لعبور تلك الأزمة الجديدة...

هكذا كان السوفيت يفعلون، قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، ولقد اقتبست المخابرات الإسرائيلية الأسلوب نفسه، واتبعته مع (على العطفي)، عميد معهد العلاج الطبيعي الأسيق، والمدلك الخاص للرئيس (جمال عبد الناصر)، والرئيس (السدات)، والذي اتبع له الإسرائيليون شهادة دكتوراه زائفة من (الاتحاد السوفيتي)، بعد فشله في الحصول عليها فعلياً، وجندته خسماها، حتى تم كشف أمره، عقب تحريرات المخابرات عنه، في عصر الرئيس (السدات)، وألقى القبض عليه، وصدر حكم بإعدامه....

ووسائل المخابرات الإسرائيلية في التجنيد، تختلف عن وسائل السوفيت، في نواحٍ شتى؛ إذ أنهم يسعون دوماً خلف توريط الهدف، في أمور نسائية أو مادية، أو استغلال طموحاته وتطلعاته، و...  
هذا حديث آخر.

\* \* \*

أكبر مستند، يسقط الجاسوس في يد من جندوه، الإيصال الذي يقعه باستلام أي مبلغ من المال منهم؛ إذ أنه يثبت تماماً تعامله معهم، وتقاضيه ثمن خيانته، يثبت حالة الرضا والقبول لديه، ويجعله في بعض الأحيان، مضطراً للاستمرار في الخيانة؛ خشية أن يصل هذا الإيصال إلى المسؤولين في وطنه، فتهاجر حياته كلها...  
ولكن أي جاسوس، يتم تجنيده بهذه الوسيلة القسرية، يمكنه أن يفلت من بئر الخيانة، بأسلوب واحد فقط، وهو أن يتوجه، فور

عودته إلى وطنه، إلى مخابرات دولته، ويخبرهم بكل ما حدث، ويوضع نفسه تحت تصرّفه، وهم قادرون، في هذه الحالة، على حمايته، وانقاده من مصير أسود، في حالة اكتشاف أمره..

وهناك فارق كبير، بين شخص حاول العدو تجنيد، فلجاً مباشرةً إلى مخابراته لحمايته، وأخر تصور أنه قادر على خداع الجميع، فواصل تزويد العدو بالمعلومات لفترة، طمعاً في المزيد من المال، وبعد أن حقّق ما يريده، حاول القيام بما يسمى (اللعبة التنظيف)، وهي أن يلجاً بعدها إلى مخابرات دولته، ويبلغها بما حدث، متصوراً أنه بهذا قد فاز بالحسينين، فحصل على أموال العدو، وقام بتنظيف قذاراته في الوقت ذاته، وهي أكثر الألعاب حماقة، في عالم الجاسوسية، فمن غير المنطقي، حتى في كرة القدم، أن يتصور لاعب واحد قدرته على مواجهة فريقين محترفين، والانتصار عليهما معاً، في آن واحد... فجهاز المخابرات - أي جهاز مخابرات - ليس مجرد مكتب بسيط، بل كيان ضخم، يضم عدداً هائلاً من الخبراء والمحترفين والفنين، الذين يمكنهم استيعاب وتحليل وتنسيق كل كلمة تصل إليهم، وعندما يحاول أي جاسوس متلاعب مواجهة هذا الفريق المخيف، فإنه سيكشف نفسه، منها أنخذ من وسائل الحذر، وسيدرك الفريق حتى مدى تورّطه، وسيكشف لعبة (التنظيف)، التي يحاول القيام بها، وستصبح أقواله عندئذ هي دليل إدانته، وليس وسيلة تنظيف ماضيه...

فأي جهاز مخابرات في العالم لا يعمل فيه أحد، أو يتخذ أية قرارات، على نحو منفرد، دون الرجوع إلى الخبراء، وهذا يمكن أن يحجب التساؤل الدائم، عن سر طول الفترة، ما بين كشف أمر جاسوس ما، والإعلان عن هذا الكشف، وتلك الفترة، ما بين إلقاء القبض عليه، والإعلان عن هذا؛ ففي نظم الأمن العادلة، يمكن أن يتهمي أي تحقيق خلال أيام قليلة، ومن الوارد استخدام شيء من العنف؛ لانتزاع الاعترافات، ولكن في عالم المخابرات يختلف الأمر كثيراً، إذ لا يتم إلقاء القبض على أي جاسوس، أو متهم بالجاسوسية، إلا بعد أن تكتمل لدى الجهاز أدلة كافية، كثيراً ما تكون موثقة بالصوت والصورة، وهذا سبب رئيسي، فالمتهم، بالنسبة لأجهزة الأمن الداخلية، يرتكب الجريمة، منفرداً أو ضمن جماعة ما، على نحو يخضع للقانون المصري وحده، أما اتهام شخص ما بالجاسوسية أو التخابر، فهو اتهام ضمني لدولة ما، بتورطها في عملية التجسس، وهو أمر شديد الحساسية، محلياً ودولياً، وهذا يحتاج إلى التيقن أولاً، قبل اتخاذ أية خطوات عملية، وفي الحالات الداخلية، ومع استخدام بعض العنف، سيحصل المحقق من المتهم على ما يريد سماعه، وليس على الحقيقة الكاملة، وهنا يختلف الأمر تماماً في عالم المخابرات، التي تمثل فيه الحقيقة الهدف الأساسي من التحقيقات، بحيث يتراجع دور الوقت أمامه، فالجاسوس، بعد إلقاء القبض عليه، تتم مواجهته بالأدلة، ثم يطلب منه الاعتراف، دون استخدام

لحة من العنف، وبمتهى الصبر، وعندما يكتب الجاسوس اعترافه بخطه، لا يؤخذ هذا الاعتراف على أنه الحقيقة، بل يتم عرضه على لجنة كبيرة من الخبراء، في مختلف المجالات، حيث يقومون بفحصه ودراسته وتحليله، ويتمتىء الدقة، إذ أن كل جاسوس يتم تدريسه على ما يسمى بالخطة (ب)، وهي عبارة عن رواية متقنة، تبدو ظاهرياً أشبه بالحقيقة، وتتماشى مع الأحداث وبعض الأدلة، وعلى الخبراء كشف هذا الأمر، وعندما يضعون تقريرهم، الذي يفنّد الاعتراف الأول، ويظهر نقط الضعف فيه، يتم إعادته إلى الجاسوس، وتم مواجهته بتقرير جنة الخبراء... وربما يلجم الجاسوس عندئذ، وفقاً لمرتبته وخبرته، إلى الخطة (ج)، التي تتخذ الدورة نفسها، ثم تعاد مرة أخرى إلى الجاسوس، الذي يسقط في يده في النهاية، ويدرك عبث اللعبة، فيدلّي أخيراً بالاعتراف الحقيقي، الذي يتفق مع كل الأدلة، ومع تقرير الخبراء...

هذا قد يستغرق انتزاع الاعتراف من الجاسوس عدة أشهر؛ باعتبار أن الهدف الأساسي هو الحصول على الحقيقة، وليس إغلاق الملف فحسب... وهناك دوماً تساؤل آخر، يطرح نفسه دوماً، مع إلقاء القبض على أي جاسوس، وهو: لماذا لا يتم حضور محامي له للاستجواب، من اللحظة الأولى؟!.. وإجابة هذا التساؤل بسيطة للغاية؛ فهناك سببان أساسيان لهذا، أوَّلُهما أن هناك معلومات، قد يتم تداولها أثناء التحقيق، وتدرج تحت

بند السرية المطلقة، التي لا يجوز لآخرين، منها كانت مكانتهم،  
الاطلاع عليها، والسبب الثاني هو أن هناك في عالم المخابرات ما  
يعرف باسم (كود الأمان)... وللحديث بقية.

\* \* \*

(كود الأمان) ليس كودا سرياً معقداً، كما قد يتصور البعض، وإنما هو مجرد عبارة بسيطة، يمكن أن تقال وسط حوار عادي، وتبدو مناسبة مع الحوار، ولكنها تنقل رسالة ما، متفق عليها مسبقاً، ففي إحدى الحالات مثلاً، كان الاتصال التليفوني، الذي يبدأ بكلمة (ألو)، يعني أن المتصل يجريه مضطراً، وأنه واقع تحت سيطرة الخصم، وأن ما سيقوله بعدها، هو ما يميله عليه هذا الخصم، أو أن كل ما يقال مراقب ومسجل، فإذا ما سمع الطرف الآخر كلمة (ألو) هذه، فعلية أن يستعد لهذا الموقف، ويدرك أن عمليه تحت السيطرة...

وعندما تم كشف أمر الزوجين الجاسوسين (إبراهيم حسين شاهين) و(انشراح على موسى)، قبل حرب ١٩٧٣م، لم يتم إلقاء القبض عليهما فوراً، على الرغم من نجاحهما في عقد صلات مع جهات عديدة، إلى الحد الذي دفع الجيش الإسرائيلي إلى منحهما رتبة شرفية في الجيش هناك، تحت اسمى (موسى عمر) و(ديننا عمر)، ولكن المخابرات المصرية وضعتهما تحت السيطرة، دون أن يدركا هذا، ودست عليهما من المعلومات الزائفة، مما ساعد على استكمال خطة الخداع الاستراتيجي، وإيهام العدو بأننا غير

مقبليين على الحرب، وفي الوقت نفسه، راحت المخابرات تسعى، من خلال عيونها في قلب إسرائيل؛ لكشف كل ما يتعلق بها، حتى أنه عندما ألقى القبض على (إبراهيم) وولديه، اللذين كانا شريكين في لعبة الجاسوسية، في يونيو ١٩٧٤ م، ثم على (انشراح)، عقب عودتها من لقاء مع المخابرات الإسرائيلية في (روما)، في أغسطس من العام نفسه، كان رجال المخابرات المصرية على علم تام بالكود السري للاتصال الآمن، لذا فقد أجبروا (إبراهيم) على استمرار اتصالاته بزوجته وبالإسرائيليين، لأكثر من أسبوعين، دون أن يجرؤ على استخدام (كود الآمان) ولو مرة واحدة؛ لأن الرجال يعلمون به، وأخبروه عنه، قبل أن يبدأ اتصاله الأول... و(كود الآمان) لا يستخدم في هذه الحالة فحسب، ولكن يستخدم أيضا لإرسال رسالة مطمئنة إلى الجاسوس، إذا ما وقع في قبضة العدو، وعند ساعتها، يشعره هذا بشيء من الاطمئنان، ويمنحه بعض القوة، في مواجهة الاستجواب، والعناد في كشف الحقيقة، وهذا الكود يمكن أن يأتيه من خلال محامييه، دون أن يدرك المحامي نفسه خطورته، ودون حتى أن يتخيّل تأثيره، عندما يتلقاه من خلال من يوكله، عبر عبارة عادية، تطمئنه على أسرته، أو على صديق مقرّب، قد لا يكون له وجود في الواقع... وبعد سقوط الجاسوس، وقضاء فترة طويلة في استجوابه، واعتصار كل ما لديه من معلومات، والتيقن من صحتها، ومطابقتها لكل الأدلة والقرائن، وتمشيها مع أسلوب الجهاز

الذي جنده، تنتهي فائدة المخابرات، بالنسبة لجهاز المخابرات، فيما عدا فائدة واحدة، لابد وأن يسبقها تقديمها إلى المحاكمة، مع كل أدلة ووثائق الاتهام، التي تضمن صدور حكم بسجنه، لمدة تتوافق مع مدى خطورته...

والأمر هنا مختلف، بين جاسوس من المجتمع نفسه، باع ضميره، وخان وطنه، وتجسس لصالح العدو، وأخر من دولة أخرى، جاء خصيصاً ليتجسس على دولة، ويحصل على معلومات وأسرار منها، ففي الحالة الأولى، تكون الفائدة الأخيرة للجاسوس، هي فضح أمره، وفضح الدولة التي جنده، وإرسال رسالة إلى غيره، تقول: إن العيون المخابراتية يقظة، ولا تغفل عن حماية وطنها، أما في الحالة الثانية، فلا يكون سجن الجاسوس هو الفائدة، وإنما قيمته، كسلعة في سوق الحاسوبية، يمكنها أن تتحقق صفقة مفيدة للدولة، إذ أنه بعد اعتصار كل ما لدى الجاسوس من معلومات، وحتى بعد سجنه، لا يعود لوجوده هدف هام، إذ لم يعد لديه ما يعطيه، بل يصير عبئاً على الدولة، التي ستتفق الأموال لسجنه وحراسته وإطعامه، ولكن فائدته الكبرى تكون في الصفقة، التي تجري بشأنه، مع العلم بأنه هناك دوماً ما تحتاجه أية دولة، إما الإفراج عن آخرين محتجزين لدى العدو، أو الحصول على سلاح جديد، أو حتى صفقة مالية، لبناء اقتصادها القومي...

في السبعينات مثلاً، وقع في قبضة المخابرات المصرية جاسوس

إسرائيلي، كان ضابطاً في الموساد، يدعى (باروخ مزراحي)، ولقد أحضره ضابط مخابرات شجاع، من اليمن إلى القاهرة، في مغامرة مثيرة، وتم استخلاص كل المعلومات الممكنة منه، وعندما يتيقن رجال المخابرات من أنهم قد حصلوا على كل ما يريدون، تطلعوا إلى بعض رجال المقاومة في سيناء، كان العدو قد ألقى القبض عليهم، عقب حرب أكتوبر مباشرة، وتم عقد صفقة مع الجانب الإسرائيلي، تم بموجبها استبدال باروخ، بعدد كبير من الأسرى المصريين، من بينهم مجموعة المقاومة الشعبية العريشية بأكملها، وكان هذا، في نظر الجميع، صفقة استبدال ناجحة...

فعندما نسمع عن استبدال جاسوس ما، ينبغي ألا ننظر إلى الأمر بروح انتقامية، ونطالب بالقصاص؛ لأن أقصى ما يمكن أن يناله، في أية دولة، هو السجن، بل ينبغي أن ننظر إلى الجانب الآخر... إلى أبناء الوطن، الذين سيتم استردادهم، مقابل ذلك الجاسوس، الذي لم يعد يساوي شيئاً بالمعنى الحرفي... ولنا بقية.

\* \* \*

أجهزة المخابرات لا تعرف المفهوم الانتقامي؛ لأنه ليس موجوداً في قاموسها؛ باعتبار أن عملها كله يعتمد على العقل والحكمة والتروي، وحساب كل خطوة، ولأن الانتقام سلاح ذو حدين، وإذا ما بدأت لعبته، فهي تبدو أشبه بالثأر، الذي يستمر لسنوات، فينشغل به جهاز المخابرات، عن واجباته

الفعالية، ولكن هذا لا يمنع حدوث عمليات انتقامية عنيفة، في عالم المخابرات...

ولدينا رواية حديثة نسبياً. ففي عام ١٩٧٢ م، وأثناء انعقاد الدورة الأوليمبية في مدينة (ميونخ) الألمانية، وبعد رفض مسئولي الدورة اشتراك رياضيين فلسطينيين؛ باعتبار أن فلسطين لم تكن دولة رسمية في ذلك الحين، قررت منظمة أيلول الأسود، القيام بعملية ملفتة، ذات تأثير متفجر؛ بهدف جذب الأنظار إلى القضية الفلسطينية، فقامت مجموعة فدائية، بقيادة (محمد داود عودة)، المعروف باسم (أبو داود)، بالتسلل إلى مقر الدورة، ولقد ساعدتهم المصادفة البحتة على هذا، عندما وصل بعض الأميركيين السكارى، وبدأوا في تسلق الأسوار، وبعدها اقتحمت المجموعة مقر البعثة الرياضية الإسرائيلية، واحتجزت أحد عشر رياضياً إسرائيلياً، قتل منهم رياضي ومدرب حاولا المقاومة، وطالبت المجموعة الفدائية بالإفراج عن مائتي أسير فلسطيني، من المعتقلين في السجون الإسرائيلية، من بينهم (ريما عيسى)، و(نيريز هلسا)، اللتين تم أسرهما، إثر عملية مطار اللد، في مايو العام نفسه، والفداء الياباني (أوكاموتو)، والضباط السوريين الخمسة، الذين أسرتهم (إسرائيل)، مع ضابط لبناني، في يونيو من نفس العام، مع تأمين نقلهم إلى أية دولة عربية، ولقد حاصرت الشرطة الألمانية المكان، وأبلغت السلطات الإسرائيلية، التي أرسلت مسؤولاً كبيراً من (الموساد)؛ إعداد كمين إطلاق

سراح الرهائن، حتى لو أدى هذا إلى مقتلهم، كما صرحت آنذاك، رئيسة الوزراء الإسرائيلية (جولدا مائير) أمام الكنيسيت... ولقد طالب الفدائيون بطائرة تنقلهم مع رهائنهم إلى (القاهرة)، وتم تنفيذ مطلبهم ظاهريًا، حيث وصلت طائرة هليوكوبتر، حلت الفدائيين ورهائنهم إلى مطار (فوريشنفليد بروك) الحربي، حيث كان الكمين في انتظارهم، وهناك أضيفت الأضواء الكاشفة، وأطلق القناصة الألمان النار على الفدائيين، الذين جاؤ ب لهم بالمثل، وأطلقوا النار على المصايبع الكاشفة، حتى ساد الظلام، وتواصل إطلاق النار لثلاث ساعات كاملة، تم خلالها قتل ضابط ألماني، وطيار إحدى المروحيتين، وتفجير المروحية نفسها، وقام الفدائيون بقتل الفريق الرياضي الإسرائيلي كله، وقتل خمسة من أصل ثمانية، من الفدائيين الفلسطينيين، وألقى القبض على المتبقين الثلاثة، ولكن مجموعة فدائية أخرى اختطفت إحدى طائرات (لوفتهانزا)، كانت متوجهة من (بيروت) إلى (ألمانيا)، مما أجبر السلطات الألمانية على إطلاق سراح الفدائيين الثلاثة، في التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٧٢م...

وهنا أعلن (الموساد) أنه سيقوم بالانتقام من جميع مخططي ومنسقي، ومن تبقى من منفذي العملية وعائلاتهم، حتى ولو استغرق هذا سنوات...

وكان أضخم وأغرب عملية انتقامية مخابراتية في التاريخ، إذ خطط (الموساد) ونفذ عدداً من عمليات الاغتيال الانتقامية، لعدد

من الأفراد، قيل أنهم المسئولون عن عملية (ميونخ)، مما وضع خطأ جديداً، تحت كلمة (الانتقام)، في القاموس التخابري... ولو أنها أدرجنا تنفيذ الاغتيالات، تحت بند العمليات الانتقامية، فسنجد أن المخابرات السوفيتية السابقة، تحتل موقع الصدارة في هذا الشأن، فعقب الثورة البلشفية، وحتى نهايات الثمانينات، نجح العديد من المنشقين عن النظام الشيوعي، في الفرار من الاتحاد السوفيتي، بطرق مختلفة، وأصرّت المخابرات السوفيتية على ألا يهنا لهم عيش، حيث ذهبوا، فأنشأت قسماً خاصاً، لتنفيذ عمليات الاغتيال، على عدد كبير من المنشقين، عبر كل دول (أوروبا)، وعلى رأسها (إنجلترا)، التي استضافت القسم الأعظم منهم، ومنحتهم - وفقاً لدستورها - حق الإقامة في بلدها، ولقد بدأ هذا القسم، فور إنشائه، في حصر أعداد المنشقين السوفيت، وتحديد مواقعهم، وابتكر وسائل اغتيال جديدة وفعالة وسريعة، بحيث تتم العمليات في سرعة ودقة، ولقد ظلت أوروبا لسنوات طويلة، مسرح عمليات الانتقام المخابراتي السوفيتي من المنشقين، ومعمل تجارب وسائل الاغتيال المبتكرة، ومن أشهر العمليات والابتكارات، عملية اغتيال كاتب سوفيتي منشق، في أكبر ميادين العاصمة البريطانية، حيث اقترب منه قاتل محترف، و... لهذا رواية أخرى.

\* \* \*

## (٤)

ذات يوم من أيام الشتاء الملبدة بالغيوم، في العاصمة البريطانية (لندن)، في أوائل ستينيات القرن العشرين، كان أديب سوفييتي منشق، يسير في أحد أكبر ميادين العاصمة، التي نجح في الفرار إليها، من خلف الستار الحديدي، عندما اقترب منه رجل عادي، وخرزه في ساقه بطرف مظلته، على نحو بدا شديد العقوبة، ثم اعتذر له بتهدیب شديد، وافترق الرجال...

ولم تمض دقائق، حتى شعر الأديب السوفييتي المنشق بدوار شديد، وغمامة امام عينيه، وعجزت ساقاه عن حمله، ثم لم يلبث أن سقط فاقداً الوعي... وبممتئلي السرعة، تم نقل الرجل إلى المستشفى، وحار الأطباء في تشخيص حالته، التي راحت تتدهور في سرعة، دون استجابة لأي من علاجات الأطباء، حتى لقى مصرعه بحلول الليل، وبدت حالته وكأنها واحدة من العجائب الطبية غير المفسرة، ولكن تشريح الجثة، الذي يتم على نحو تقليدي، مع كل حالة وفاة غامضة، في المستشفيات البريطانية، اكتشف حقيقة مذهلة...

في البداية، لاحظ الطبيب الشرعي التهاباً بسيطاً، يحيط بمنطقة من ساق الرجل، ويوحي بحدوده قبيل وفاته بقليل،

وعندما فحص وخزنة صغيرة، في مركز الالتهاب، عشر داخلها على كرة شديدة الصغر، تبدو أشبه بحبة رمل كبيرة الحجم، ولكن ما أثار انتباهه واهتمامه، هو أنها بدت كجسم صناعي، أكثر منه طبيعي ...

وتحت الميكروسكوب، كانت المفاجأة الكبرى، فتلك الكرة الدقيقة، كانت كرة صناعية بالفعل، محوّفة من الداخل، وبها أربعة ثقوب منتظمة في الخارج، وبعد فحص دقيق، تم في وحدة أكثر تخصصاً، كشف المتخصصون أن تلك الكرة كانت تحوي مادة (الخردل) السام، وأنها مصممة، بحيث تخرج مادة (الخردل) من ثقوبها الدقيقة، بكميات تكفي لقتل رجل بالغ، خلال ساعات قليلة، وأن تلك الكرة قد حققت في ساق الكاتب المنشق، قبيل ساعات قليلة من وفاته، ولقد مضت سنوات، قبل أن تتوصل المخابرات البريطانية، إلى أن السوفيت استخدموا مظلة خاصة، يحتوي مقبضها على زناد خفي، يطلق تلك الكرة عبر قمتها المدببة، بوخزة واحدة سريعة، من خلال شخص متخصص، وكانت الواقعة بداية اكتشاف ذلك القسم، في المخابرات السوفيتية السابقة (KGB)، والذي تخصص في ابتكار وسائل اغتيال غير تقليدية، وتجربة تأثيرها على المنشقين السوفيت، الذين فروا إلى معظم بلدان أوروبا؛ رفضاً للأسلوب القمعي، الذي كان يستخدم هناك، عقب الثورة البلشفية ...

فالمخابرات السوفيتية في هذا المجال، وتلتها المخابرات

الإسرائيلية، التي تعد الاغتيالات هدفاً أساسياً لها؛ للقضاء على كل من يسببون لها الصداع، في سياستها الاستعمارية، والفارق بينهما هو أن المخابرات السوفيتية تلجأ دوماً إلى التصفية الجسدية، المباشرة، والتي مازالت خبراؤها يواصلون تطوير وسائلها، حتى يومنا هذا، إلى الحد الذي استخدموه معه مادة مشعة خاصة؛ لاغتيال عميل سابق، منذ سنوات قليلة، أما المخابرات الإسرائيلية، فهي تنتهج منهجهين، إما التصفية الجسدية المباشرة، أو الاغتيال المعنوي، لكل من يحاول تحجيمها، أو الوقوف في طريقها، كتوريطه في فضيحة مدوية، أو النبش خلفه، حتى تقع على ما يشينه أو يدينه، في حياته السابقة، قبل أن يصل إلى مكانته... وهناك أجهزة مخابرات أخرى، يكتظ تاريخها بحالات اغتيال وحشية، مثل المخابرات الفرنسية، في فترة احتلال الجزائر، حيث كان يتم حرق المعادين في حامض مرگز، أو إلقائهم من طائرة، على ارتفاع شاهق...

وهناك أجهزة مخابرات تعتبر أن الاغتيالات وسيلة قذرة، وعلى الرغم من هذا، فقد تضطر أحياناً لاستخدامها، عندما يتعارض وجود شخص ما، مع أنها القومي؛ فهنا تكون المقارنة بين حياة فرد، وحياة شعب، ومن السهل حسم القرار، في حالات كهذه، ولكن المخابرات السوفيتية والإسرائيلية، لا تضيع الوقت في حسابات إنسانية، بل تقدم وفوراً على الاغتيال؛ باعتباره الوسيلة الخامسة لكل المشكلات، فعندما بدأ (العراق)

برنامجه النووي، تحت إشراف العالم المصري (يحيى المشد)، تعقبت المخابرات الإسراتيلية العالم المصري، واغتالته في (باريس)، ولم تعرف أبداً بأنها وراء هذا العمل، حتى لحظة كتابة هذه السطور، وهذا أيضاً أسلوب تقليدي في عالم المخابرات، الذي إما أن يعلن عن عمله، لتوجيه صفعه إلى العدو، أو رسالة إنذار إلى آخرين، أو يبقى هذا العمل طي الكتمان، أو لا يعترف به جهاز المخابرات فقط؛ نظراً لاستحالة العثور على دليل قاطع، يثبت توّرط جهاز مخابرات، في عمل بعينه، حتى لو تم القاء القبض على من قاموا بالعمل، فمن العسير إثبات انتهائهم إلى جهاز مخابرات بعينه؛ كما أن عمل المخابرات يعتمد على السرية المطلقة، حتى أن بطاقات هويتهم، لا تحوي سوى صورة ورقم، بلا اسم أو وظيفة أو رتبة، كما أن الأسماء المستخدمة دوماً في التعامل، هي أسماء كودية، وليس الأسماء الحقيقية، حتى لا يمكن لجهاز المخابرات الآخر تحديد هوية رجال المخابرات، وخاصة أولئك الذين يتّمون إلى قسم الخدمة السرية، أو العمليات الخاصة، وهذا سبب رئيسي وشديد الأهمية، فيما يختص العمليات المخابراتية...  
ولهذا حديث آخر.

\* \* \*

عندما تتم أية عملية تخبر أو تجسس في العالم، يتم إسنادها إلى فريق عمل، متخصص في نوعية العملية، ويرأسه ضابط مخابرات خبير، يطلق عليه اسم (ضابط الحالة)، وهو الضابط

الذي يتبع العميل، الذي يقوم بالعملية، وينسّق عملية التعامل معه، وتبادل المعلومات والأوامر، منه وإليه، ويشرف على العملية، منذ بدايتها، وحتى فصل الختام...

وكما أنه لكل خبير في الحياة أسلوبه المميز، في أي مجال من المجالات، كذلك يكون لضابط الحالة، شاء أم أبي، أسلوب يميز أدائه، وحتى استراتيجيته في المناورة، ودونما ما يقوم جهاز المخابرات المضاد، إذا ما اكتشفت اللعبة، بعد إتمام المهمة، بدراسة أسلوب واستراتيجية ما حدث، وتصنيفه تحت مسميات خاصة، يتم اختيارها عشوائياً، لتحديد الأنماط المختلفة، ومقارنتها بعمليات أخرى، قديمة أو حديثة، أو حتى تالية...  
ومع الوقت، وتراكم الخبرات، يبدأ الجهاز، يبدأ الجهاز المضاد في جمع الأنماط المشابهة، في العمليات المختلفة، ووضعها في جدول واحد، يحمل اسمَ كوديَا، فيقال مثلاً أن هذا أسلوب ( العاصم ) ... و ( العاصم ) هذا ليس الاسم الحقيقي، لضابط الحالة، الذي أدار العمليات، المتفقة في الاستراتيجية والأسلوب، وليس حتى الاسم الكودي له، في جهاز المخابرات الذي ينتمي إليه، ولكنه اسم كودي، يضعه جهاز المخابرات المضاد، لتصنيف الاستراتيجيات والأساليب فحسب، ودراستها، ووضع خطط مستقبلية للتعامل معها، فهذا أسلوب ( العاصم )، وذلك أسلوب ( حمي )، وتلك استراتيجية ( بهاء ) ... وهكذا...  
ويبدل الجهاز جهداً هائلاً، لتحليل الأسلوب، وتفنيده

الاستراتيجية، ومحاولة استيعاب نمط فكر كل ضابط حالة...  
ويكون منتهى حلم الجهاز المضاد، معرفة ضابط الحالة نفسه،  
حتى يمكن متابعته ودراسته نفسياً، واستنتاج خطواته مسبقاً،  
ويصبح السؤال الأكثر أهمية هو: من (عاصم)، ومن (حمدي)،  
ومن (بهاء)؟!...

أي من هم في واقع الأمر؟!...  
أسماءهم الحقيقة؟!...  
وأين يقيمون؟!...  
وكيف يتعايشون؟!...

باختصار، البحث عن إجابة كل الأسئلة، التي يمكنها وضع  
تحليل نفسي واجتماعي خاص لضابط الحالة، بحيث يجعله الخبراء،  
من خلال المعلومات، كالكتاب المفتوح، يمكن نوقع صفحاته  
التالية مسبقاً، فور تحديد هويته، من خلال أسلوب العملية...  
ولهذا تعد الهوية الحقيقة لضابط المخابرات سراً، حتى  
داخل الجهاز نفسه، والذي يتعامل الكل فيه، من خلال أسماء  
كودية، يتم استخدامها داخل جدرانه فحسب...

وكل أجهزة المخابرات في العالم، تتعامل بمبدأ أن الثقة  
المفرطة فجوة أمنية كبيرة، وإن الخذر واجب، في كل خطوة، مهما  
بُدا الشخص محل ثقة، أو أبدى ما يثبت هذا؛ لأن النفس البشرية  
متقلبة، وكل أجهزة المخابرات تتعامل مع أجهزة أخرى، بنفس  
القوة والخبرة، وأهم قاعدة أمنية تقول: إنه ما من جهاز أمني،

مهما بلغت دقته، بلا ثغرة، يمكن التسلل إليه من خلالها، وانه في كل جهاز مخابرات في العالم، قسم خاص، مهمته البحث عن تلك الثغرة، في كل الأجهزة الأخرى، وفي كل العاملين فيها، سواء أ كانوا اضباط مخابرات، أو فنيين، أو إداريين، بحيث يمكن النفاذ من خلال ثغرة، منها كانت صغيرة، إلى أسرار كبيرة وخطيرة، يمكن أن تقلب كل الموازين، في لحظة ما...

وفي عالم المعلومات، لا توجد ثغرة كبيرة، أو ثغرة صغيرة، ولا معلومة كبيرة، أو معلومة صغيرة، توجد فقط ثغرة، ومعلومة؛ فالمعلومة الصغيرة جداً، قد تكون المدخل المثالي لعملية كبيرة جداً، كما حدث ذات يوم، عندما أراد جهاز مخابرات الحصول على وثائق شديدة الأهمية والخطورة، يحملها مندوب خاص، في حقيقة ذات قفل إلكتروني، مقيدة إلى معصميه طوال الوقت، بأغلال معدنية، لا يملك هو نفسه مفتاحها، ولا يعلم حتى وسيلة فتح الحقيقة...

ولقد حصل جهاز المخابرات على معلومات عن القفل الإلكتروني، والشركة المصنعة له، وتمكن الخبراء من تحديد وسيلة فتح القفل وإعادة إغلاقه، دون أن يعمل الجهاز الأمني داخل الحقيقة، والمدع ب بحيث يتلف محتوياتها بحامض قوى، إذا ما تمت محاولة فتح القفل عنوة، ولكن الخبراء صنعوا قطعتي مغناطيس خاص، عندما يوضعوا في مكانين مدرrosين، على جانبي الحقيقة، يمكنها إيقاف عمل الجهاز الأمني الخاص بها تماماً...

وبقيت أمام جهاز المخابرات مشكلتان...  
أولهما ضرورة الحصول على صور تلك الوثائق الخطيرة،  
دون أن يعلم العدو بحصوهم عليها؛ حيث أن معرفته بذلك  
تفقد الوثائق جدواها؛ لأن العدو سيعمد إلى تغيير كل خطته  
على الفور، وثانيهما كيفية الحصول على الوثائق، التي لا تفارق  
حقيقتها معصم حاملها لحظة واحدة !! ...

وللوهلة الأولى، بدا هذا مستحيلاً، إلا أنه في عالم  
المخابرات - أي مخابرات - يتم دوماً اعتماد نظرية القائد الفرنسي  
(نابليون بونابرت)، والذي كانت له مقوله شهيرة: « لا توجد في  
قاموسي كلمة مستحيل » ...

لذا كان لابد من البحث عن وسيلة ما بأي ثمن...  
وهنا بدأ جمع المعلومات عن حامل الحقيقة، قبل أن تشرق  
معلومة صغيرة...  
صغيرة جداً...  
ولهذا قصة.

\*\*\*

في عالم المخابرات لا توجد كلمة (مستحيل)، ورجال  
المخابرات المحترفون، يدركون جيداً أنه ما من نظام أمني محكم  
من كل الزوايا، منها بلغت عبقرية من صنعوه؛ لأنهم بشر، والبشر  
فقط يجتهدون، بقدر ما تسمح به عقوتهم، ولكن يستحيل عملياً  
أن يصنعوا نظاماً تام الإحكام... .

هناك دوماً ثغرة ما ...

ثغرة قد تكون صغيرة للغاية، أو بعيدة عن كل الأذهان  
ولكنها دوماً هناك ...

وكل ما على جهاز المخابرات هو أن يدرس ذلك النظام  
الأمني، بكل ما يتوافر له من معلومات، حتى يتوصل إلى تلك  
الثغرة ...

وفي عملية الحقيقة السوداء، كان النظام الأمني يبدو شديد  
الإحكام، إلى حد يجعل العملية تبدو من الخارج مستحيلة،  
ولكن، ولأن الرجال لا يؤمنون بالمستحيل، فقد راحوا يجمعون  
كل المعلومات عن حامل الحقيقة، وعن نظام تأمين الحقيقة ...

كان الرجل يحمل الحقيقة طوال الوقت، وهي مقيدة إلى  
معصمه بأغلال فولاذية قوية، لا يحمل هو نفسه مفتاحها،  
والحقيقة نفسها مزودة بنظام أمني خاص، يستخدم شفرة  
مغنتيسية معقدة، ومعد بحيث يتلف محتويات الحقيقة تماماً؛ إذا  
ما تم فتحها عنوة ...

والأهم هو حتمية الحصول على الوثائق داخل الحقيقة، دون  
أن يدرك العدو هذا؛ حتى لا تفقد قيمتها ...

وهنا جاء دور المعلومات ...

وكل المعلومات عن حامل الحقيقة، كانت تؤكّد ولاه  
الشديد لجهة عمله، واستحالة تجنيده، أو حتى تحبيده، ولا توجد  
وسيلة سرية لنزع المعلومات من الحقيقة، التي لا تفارق يده فقط،

فكيف يمكن تجاوز نظام كهذا؟!...  
العجب في هذه العملية، أن الثغرة جاءت من معلومة  
صغريرة..

معلومة تقول: إن حامل الحقيقة يعشق تناول مشروب  
(الروم)...

صحيح أنه ليس مدمناً للخمور، ولكن هذا هو مشروب  
المفضل...

وبناءً على هذه المعلومة، تم وضع خطة معقدة؛ للحصول  
على تلك الوثائق شديدة الخطورة...

كان الرجل سيسافر بالحقيقة، من (أمريكا الجنوبيّة) إلى  
(آسيا)، على خطوط طيران تتوّقف في أوروبا، وعلى هذا تم  
اختيار أوروبا كمسرح للعملية، وتم إعداد المسرح لاستقبال  
اللاعب الرئيسي، الذي هو حامل الحقيقة بالطبع...

وفي اليوم المشهود، سافر الرجل على متن طائرة أوروبية، وفي  
الدرجة الأولى، حيث يتم تقديم المشروبات الروحية لمن يطلبها...  
وي بعد ساعتين من الطيران، تقدّمت إحدى مضيقات الطائرة  
بعربة صغيرة، تحوي زجاجات من المشروبات الروحية، تحوي كل  
منها جرعة صغيرة من المشروب، وعندما وصلت إلى حيث يجلس  
حامل الحقيقة، وبوسيلة ما، لم تكن العربية تحوي عندئذ، سوى  
زجاجة واحدة من (الروم)، ومن نفس النوع الذي يعشقه الرجل...

وكان من الطبيعي، والحال هكذا، أن يلتقط الرجل تلك الزجاجة؛ ليتسلى بمشروب المفضل، والذي أضيف إليه عقار خاص، من إعداد القسم الفني بجهاز المخابرات، لا طعم له ولا رائحة، ولكنه يسبب آلاماً معاوية، تشبه إلى حد كبير أعراض التهاب الزائدة الدودية، وكان هذا يستلزم بالطبع التيقن من أن الرجل لم يجر عملية الزائدة الدودية من قبل ...

وقبل الوصول إلى محطة الانتظار، في تلك الدولة الأوربية، بدأ العقار يحدث تأثيره، وشعر الرجل بالآلام تشبه آلام التهاب الزائدة الدودية، شخصها طبيب، تواجد في نفس الدرجة الأولى، على نحو بدا أشبه بالمصادفة، وأكَّد ضرورة إجراء عملية جراحية عاجلة للرجل، قبل أن تسوء الأمور ...

وبالفعل، أبلغ قائد الطائرة المطار الأوروبي بالحالة، وعندما هبطت الطائرة، كانت سيارة إسعاف في انتظارها؛ ليتم نقل الرجل إلى مستشفى صغير؛ لإجراء جراحة عاجلة له ...

وفي حجرة العمليات، قام أحد الفتيان، من جهاز المخابرات، بإلصاق مجموعة من القطع المغناطيسية، بترتيب خاص على جوانب الحقيقة، مما أوقف عمل الجهاز الأمني لها، وتم فتح الحقيقة، وتصوير كل الوثائق السرية الخطيرة داخلها، وإعادتها إليها، دون ترك أي أثر ...

أطباء حجرة العمليات كانوا يتبعون جهاز المخابرات بالفعل، ولقد أجروا العملية الجراحية على خير وجه، دون نزع

الحقيقة، وخرج الرجل من حجرة العمليات، والحقيقة مغلقة، ومربوطة كما كانت بمعصمها، وكما رأها مندوب المخابرات المضادة، الذي كان يتضرر في توتر، خارج حجرة العمليات، التي وصل إليها بأقصى سرعة، فور علمه بما حدث ...

وبكل المقاييس، تمت العملية بنجاح فائق ...

الحقيقة لم تفارق معصم الرجل، والنظام الأمني فيها لم ي عمل، ولم يتلف الوثائق، واطمأن جهاز المخابرات إلى أنها لم تمس، في حين حصل الجهاز المدير للعملية على صور الوثائق، وعلى كل ما تحويه من أسرار ومعلومات شديدة الخطورة، واستفادت منها إلى أقصى حد، دون أن يعلم العدو أنها قد وقعت في يد الطرف الآخر، وهذا يعني (مخابراتياً) عملية ناجحة بكل المقاييس ...

ومبكرة أيضاً، كعادة كل العمليات الناجحة، في تاريخ المخابرات ...

وهذه ليست المعلومة الصغيرة الوحيدة، التي قلبت التاريخ رأساً على عقب، فهناك معلومة واحدة، ليست صغيرة، ولكنها حسمت نهاية الحرب العالمية الثانية ...

وهذا قصة أخرى.

\*\*\*

book100100

## (٥)

الحرب العالمية الثانية هي مدرسة في علم المخوسية؛ ففي زمن الحروب، تأثر أعمال المخوسية والتخابر إلى حد كبير؛ نظراً لأهمية وخطورة المعلومات، التي يمكن أن تغيرجرى الأمور، في اللحظات الخامسة...

وفي تلك الحرب بالذات، كان العالم يعاد تشكيله، على نحو شديد العنف، وكانت المخابرات الألمانية في أوج نشاطها، كما كانت المخابرات البريطانية هي سيدة هذا المجال، في نفس الوقت الذي يعتمد فيه النظام الشيوعي على قوة مخابراته، إلى أقصى درجة ممكنة، حتى في إدارة شؤونهم الداخلية، كما كان المنافس الفكري الأساسي للنازية، وكلاهما له أتباع في كل أنحاء الأرض تقريباً، وبالذات عبر بلدان (أوروبا)، التي مال معظم من يعانون فيها، إلى أحد النظامين، إما النازي الاشتراكي، أو الشيوعي، وهذا، وعندما بدأ (هتلر) الحرب، نشطت معه مخابرات الدول الثلاث، إلى حد غير مسبوق في التاريخ الحديث...

وفي قلب (المانيا)، كان (ريتشارد سورج)، الأستاذ الجامعي الصارم، عضواً في الحزب الشيوعي الألماني، حتى تولى (هتلر) مقاليد السلطة، على رأس الحزب النازي، وأعلن الحرب المستعرة

على الشيوعية... وبوسيلة ما، نجح (سورج) في التخلص من كل ما يربطه بالحزب الشيوعي؛ حتى لا يتعرض للتنكيل، بل وانضم إلى الحزب النازي، الذي يخالف كل معتقداته وأفكاره، والعجيب أنه نجح في اكتساب ثقة قادته، حتى أنه صار أحد المحررين الرئисيين، في جريدة الحزب، ومراسلاً متوجولاً لها في (أوروبا)، وخاصة في البلدان التي وقعت تحت الاحتلال النازي أيامها...

وذات يوم، وبينما كان (سورج) في طريقه إلى منزله، بعد يوم شاق، فوجئ برجل يستوقفه، ويطلب منه أن يلتقي به لقاءً منفرداً، وقبل أن يرفض (سورج)، أطلعه الرجل على بطاقة عضويته القديمة في الحزب الشيوعي الألماني، والتي ظن (سورج) أنه قد تخلص منها تماماً، مما لا يدع أمامه مجالاً للاعتراض، فدعا الرجل إلى منزله، حيث يمكنهما الحديث، دون أن يراهما أحد...

وفي منزله، فوجئ (سورج) بأن الرجل هو كولونيل في المخابرات السوفيتية (KGB)، وأنه يطلب منه العمل لحسابهم، ضد النظام النازي، الذي يبغضه في أعماقه كل البعض...

ودون الدخول في تفاصيل، تحتاج إلى مجلد كامل، قبل (سورج) المهمة، وصار منذ تلك اللحظة جاسوساً للسوفيت، يحظى بشقة واحترام معظم قيادات الحزب النازي، الذي يريق دماء (أوروبا) والعالم بلا رحمة؛ في محاولة لتحقيق حلم (هتلر) بزعامة العالم، وتحويله إلى كيان واحد، يرفع العلم النازي... ولقد تجلّت أهمية (سورج) الكبيرة، عندما نقض (هتلر) اتفاقية

الدفاع المشترك، التي أبرمها مع (روسيا) قبيل الحرب العالمية الثانية مباشرة، وبدأ عملية (بارباوسا) أو (بارباروزا)، والتي تعني (ذى اللحية الحمراء)؛ إذ ساعدت علاقة (سورج) بالقيادات السياسية والعسكرية الألمانية، على تجنيد (روسيا) ضربات موجعة، خلال العمليات العسكرية، التي انتصر فيها الألمان على طول الخط، حتى صاروا على بعد أقل من خمسين كيلو متراً، من العاصمة الروسية (موسكو)...

أيامها، وتبعاً لعمله كمراسل حربي، انتقل (سورج) إلى (اليابان)، حلقة (ألمانيا) الأولى، وأقام - ويا للمفارقة - في منزل مسئول ياباني كبير، حيث دس جهاز اللاسلكي الخاص، الذي يرسل عبره المعلومات إلى سادته السوفييت، على نحو منتظم... وفي (اليابان)، وبعقرية سجلها له التاريخ، صنع (سورج) وأدار واحدة من أقوى شبكات التجسس، التي عرفها التاريخ، وراح عبرها يمد المخابرات الروسية بأخطر المعلومات السياسية والعسكرية، طوال فترة عمله، في نفس الوقت الذي عانت فيه (روسيا) من نقص شديد في القيادات العسكرية، بعد أن كان (ستالين) قد أعدم، في وقت سابق للحرب، أكثر من ألف وثمانمائة من القادة العسكريين؛ بتهمة الخيانة، أو عدم الاتفاق مع فكره، وأسلوب إدارته للبلاد...

ويبلغ الموقف ذروة الخطورة، عندما صار النازيون قاب قوسين أو أدنى من (موسكو)، التي تخشى في الوقت ذاته هجوم

اليابانيين من الجانب الآخر؛ لتطويق (روسيا)، مما أجبرها على توزيع قواتها بين الجبهتين، الألمانية واليابانية، على نحو لم يمنع القوة الكافية لأية جبهة...

في ذلك الوقت، كان (سورج) قد كَوَّن صداقات شديدة القوة، مع العسكريين والسياسيين اليابانيين، ومنهم عرف أحضر معلومة في أخرب العالمية الثانية كلها...

عرف أن القيادة اليابانية قد اتخذت قراراً حاسماً، بعدم شن الحرب على (روسيا)...

ذلك القرار، جعل القيادات السوفيتية، التي لم تتلق معلومة واحدة خطأ من (سورج)، في تاريخه كله، تنقل قواتها من الجبهة اليابانية، إلى الجبهة النازية، وتشن على النازيين، الذين ارتكبوا خطأ عمرهم، بالتمرکز وسط الجليل السوفيتي، خارج (موسكو)، هجوماً شرساً بكل قواتهم، مما أدى إلى هزيمة ساحقة للقوات النازية، واضطرارها للانسحاب، حيث طاردها القوات السوفيتية، حتى وصلت إلى (برلين)...

وهكذا كانت معلومة واحدة، السبب في سقوط (المانيا)، ونهاية الرايخ الثالث كله...

وعلى الرغم من خبرة وعقرية (سورج)، في هذا المضمار، فقد وقع في أكبر خطأ، يمكن أن يقع فيه أي جاسوس، عندما أقام علاقة مع راقصة تعرية يابانية، واكتفى بتمزيق رسالة شفرة، وصلته من (موسكو)، وألقاها في سلة المهملات أمام عينيها...

وعندما استغرق (سورج) في النوم، جمعت الراقصة قطع الورقة، من سلة المهملات، وأبلغت المخابرات اليابانية، التي ألت القبض على (سورج)، الذي حُكم بتهمة التجسس في زمن الحرب، وتم إعدامه عام ١٩٤٤ م....  
و(سورج) لم يكن البطل الوحيد في حرب الجاسوسية، في تلك الفترة، بل كان هناك أيضاً (جيمس بوند)...  
وهذا قصة أخرى.

\* \* \*

(آيان فليمنج)، مبتكر شخصية (جيمس بوند)، شاب من أسرة إنجليزية ثرية عريقة، وربما لأنَّه الابن الوحيد لها، فقد نشأ مدللاً إلى حد كبير، وترعرع وسط أب محافظ، وأم ذات شخصية قوية مسيطرة... وكُل الأسر العريقة هناك، أرادت الأم أن تلحق ابنها بكلية عسكرية، بعد محاولة فاشلة منها؛ للاحاقه بشركة الأوراق المالية الكبيرة، التي تمتلكها الأسرة، وظننا منها أنَّ هذا هو الأسلوب الوحيد لتقويمه...

والتحق (فليمنج) بأشهر كلية عسكرية، في (بريطانيا) كلها، مع توصية من الأم، إلى مدير الكلية، بضرورة بذل أقصى جهد ممكن؛ لتحويل ابنها من شاب مستهتر، إلى ضابط ملتزم.... ولقد بذل مدير الكلية أقصى جهده، من أجل تقويم (فليمنج) الشاب، شديد الوسام، ومن أجل الأم، التي يستثمر في شركتها جزءاً كبيراً من أمواله، حرص في الوقت ذاته على أن يعامل الشاب

معاملة طيبة، خارج ساعات الدراسة، حتى أنه دعاه ذات مرة لتناول العشاء في منزله، في وجود الشابة الحسناً، التي تصغره بعشرين عاماً...

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه في حياته...

لقد انجذبت الزوجة الشابة، إلى (فليمنج) الشاب الوسيم، وسرعان ما نشأت بينهما علاقة سرية، كشفها الجنرال المخدوع ذات ليلة، فما كان منه، بعد أن هاج وماج، إلا أنه فصل (فليمنج) من الكلية العسكرية، وأعاده إلى أمه، في الحياة المدنية...

وادركت الأم أن هذا الأسلوب لن يصلح ابنها، فدفعت به مرة أخرى إلى شركة الأوراق المالية، وهي تحثه على بذل الجهد فيها، حتى يتشرب أسرار هذه المهنة شديدة التعقيد...

ولكن (فليمنج) لم يكن من يقنعون بالوظائف المكتبية، لذا فقد عاد إلى استهتاره، ولا مبالغاته بالقواعد والتقاليد المتبعة، في الأسر العريقة، خاصة وأن طبيعته المتحرّرة الخلاقّة، كانت تبحث دوماً عن كل ما هو مثير وجديد، وليس عن عمل نمطي، يقضي على إبداعاته وتألقه...

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، تأثر سوق الأوراق المالية بشدة، وتزايد استهتار (فليمنج)، ربما لأنّه لم يجد لنفسه أي دور إيجابي فيها...

وهنا، وعندما بدأ طلب شباب بريطانيا للتجنيد الإجباري، بحثت الأم في لفحة عن أية وسيلة، يمكن أن تفرّ بوساطتها بابنها،

من خوض ويلات الحرب، ولأن أحد قادة المخابرات البحرية البريطانية كان صديقاً للأسرة، فقد دعته الوالدة إلى العشاء في منزها، ورجته أن يجد لابنها وظيفة في المخابرات البحرية؛ ليبقى داخل (إنجلترا)...

وبناءً على طلبها، أخذ الرجل (فليمنج) بالفعل في المخابرات البحرية البريطانية، كسكرتير خاص له، وكان هذا أفضل ما يمكن فعله، في مثل هذه الأحوال...

وبحكم وظيفته، تواجد (فليمنج) مع رجال العمليات، وهم يناقشون ما يواجهونه من تحديات، خلال الحرب... ولقد انبع (فليمنج) بعقلية وأسلوب رئيسه الاسكتلندي، صاحب اللهجة المميزة، وبرجاحة عقله وتفكيره...

وذات مرة، وبينما يناقشون كيفية زرع جواسيس في (بولندا)، التي احتلها النازيون، انفلت لسان (فليمنج)، وراح يقترح عليهم تجنيد بعض فتيات الليل البولنديات، اللاتي هربن إلى (أوروبا)؛ للعب دورهن داخل (بولندا)، والتركيز على الضباط النازيين؛ لجمع كل ما ينفلت منهم من أسرار، أثناء ما يسمى بأحاديث الفراش...

واستنكر الحاضرون الفكرة في البداية، ولكن رئيسه أخذها مأخذ الجد، وجعل مجموعته تدرس إمكانيات تنفيذها...

ولسعادة (فليمنج)، تم وضع العملية موضع التنفيذ بالفعل، وحققت نتائج مذهلة، مع ذلك القدر الهائل من المعلومات، التي

## جلبتها من أرض العدو...

وعلى الرغم من عدم اعتراف رئيشه له بالفضل، إلا أنه سرعان ما استشاره في عملية أخرى، تتعلق بالحصول على شفرة ألمانية شديدة التعقيد... ومرة أخرى أثبتت (فليمنج) قدرته على الخيال والابتكار، ووضع فكرة بدت مستحيلة التنفيذ، إلا أنه شرحها بالتفاصيل، في تقرير كبير، انجزه خلال يوم واحد، وأوضح فيه أن استنكار الفكرة، هو أنجح جزء منها، إذ أن الاستنكار سيبعدها عن أذهان المخابرات النازية تماماً...

كان خياله واسعاً، ولكنه خلاق إلى حد كبير، وكانت قناعة رئيشه الاسكتلندي به تتزايد يوماً بعد يوم، مما جعله يجازف بوضع الخطة الثانية موضع التنفيذ، ويشرف عليها بنفسه... وأثمرت تلك الخطة أيضاً، كما فعلت سابقتها، وحصلت المخابرات البريطانية على كتيب الشفرة النازية، دون أن يدرك النازيون هذا، مما جعلها شديدة الفاعلية، في كشف تحركات العدو، طوال عام كامل...

ومن خطة خلاقة، إلى أخرى أكثر إبداعاً، تحول (فليمنج)، من سكرتير عادي، إلى مستشار عمليات، على نحو غير رسمي، إذ خل مسماه الوظيفي بلا تغيير، ولكنه صار يشارك على مائدة البحث، بدلاً من تسجيل محاضرها....

ولأن (فليمنج) كان يبحث عن الإثارة، بأكثر مما يبحث عن المسميات الوظيفية، فإنه لم يبال بهذا، وإنما راحت الأفكار تتدفق

منه، كما لو أنه قد خلق من البداية كرجل مخابرات، وإن كانت طبيعته الدرامية تدفعه إلى إطلاق أسماء مثيرة، على كل عملية جديدة... حتى جاءت العملية، التي أطلقوا عليها اسم (قلعة الأسرار)، ليتغير معها وضع (فليمنج) تماماً... ولنا تكملة.

\* \* \*

داخل قلعة حصينة، من قلاع (فرنسا) القديمة، المطلة على بحر (المانش)، والتي ترتفع عنه ستة عشر متراً، بأسوار عالية زلقة، احتفظت القيادة النازية، عقب احتلال (فرنسا)، بأهم وأخطر وثائقها السرية، التي تتعلق بخططها المستقبلية؛ لغزو (روسيا) و(إنجلترا)، ويتوزع قواتها في (أوروبا)، وخرائط طموحاتها في (آسيا) و(أفريقيا)....

ولقد اختار قادة النازية هذه القلعة بالتحديد؛ نظراً لموقعها الفريد، وارتفاعها عن البحر، فوق ربوة عالية، تتيح كشف أية محاولة للهجوم عليها، من البر والبحر، خاصة وأن الطريق البري إليها منفرد ضيق، يصعب اجتيازه، حتى لفرقة مدرعة، دون القدرة على صد هجومها ودحرها، من المنطلق العسكري، الذي يمنع التفوق لمن يحتل المكان الأعلى....

ولمزيد من التأمين، تم تزوييد القلعة بكل الوسائل الدفاعية الممكنة، بدءاً من القوات البرية والمدرعات حولها، وحتى مدفعة الدفاع الجوي، التي تركزت على سطحها، بالإضافة إلى غواصة

تحمى البحر أمامها...

وعلى الرغم من كشف المخابرات البريطانية لأهمية القلعة وما تحويه، إلا أن كل الدراسات العسكرية أشارت إلى استحالة اقتحامها عنوة، وإلى أن جميع القائمين عليها، والعاملين داخلها، يقيمون فيها بصفة دائمة، تمنع الوصول إليهم، وتعوق أي محاولة لتجنيد أحد منهم...

وفي مقر المخابرات البحرية الانجليزية، قمت دراسة أمر القلعة، من كل الجوانب، واتفق الكل على أن الوصول إليها يمكن في خانة المستحيل، حتى أنهم فكروا في طرح فكرة الحصول على تلك الوثائق جانبًا...

ولكن (آيان فليمنج)، مبتكر شخصية (جيمس بوند) فيما بعد، كان حاضرًا أحد اجتماعات اللجنة، بصحبة قائد الاسكتلندي، عندما اندفع يخبر الجميع بأن لديه خطة؛ للوصول إلى القلعة...

وعلى الرغم من دهشة واستنكار الجميع، طلب منهم القائد الاسكتلندي الاستماع إلى (فليمنج)؛ نظرًا لما عهد له فيه من خيال جامح، وقدرة على الابتكار....

وعلى مضمض، سمح له أعضاء اللجنة بالحديث وشرح خطته....

والمدهش أن حديثه قد جذب انتباهم بشدة، وجعلهم ينصتون إليه بكل جوارحهم... وكانت خطة (فليمنج) مفعمة

بالخيال والابتكار، على نحو أدهشهم...  
لقد أخبرهم أنه مادام إرسال غواصة إلى تلك القلعة  
مستحيل، فالبديل الوحيد، مع وجود الدفاعات البحرية على  
سطحها المواجه للبحر، وتلك الغواصة التي تحميها، هو إرسال  
فريق من الضفادع البشرية، من كوماندوز البحرية، للوصول إلى  
أسوارها البحرية المرتفعة، وطلب منهم ابتكار مدفع خاصة،  
مطورة عن بنادق الصيد البحرية، ويمكنها إطلاق أحبال التسلق  
إلى سطح القلعة، الذي يرتفع ستة عشر متراً؛ لدخول القلعة من  
ناحية البحر... .

وفور انتهاءه من شرح خطته، تعالت عبارات الاستنكار  
والاستهجان من القادة البحريين، خاصة وأنه من العسير،  
إن لم يكن من المستحيل، إلزal الضفادع البشرية، على مسافة  
يمكنهم قطعها تحت الماء، في وجود غواصة الحماية النازية،  
ولكن (فليمنج)، كان لديه ابتكار خيالي آخر، ألا وهو تزويد  
بعض الطوربيادات البحرية بمحركات خاصة، تجعلها أشبه  
بموتوسيكلات تحت مائية، يقودها الضفادع البشرية تحت الماء،  
حتى تصل إلى أسوار القلعة، دون أن تكشف الغواصة أمرها...  
وعلى الرغم من استنكار البعض، قرر قائد دراسة الخطة  
عملياً، وسرعان ما وضع فريق المهندسين البحريين تصميمات  
الطوربيادات ذات المحرك، ومدفع الحبال...  
وفي خطوة أدهشت (فليمنج) نفسه، عهد إليه قائد

الاسكتلندي بالمهمة؛ لينقله بهذا إلى الجانب العملي من جهاز المخابرات البحري... وفي حاس عجيب، وضع (فليمنج) خطة الهجوم، عبر عملية أطلق عليها اسم (قلعة الأسرار)، وقاد الصفادع البشرية، بواسطة الموتوسيكلات تحت المائية، حيث وصلوا في ليلة غاب فيها القمر، إلى أسوار القلعة، دون أن تكشف الدفاعات المائية أمرهم، وباستخدام مدفع الحبال، تسلقوا جدران القلعة، من الجانب الذي تصور النازيون أنه أكثر جوانب القلعة مناعة، وباغتوا من بداخلها بهجوم عنيف، سيطروا فيه على المكان، وحملوا كل الوثائق النازية باللغة السرية، في حقائب من الجلد السميك، المضاد للهاء، وعادوا بها كلها سليمة إلى (إنجلترا)؛ ليتحقق (فليمنج)، بعد عملية (قلعة الأسرار)، انتصاره الكبير، إلا أن الحرب لم تثبت أن وضع أوزارها، بانهيار الرايخ الثالث، واستسلام (المانيا)، وبعدها (اليابان)، عقب إطلاق قنبلتي (هيرشبيا) و(ناجازاكى)، وتم تسريح (فليمنج)، من الخدمة، باعتبار أنه كان مجرد مجند، وليس واحداً من ضباط المخابرات البحريية الأصليين...

ومع عودته إلى العمل في شركة الأوراق المالية، التي استعادت نشاطها عقب الحرب، استثمر (فليمنج) خياله الخصب، في ابتكار شخصية (جييمس بوند)، العميل السري البريطاني، التي استوحى سماتها من مزيج من كل ما خبره، خلال عمله في المخابرات البحريية، إذ جعله اسكتلندياً، مثل

قائده، ومنحه نفس اللهجة الخاصة، واختار له المارتيني غير المحقق، شراب قائد المفضل، كما جعله يتنمي إلى المخابرات البحرية، ومنحه رقم (٠٠٧)، مع صفين في بدايته، شأن أي عميل سري رفيع المستوى، ودفعه في عمليات تحتاج إلى خيال خصب جامح....

وعندما عرض هذا على والدته، قابلته بمزاج من الاستهتار واللامبالاة، إذ لم تتصور في ابنها المدلل القدرة على ابتكار أي شيء، ولكن (فليمنج) قدم روايته الأولى إلى الناشرين، ورآها تكتسح الأسواق، بعد أن صارت روايات التجسس هي فاكهة القارئ الإنجليزي، عقب الحرب، وعاش ليشهد نجاحها الكبير، وأول الأفلام، التي نقلت شخصيته إلى الشاشة، قبل أن توفي المنية، وهو راض عنها فعله وابتكاره....

وعلى الرغم من شهرة (فليمنج) الروائية، إلى أن بعض أهم ابتكاراته، في فن الجاسوسية، لم يلق عليها الضوء أبداً....  
ولهذا حديث آخر.

\* \* \*

في زمننا هذا، لم يعد نقل المعلومة مشكلة كبيرة، كما كان في العصور السابقة، ففي زمن الحرب العالمية الثانية، كان نقل المعلومة يتم، إما عن طريق الاتصال اللاسلكي، أو من خلال الرسائل المكتوبة بالخبر السري، أو الكربون الأبيض، أو على ميكروفيلم صغير دقيق، وكل تلك الوسائل كانت محفوظة

بالخطر، وخاصة مع التفتيش الدقيق لكل مسافر، والمراقبة الدائمة للاتصالات اللاسلكية، أما في هذه الأيام، فقد صار استخدام هواتف الأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت، عبر رسالة مشفرة، أو مدمجـة داخل صورة، فيما يعرف باسم (ستينوجرافي) (Stenography)، وصارت الصعوبة كلها تكمن في الحصول على المعلومـة، وليس في نقلها...

وخلال الحرب العالمية الثانية، كان كل طرف يبذل كل جهده؛ لابتكار وسائل إخفاء الميكروفيلم، الذي يحوي المعلومات والأسرار، على نحو يمكن أن يتجاوز عمليات التفتيش والفحص...

وفي أحد المراحل، تم استخدام كعب كعب عادي؛ لإخفاء الميكروفيلم، ونجحت هذه الوسيلة مرة أو مرتين، ثم سرعان ما انكشفت، وصارت وسيلة محروقة، لا يمكن استخدامها مرة أخرى...

وكذلك إخفاء الميكروفيلم في كعب الحذاء، وفي طيات الشياط، وجدران الحقائب....

وعبر الدراسة والبحث، ابتكر البريطانيون وسيلة جديدة لنقل الميكروفيلم، عن طريق صنع أزرار معاطف بجوفة، يمكن وضع الميكروفيلم الدقيق داخلها...

وكانت هذه وسيلة بسيطة وفعالة، أثبتت نجاحها تماماً، لأكثر من ستة أشهر...

ولكن المخابرات الألمانية كشفتها بالمصادفة البحتة، عندما أدار أحد جنودها زر المعطاف، فانفتح، وسقط منه الميكروفيلم.... وهكذا فشلت وسيلة ناجحة...

وخلال اجتماع للقادة، راح الكل يناقش البحث عن وسيلة جديدة، عندما انبرى (آيان فليمنج)، مبتكر شخصية (جيمس بوند) فيما بعد، بطرح فكرة بسيطة، فجرّت الدهشة في عقول الجميع بلا استثناء....

لقد اقترح (فليمنج) عكس اتجاه فتح الأزرار، فبدلاً من أن يدار غلافها إلى اليمين، عليهم أن يقوموا بتعديلها، لفتح في اتجاه اليسار....

كانت الفكرة من البساطة، حتى أنهم حدّقوا فيه جميعاً، خاصة وأنه كان في ذلك الحين مجرد سكرتير للقائد، يدوّن محاضر الجلسات فحسب....

ولكن الفكرة راقت كثيراً لقائده، فاتخذ قراراً جريئاً، بوضعها موضع التنفيذ....

وجاءت النتائج مدهشة، إلى حد فاق كل التوقعات؛ إذ واصل الألمان تفتيشهم الدقيق، وأداروا كل أزرار المعاطف... ولكن إلى اليمين....

وهكذا، وبدلًا من أن يفتحوا الأزرار، كانوا في الواقع يحكمون إغلاقها، دون أن يخطر هذا التعديل البسيط للغاية بعقولهم....

وبناءً على هذا النجاح الراهن، أُسند القائد إلى (فليمنج) مهمة جديدة؛ إذ كان عليه أن يفكّر في وسائل جديدة ومبتكرة، لنقل أفلام الميكروfilm الدقيقة...

وكان هذا يناسب شخصية (فليمنج)، وخياله الجامح، وهذا جلس يبتكر وسائل جديدة، مثل العملات المَجَوفة، والمخاً السري في عصا المظلة، والقاع المزدوج لزجاجات الشراب، وغيرها...

ولم تقتصر ابتكارات (فليمنج) على وسائل نقل المعلومات، وإنما امتدت إلى أسلحة الدفاع الصغيرة الدقيقة، مثل المسدس المصنوع على هيئة طلاء الشفاء، والذي يحوي رصاصة واحدة، تنطلق بإدارة قاعدته، والخنجر المخفى في المظلة، والقداحة بسيطة المظهر، والتي تتحول بضغط زر إلى قاذفة لهب صغيرة، وكلها أسلحة يستخدمها الجاسوس، إذا ما اكتشف أمره، أو حاول أحدهم إلقاء القبض عليه؛ ليمنع نفسه ثواني إضافية للفرار، أو للتخلص من كل ما لديه من وثائق... ولقد انهمرت ابتكارات (فليمنج) على القسم الفني، الذي صار يلهث خلفه؛ لتحويل خيالاته إلى حقائق، تحويها الآن موسوعات الجاسوسية، كنموذج لابتكار البسيط الناجح...

ولكن اهوس أصاب (فليمنج)، حتى أن رئيسه طلب منه التوقف؛ لأن ابتكاراته زادت عن الحد...

ربما لهذا ابتكر (فليمنج) شخصية العميل السري (جيمس

بوند)، الذي اكتظَّ مغامراته بالابتكارات والاختراعات، التي فاقت عصره، ولكن سرعان ما حُوِّلَتْ التطورُ العلمي إلى حقائق، مثل جهاز الاتصال الدقيق في ساعة المعرض، وأجهزة التنّصُّت صغيرة الحجم، وأجهزة الاتصال المرئية...

وربما هذا أيضًا لم يحتمل عودته إلى شركة السمسرة والأوراق المالية، التي تمتلكها أسرته، عقب تسرِّيحه من الخدمة بالمخابرات البحرية البريطانية...

وربما يتساءل البعض عن سر تسرِّيح (فليمنج)، على الرغم من ابتكاراته وخططه، التي تركت بصمة واضحة، في تاريخ الجاسوسية، ولكن الواقع أن (فليمنج)، على الرغم من كل هذا، لم يكن يصلح كضابط مخابرات محترف؛ إذ أنه كان شديد الحماس لكل ما يفعله، وهذا يتعارض مع شخصية ضابط المخابرات المحترف؛ لأن الحماس الزائد يفقده وضوح الرؤية والحذر، ويعرّض أية عملية له للخطر، فالعميل أو الجاسوس الناجح، هو من ينْحِي عواطفه وانفعالاته دومًا جانبيًا، ويفسح المجال كله لعقله وحده، ثم أن طبيعة عمل أجهزة المخابرات، في فترة السلم، تختلف عنها في زمن الحرب، وضابط المخابرات المحترف يعلم هذا جيدًا، ويتعامل مع كل موقف بما يناسبه...

مشكلة (فليمنج) الثانية كانت فرديته الشديدة؛ إذ لم يكن يتألق إلا منفردًا، وعمل المخابرات يتعارض مع الفردية، ويختتم اعتياد العمل بروح الفريق...

وعلى الرغم من ابتكاره شخصية (بوند)، ونجاحها منقطع النظير، فقد أصيب (فليمنج) بسببها بحالة من الهوس، في أيامه الأخيرة؛ إذ راح يحيا بنمط (بوند)، فيدخن ستين سيجارة يومياً، ويتناول المارتيني غير المخفيق، ويقود سيارته الرياضية، بسرعة سبعين كيلو متراً في الساعة، وكانت سرعة كبيرة، بمقاييس الخمسينيات، وبدأ الكل يعتقد أنه يغمار من (بوند)، الذي صار أكثر شهرة منه بكثير، إلا أنه في الواقع كان يعاني من ملل شديد، مع حياة الرفاهية والترف والنجاح، بعد تلك الفترة المشمرة، التي قضاها في المخابرات البحرية البريطانية...

ومع كل تاريخ (فليمنج)، فهو لم يكن الكاتب والأديب الوحيد، الذي عمل لحساب المخابرات، في تلك الفترة، كان الأديب والمفكّر (سومرست مووم) يعمل أيضاً لحساب المخابرات البريطانية، وهو لم يتذكر بعدها شخصية شهرة، وإنما انفرد بكونه الأديب الوحيد، الذي أصدر كتاباً، يروي فيه تجربته، في عالم الجاسوسية المثير....  
وهذا يحتاج إلى قصة أخرى.

\*\*\*

 \book100100

## (٦)

الكاتب البريطاني الشهير (سومرست مومن)، والذي ولد في ٢٥ يناير ١٨٧٤ م، نشأ في بيئة عادلة بسيطة، حشدت في أعماق موهبته الكثير من الخبرات، التي سرعان ما أفرغها عبر قلمه، في عدد من الروايات والمسرحيات، التي حققت رواجاً كبيراً في حينه، حتى أنه كان من المسرحيين، الذين ما إن تتحمل أية مسرحية اسمهم، حتى يبدأ الإقبال عليها، قبل حتى أن تعرض، وتتابع تذاكرها مسبقاً، مع ثقة رواد المسرح في قوة كاتب المسرحية، وروعه معالجته لأحداثها، مما دفع أصحاب المسارح ودور النشر إلى التسابق على نيل رضاه، والفوز بأعماله، مما جعل منه أشهر روائي ومسرحي، مع بدايات القرن العشرين ...

في تلك الفترة، اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، ولم يخطر ببال (مومن) أن يشارك فيها عملياً، باعتبار أنه كان يعاني من ضعف رئوي، ناتج عن البيئة التي نشأ فيها، ولا مبالغاته بصحته على نحو عام، شأن معظم الروائيين في عصره ... وعلى الرغم من دخوله الحرب، كان الاتحاد السوفيتي يعاني من عشرات القلاقل في أعقابه، حيث سُئم الشعب حكم أسرة (رومانتوف)، وطغيانها، وسيطرة رجال القصر على مقاليد

الأمور، وبات من الواضح، على الرغم من ظروف الحرب، أو ربما بسببها، أن الشعب الروسي مقدم على ثورة... ولقد أدركت (المانيا) هذا، وأدركت أن نجاح الثورة يحتاج إلى قائد، تلتف حوله الجماهير، ولهذا قامت بعملية استخباراتية كبيرة، عرفت باسم (القطار الحديدي)، تم خلاها إيصال (لينين) إلى (روسيا)، حتى يصبح القائد الملهم لثورتها...

ولقد رصدت المخابرات البريطانية عملية (القطار الحديدي) وأدركت أهمية أن تكون لها عيون في قلب الأحداث، تنقل إليها أدق المعلومات والأسرار...

ومن خلال دراسة دقيقة، وقع الاختيار على (موم)، الذي سبق له زياره (روسيا)، وحظي هناك باستقبال جيد، وأشار إلى ثقة الكثيرين من الشعب الروسي به...

وعلى الرغم من عزم (موم)، عدم خوض الحرب على نحو مباشر، فقد استهوته الفكرة، عندما عرضها عليه مندوب المخابرات البريطانية، وعندما شرح له مسؤول المكتب السادس البريطاني، أنه من أقوى الأمور، في أية عملية استخباراتية، أن يكون العميل هو آخر شخص، يمكن أن يخطر على بالطرف الآخر...

وقبل (موم) المهمة بشغف الروائي، وتم تدريبه على كل ما ينبغي للجاسوس معرفته والإمام به، ليسافر بعدها إلى (بتروجراد) في قلب (روسيا)، مع مهمة محددة، ألا وهي جمع كل المعلومات الممكنة، حول إمكانية موافقة القيادة البلشفية،

على عقد صلح منفرد مع (المانيا)، وهو ما نادى به الشعب الروسي، عقب ثورته، واستلام البلاشفة زمام حكم البلاد.... ولقد كان لشخصية (موم) أكبر الأثر، في نجاح مهمته؛ إذ أنه بالإضافة إلى شخصيته الجذابة، ولباقة حديثه، كان قادرًا على عقد عدد كبير من الصداقات، في مجتمع (بتروجراد)، مستعيناً بشهرته، وبثقة الناس فيه، وعشقهم لرواياته ومسرحياته، التي تمت ترجمة عدد كبير منها، إلى اللغة الروسية...

ومن خلال علاقاته، علم (موم) أن الحزب الشيوعي، الذي آلت إليه السلطة، قد وافق على إتمام ذلك الصلح المنفرد، والانسحاب من الحرب في ذروتها، وكانت له أهمية كبرى، في إيصال تلك المعلومات الهامة إلى المخابرات البريطانية، التي رأت أن هذا الصلح المنفرد سيكون طعنة نجلاء للحلفاء، في ذلك الوقت بالتحديد؛ إذ أنه سيساعد (المانيا) على تكثيف هجومها على باقي الدول، بعد ضمان حيادية الجبهة الروسية...

أيامها كان ذلك الضعف الرئوي لدى (موم)، قد تطور إلى سل روئي حاد، صار عائقاً بينه وبين متابعة عمله، في مجال التجسسية، لذا فقد تم سحبه من (روسيا)، وشن غارات كثيفة عليها، في محاولة لمنع (ليتين) من توقيع معاهدة السلام المنفردة، التي أطلق عليها اسم (ثورة السلام والخبز)، والتي تستهدف إيقاف نزيف الاقتصاد بسبب الحرب، وتوجيه الموارد إلى إشباع الشعب الروسي، الذي كان نقص الخبز هو أحد أهم أسباب ثورته...

ولكن الخطة البريطانية كلها فشلت، أمام إصرار الحزب الشيوعي على إنهاء حالة الحرب، وموافقة الشعب السوفيتي على هذا، وعقدت (روسيا) بالفعل صلحًا منفردًا مع (المانيا)، وإن كان هذا لم يمنع هزيمة (المانيا) أمام الحلفاء في النهاية، وإجبارها على توقيع معاهدة (فرساي) المجنحة، التي نقضها (هتلر) فيها بعد... وعقب خروجه من لعبة الجاسوسية، شعر (سومرست موم) فجأة بحالة فراغ كبيرة، شأن كل من ي العمل في هذا المضمار، المليء بالمخاطرة والإثارة، ثم يعود إلى الحياة العادلة.... وعلى الرغم من أنه قد صار الكاتب الأكثر شهرة وبيعًا، في ثلاثينيات القرن العشرين، إبان صعود (هتلر) إلى السلطة، إلا أنه لم يستعد شعوره بالراحة، إلا عندما نشر تجربته في عالم الجاسوسية، في كتابه الذي نال شهرة واسعة، وحقق مبيعات خرافية (كنت جاسوسًا)، والذي نشر فيه تفاصيل عمله في عالم الغموض، وربما كأول من يفعل هذا، ونشر حقائق كانت صدمة عنيفة للسوفيت، الذين فوجئوا بأن الكاتب الذي ألووه حبهم وثقتهم، كان جاسوسًا بينهم، يعمل لحساب المخابرات البريطانية...

والعجب أن تلك الشهرة الطاغية، وذلك النجاح المبهر، قد دفعا (موم) إلى تغيير اتجاهه الأدبي تماماً، حيث صارت معظم كتاباته إباحية ومتذلة، مما أدى إلى انحطاط قيمته الأدبية، بحيث بقى كتابه (كنت جاسوسًا) هو أقوى مؤلفاته على الإطلاق، حتى وفاته عام 1965 م، بعد أن شهد نهاية الحرب العالمية

الثانية، وعودة (بريطانيا) إلى قوتها...  
والكتابات عن عالم الجاسوسية عديدة وذات اتجاهات  
وزوايا مختلفة، وفقاً لطبيعة كاتبها، و...  
لهذا حديث آخر.

\* \* \*

الكتابات في عالم الجاسوسية كثيرة ومتعددة، وهذا قدرة  
مدهشة على جذب اهتمام القارئ، أيًا كانت نوعيته، وأيًا كان  
مستواه الفكري....

ويرجع هذا إلى أن كتابات الجاسوسية ليست كلها من نمط  
واحد، وإنما تنقسم إلى خمسة أنواع مختلفة، وفقاً لطبيعة الكاتب  
وتاريخه، فهناك العميل أو الجاسوس السابق، الذي يروي  
تفاصيل العملية، التي قام بها، دون كشف النقاط باللغة السرية،  
أو التفصيات الدقيقة، التي يمكن أن تكشف آخرين، أو تفسد  
سرية عمليات تالية...

وذلك النوع من كتاب أعمال الجاسوسية، لا بد من إخضاع  
كتاباته لمراجعة دقيقة، من قبل الجهاز الذي قام بعملية حسابه؛  
إذ أن شعوره بالزهو قد يدفعه أحياناً، دون إدراك، إلى كشف  
ما لا ينبغي كشفه، أو تفخيم دوره في مرحلة ما، على حساب  
الحقيقة البحثة، خاصة وأن لعبة الجاسوسية تستهوي دوماً من  
يتغلوون فيها، عندما تتکلّل عمليتهم بالنجاح، ويصبح من  
العسير عليهم الخروج من اللعبة، أو الاقتناع بأنها دوماً، بالنسبة

لهم، لعبة محدودة، تنتهي بنهاية العملية، مما يساعد على أن ينسج خيالهم الكبير من التفاصيل، التي لم تحدث أبداً، أو إعادة صياغة بعض التفاصيل، بحيث يكون الكاتب فيها هو البطل الأوحد، على عكس الحقيقة...

النوع الثاني من كتابات الجاسوسية، هو ذلك الذي يكتبه رجال مخبرات سابقون، عن عمليات أداروها، أو شاركوا فيها، أو حتى خططوا لها أو تابعواها، وهذا النوع، على الرغم من ندرته في هذا العالم، هو نوع من الكتابات شديدة الحساسية؛ إذ أنها قد تكون صادقة تماماً، وهذا يتعارض مع طبيعة رجال المخبرات، ومع قسم السرية، الذي يتزمون به، أثناء وبعد فترة خدمتهم، وحتى آخر يوم في حياتهم، وإن كانت هناك بعض الكتابات، لمن تمردوا منهم على الولاء لأجهزتهم السابقة، ونشروا بعض التفاصيل، التي تسبيّت في كوارث كبيرة، فقد قام أحد رجال المخبرات الأمريكية السابقون، بنشر أسماء عدد من العملاء، المنتشرين في أرجاء العالم، وتفاصيل ما أفادوا به المخبرات الأمريكية، في فترة خدمتهم، مما أدى إلى سلسلة من الاغتيالات، لعملاء ورجال مخبرات، مازالوا في الخدمة، وإلى إفشال أكثر من عشر عمليات، كانت تسير بنجاح، في أماكن مختلفة من العالم... هذا في حال أن تكون الكتابات صادقة، ولكن هناك احتمال آخر، لأن تكون تلك الكتابات مقصودة ومدروسة؛ لتوصيل رسالة ما، إلى جهة أخرى، أو الشوشرة على معلومات تخصل

عملية ما، أو دس معلومات، تفسد عملية قادمة، أو محتملة، وهذا يعني أن بعض تلك الكتابات، التي يفترض أنها تصدر عن مصدر ثقة، ليست أهلاً تماماً للثقة، على الرغم من أنها توحي بعكس هذا... ولكن هذا لا يمنع من أن بعض الكتابات، في هذه النوعية الثانية، كان لها أبلغ الأثر، في تعريف الكثيرين، بطرق التفكير وإدارة الأمور، في أجهزة مخابرات بعينها، وكيف أن هذه الطرق تم تطويرها، مع الخبرات المكتسبة، في أجهزة مخابرات أخرى، مثل كتاب (لعبة الأمم)، لرجل المخابرات السابق (مايلز كوبلاند)، والذي كشف كيف أن أجهزة المخابرات الكبرى تستطيع التلاعب بمقادير الأمم كاملة، من أجل تسليم مصالحها الشخصية، حتى لو بلغ الأمر حد إثارة القلاقل والفتن، أو العمل على إشعال الثورات، أو السعي لإحباطها وإفشالها، وكيف أن تلك الأجهزة تصنع دوماً مماثلاً لكل الشخصيات العالمية، أي أنه يعد الشخص، ذهنياً ونفسياً، بحيث يصير تفكيره، وتصير ردود أفعاله، مماثلة تماماً لشخص بعينه، له تأثير كبير في مجتمعه، وهذا حتى يمكن توقع أفعال وردود أفعال الشخص الأصلي، تجاه سياسات معينة، أو مواقف بذاته، تماماً مثلما حدث مع الرئيس العراقي السابق (صدام حسين)، والذي تم دفعه دفعاً لاحتلال الكويت، وصيغت كل الإنذارات التي وجهت إليه، بحيث تستفزه صيغتها، وتدفعه لرفضها في عنف، مما يمنع الآخرين الفرصة لهاجمه، وتدمير آلته العسكرية، التي باتت

تشكّل أيامها خطرًا على الخليفة الأمريكي الرئيسي في المنطقة، وهو (إسرائيل)...

على الجانب الآخر، نجد كتابات أشبه بالدراسات، يضعها رجال مخابرات ذو شأن كبير، وتعد مرجعًا علميًّا في فن التجسسية، أو في أحد فروعه، وربما كان من أشهرها، في عالمنا العربي، كتاب (الحرب النفسية)، والذي صدر في جزئين كبيرين، لمدير المخابرات الأسبق (صلاح نصر)، والذي وضع فيهما خلاصة دراسته لأساليب الحرب النفسية، وطرق التأثير في العدو، عبر أنواع مختلفة من الشائعات، منها الشائعات المتفجرة، التي تطلق لإحداث تأثير سريع و مباشر، في الحالات الحرجة، والشائعات الراحقة، التي تتغلغل في المجتمع في بطء، لإحداث تأثيرات دائمة ومستمرة، والشائعات الغائصة، والمعدّة بحيث تخفي لفترة ما، ثم تعود وبيوّة، عندما تتغيّر الظروف، أو تعود الحاجة إليها...

وفي كتابه أيضًا، تحدّث (صلاح نصر) عن طرق استجواب الجواسيس، وكيفية وضعهم تحت ضغط نفسي مدروس، بحيث يضطرون إلى الاعتراف بالحقيقة... والحقيقة وحدها..

بعد أن تفشل محاولات الاعتراف الكاذب، المعد مسبقًا، والذي يطلق عليه اسم (المخطة ب) أو (المخطة ج)... وهكذا...

والكتاب تحدّث أيضًا عن بعض تقنيات التجسس، التي

كانت مستخدمة أيامها، من الخبر السري، وحتى أجهزة كشف الكذب، التي استخدمت قديماً، في استجواب بعض الجواسيس، قبل أن يثبت فشلها، في انتزاع اعتراف حقيقي، من شخص تم تدريسه على مواجهتها والتعامل معها...

أما النوع الرابع من كتابات الجاسوسية، فهو ذلك الذي يقوم به مؤرخون، أو دارسون لهذا العالم الغامض، دون أن يشاركاً فعلياً فيه، وإنما تكون الكتابات أشبه بالابحاث العلمية، التي تسعى إلى دراسة علم التجسس، والذي صار علماً معترفاً به، في كثير من الدول، ودراسة نظرياته وطرقه، والبحث في أسباب النجاح والفشل فيه، لوضع نظريات جديدة بشأنه، أو تفنيده النظريات القديمة، أو المستخدمة فعلياً في حينه، وهذا النوع شديد الندرة في عالمنا العربي؛ بسبب الأسوار التي تحيط عالم التخابر فيه، مع قلة عدد المهتمين أو الدارسين، مثل هذا العلم... ولكن في الكتابات الغربية، سنجده مراجع تتحدث عن علم وفن التجسس، بدءاً من إعداد رجل المخابرات، وحتى الفحص النفسي للأشخاص، الذين يتم اختيارهم كجواسيس...

يتبقى عندنا النوع الأخير من كتابات الجاسوسية، وهو روایات الجاسوسية، غير المستمدة تماماً من أرض الواقع، وهي أكثر المتابعات غزاره، في هذا المجال، وبعضها له فائدة كبرى، لأجهزة المخابرات نفسها، كما سيتضح، في حديث قادم بإذن الله.

\* \* \*

روايات الجاسوسية هي الروايات الأكثر إثارة وشعبية، في كل أنحاء العالم تقريباً، ليس لأنها تحوي في المعناد الكثير من التسويق والمغامرة، وعمليات الكرو والفر الذهنية، وإنما أيضاً لأنها تتحدث عن عالم غامض مجهول، بالنسبة لمعظم الناس، يحوي الكثير من الأسرار، التي يتحتم أن تبقى خلف الأبواب المغلقة، ومن النادر أن تفصح عنها الألسن، إلا تحت مقاييس شديدة التعقيد... حتى تلك الروايات تنقسم إلى نوعين رئيسين، فهي إما رواية عن عملية حقيقة، أو رواية من صميم الخيال البحث...

والقارئ بالطبع أكثر شغفاً بتلك الروايات، التي تتحدث عن عملية حقيقة، على الرغم من أن قواعد السرية تقتضي إلا تحوي الرواية، التي يحمل غلافها ما يشير إلى أنها مأخوذة من ملف حقيقي، أكثر من ثلاثين في المائة من الحقيقة المجردة، وإنما تكون أشبه بتقرير رسمي، يقدم إلى كل الخصوم والأعداء، عن كيفية عمل وتفكير جهاز ما، وأسلوبه في إدارة عملياته، وهذا أمر شديد الخطورة، لا يمكن كشفه، منها كانت الأسباب...

ذلك النوع من الروايات إذن، يحصل كاتبه على ملخص صغير عن العملية التي يكتب عنها فحسب، وذلك الملخص يحوي الخطوط الرئيسية فقط، وعلى المؤلف أن يغزل خيوط روايته، من أعماق خياله، مع الالتزام بالخطوط العريضة، وهذا يتطلب منه دراية كبيرة بعالم المخابرات، وعلم التخابر، وترتيب الأحداث والخطوات، التي تتبع في إدارة العمليات بشكل عام...

وفي النهاية تخرج الرواية إلى النور مثيرة، مشوقة، تلهث معها الأنفاس، وتخفق لها القلوب، ويرتفع معها الحماس إلى ذروته، ويتصور بها القارئ أنه قد صار على بينة من الحقيقة الكاملة، دون أن يدرك أن ما حصل عليه هو أقل من ثلثها بالفعل... وعلى الرغم من هذا، فتلت الروايات ناجحة للغاية، وأرقام توزيعها تتجاوز أرقام توزيع الروايات الاجتماعية، والرومانسية، وحتى روايات الخيال العلمي...

أما النوع الثاني، وهو الأكثر نجاحاً وانتشاراً، فهو ذلك الذي يعتمد على خيال محض؛ حيث تسبح فيه شخصيات شديدة الإثارة، وتتفوق مغامراته -الخيالية- كل ما يمكن أن يحدث على أرض الواقع، وهي تعتمد في معظمها على الحركة، والمواجهات، وشخصية الجاسوس أو رجل المخابرات، والذي يكون في المعهاد وسيماً، أنيقاً، قوياً، ذكياً، بارعاً، وواسع الحيلة...

أي أنه يكون، باختصار، تلك الصورة المثالبة، التي يحلم الجميع بأن يكونوا عليها...

ولكن هناك روايات جاسوسية خيالية، فاقت في دقة أحدها الروايات المأخوذة عن عمليات حقيقية؛ نظراً لأن مؤلفها يجيد التعامل مع عالم الجاسوسية، أو أن لديه خبرة مسبقة في هذا المجال...

ومن أشهر تلك الروايات (نيكيتا)، والتي تتحدث عن الجواسيس النائمين، عبر شاب أمريكي عادي، كشف بالمصادفة أن والديه هما في

حقيقةها جاسوسين سوفيتين نائمين، منذ زمن طويل، وعلى الرغم من حياتهما في الولايات المتحدة الأمريكية لعشرات السنين، ومن أنها قد أنجباه على أرضها، إلا أن ولاءهما مازال للسوفيت، حتى أنها استخرج لها جواز سفر سوفيتي، باسم (نيكيتا)...

ولقد تحولت الرواية إلى فيلم سينمائي شهير، قام ببطولته النجم الأمريكي (سيدني بواتيه) ويعود من العلامات الفارقة، في تاريخ السينما الأمريكية، حيث إنه كان من أوائل الأفلام، التي تعاملت مع الخيال بروح الواقع، واقتحمت عالم الجاسوسية، من زاوية لم يتحدث عنها أحد من قبل، وإن صارت باباً مفتوحاً فيها بعد، إذ تحولت رواية (نيكيتا) بعدها إلى مسلسل تليفزيوني، ثم ظهر بعده أحد أشهر المسلسلات، التي تتحدث عن الجواسيس النائمين في (إنجلترا)، تحت اسم (النائمون)، وهو مسلسل يناقش الحالة النفسية للجواسيس النائمين، الذين يستقرون في البلد الذي تم زرعهم فيه، ويعتمدون العيش في مجتمعه، حتى أنهم يتحولون إلى جزء منه، فلا يعود بوعهم العودة، عندما يطلب منهم هذا... والروايات الخيالية لعالم الجاسوسية، هي الأكثر إثارة بالتأكيد، لما تحويه من خيال جامح، جعل شخصية مثل (جييمس بوند)، أو العميل (٠٠٧) يحيى في عقول وقلوب الناس، لأكثر من نصف القرن، ويتنقل من نجاح إلى آخر، في حين لم تحظ كتابات (سومرست موم)، عن مغامراته الحقيقة، في المجال ذاته، نفس القوة والشهرة وزمن النجاح...

وفي عالمنا العربي تقل الكتابات في عالم الحاسوبية عن الكتابات الأخرى، على نحو واضح، وربما إلى حد الندرة، ربما لأن الزمن السابق كان يشغف بالروايات الاجتماعية والرومانسية، بأكثر مما يولي روایات أو كتابات الحاسوبية اهتماماً...

ثم ظهر من بداية السبعينات كتاب (قصتي مع الجاسوس)، مؤلفه، وصاحب العملية الأصلية ( Maher عبد الحميد )، والذي كان المواجهة الأولى، بين الجمهور العربي وكتابات الحاسوبية، ولقد حاز نجاحاً كبيراً، نظراً لصدوره عقب الإعلان الرسمي عن العملية نفسها، والتي كان بطلها المؤلف نفسه، الذي حاولت المخابرات الإسرائيلية تجنيده، فأبلغ المخابرات المصرية، التي أدارت عبره عملية ناجحة، كشفت شبكة جواسيس شديدة الخطورة، عقب نكسة ١٩٦٧ م بقليل، في الوقت الذي كان الناس يتلهفون فيه على التشكيّل بأية لمحّة نصر، عقب ما شعروا به من هزيمة وعار مع النكسة...

وعقب النجاح الكبير للكتاب، بدأ ( Maher عبد الحميد ) سلسلة من الكتابات والمقالات، حول ذلك العالم المثير، الذي يجمع بين غموض وإثارة دنيا المخابرات، وخيال وعدوّية دنيا الأدب والخيال...

ومع سقوط ( باروخ )، أحد الجواسيس، الذين ولدوا في ( مصر )، وتخرّجوا في جامعتها، ثم هاجر إلى ( إسرائيل )، وعمل هناك في سلك الشرطة، ثم انتقل منه إلى المخابرات، التي أرسلته

في عدة مهام صغيرة، قبل أن ترسله إلى (اليمن)؛ للتجسس على السفن الحربية المصرية في باب المندب، ليسقط هناك، ويتم نقله، عبر مغامرة مثيرة إلى (مصر)، بدأت مرحلة صحافة الجواسيس، إذ أنه بعد وصول (باروخ) إلى (مصر)، التقى به الكاتب الراحل (عبد الفتاح الديب)، وروى اعترافاته في كتاب، أضاف إلى المكتبة العربية قسماً جديداً في عالم أدب الجاسوسية، ولقد انفتح باب أدب الجاسوسية على مصراعيه عقب انتصار أكتوبر ١٩٧٣م، لتبدأ مرحلة جديدة ومتألقة، من أدب الجاسوسية العربي... وهذا حديث منت.

\* \* \*

مع انتصار أكتوبر ١٩٧٣م، بدأت ثورة جديدة، في أدب الجاسوسية العربي، وظهرت أولى صوره على الشاشة، بفيلم (الصعود إلى الهاوية)، والذي يعد أول فيلم سينمائي مأخوذ من أحد ملفات المخابرات العامة، وبحرفية عالية، فاقت كل ما سبقه من أعمال فنية، تدور حول هذا العالم، ثم سرعان ما ظهرت أعمال مماثلة، دارت كلها حول حرب المخابرات والجاسوسية، التي كانت لها ذراع طويلة، في تحقيق النصر، وتالق كتاب لامعون في هذا المضمار، مثل ( Maher عبد الحميد)، و(إبراهيم مسعود)، و(صالح مرسي)، ولقد تميز الأخير على نحو ملحوظ؛ نظراً لبراعة قلمه، وقوه استيعابه لعالم الجاسوسية والمخابرات، ورشاقة أسلوبه الأدبي، الذي حول شخصية الجاسوس ورجل

المخبرات على صفحات كتبه، إلى شخصيات ثلاثية الأبعاد، لا تستمتع بأحداثها المثيرة فحسب، ولكن تتعايش معها، وتنتفاعل مع تطوراتها، وتنغمس في مشاعرها، حتى لتكاد تراها بعينيك وليس بخيالك وحده، وساعدته على هذا أن معظم شخصيات رواياته كانت بالفعل شخصيات من لحم ودم، مثل (أحمد الهوان)، الذي تحول في رواياته إلى (جمعة الشوان)، بطل (دموع في عيون وقحة)، و(رفعت الجمال)، بطل راثنته (رأفت الهجان)، والذي يعد من أهم وأنجح عيون (مصر) في (تل أبيب)، لسنوات طويلة، والذي صار أيقونة المخبرات المصرية، في نظر السواد الأعظم من العرب، وليس المصريين وحدهم، وخاصة بعد أن تحولت الرواية إلى مسلسل تليفزيوني من ثلاثة أجزاء، كانت شوارع (القاهرة) تكاد تفرغ من المارة في ساعة عرضه.... وفي منتصف الثمانينات، ظهرت شخصية رواية من عالم المخبرات، لكاتب هذه السطور، وهي شخصية (رجل المستحيل)، ساهمت لفترة طويلة في انتشار رواية الجاسوسية، وتحوّلها إلى نوع من الإدمان، بالنسبة للشباب العربي....

ومن الأمور التي ربما يجهلها البعض، أن كل أجهزة المخبرات العالمية لديها أقسام خاصة، لقراءة ومتابعة كل ما ينشر عن عالم الجاسوسية، وربما دراسته دراسة متأنية أيضاً؛ وهذا لسببين رئисيين، أوّلها هو البحث بين السطور عن حقائق، قد تنكشف عن غير قصد، أو عن قصد، والسبب الثاني هو التقاط

ما يتدعه خيال المؤلف، مما يمكن تفسيذه على أرض الواقع... ففي عالم المخابرات، لا يوجد فاصل كبير بين الخيال والحقيقة، إذ أن معظم عمليات المخابرات الناجحة تكاد تكون أشبه بفكرة خيالية في بدايتها، وربما هنا يكمن سر نجاحها، حيث أن الخيال فيها هو ما يخدع العدو، ويبعدها عن فكره، الذي يتوجه في المعتمد نحو الافتراضات المنطقية الواقعية....

ثم أن عالم المخابرات والجاسوسية هو عالم المفاجآت غير المتوقعة في المعتمد، ففي النصف الثاني من القرن العشرين، شعرت المخابرات البريطانية بوجود تسرب، خطير لديها، يشير إلى وجود جاسوس سوفيتي بين صفوفها، مما دعا إلى تحقيقات وتحريات واسعة، وخطط شديدة التعقيد؛ في محاولة لكشف هوية ذلك الجاسوس، ثم كانت المفاجأة ذات يوم، عندما اكتشفى فجأة (كيم فيليبي)، نائب مدير المخابرات البريطانية، دون أن يترك خلفه أي أثر، ومع اختفائه، وضعت المخابرات البريطانية أمامها احتيال اختطافه، وبدأت سلسلة من التحريات المكثفة قبل ساعات من ظهور (فيليبي) في (موسكو)، واستقباله استقبال الأبطال هناك؛ باعتباره أحد أقوى وأنجح جواسيس الكى جى بي في (بريطانيا)...

ولقد صدم هذا البريطانيين بشدة، ودعاهم لإعادة هيكلة نظام مخابراتهم بالكامل، وإعادة فحص كل الرجال العاملين لديهم، خشية وجود ثغرة أخرى بين صفوفهم، خاصة وأن

(فيليبي) قد تسبب في سقوط واغتيال عدد من أقوى جواسيس (بريطانيا) في (موسكو)، وفي مخابراتها بالتحديد...

ولقد قضى (فيليبي) باقي عمره في (روسيا)، حيث حصل على جنسيتها، وأقيمت له جنازة عسكرية عند وفاته، ثم وضعت (روسيا) صورته على أحد طوابع مجموعة أصدرتها، عن الجواسيس الذين ساعدوها مخابراتها، ومنهم أيضاً (ريتشارد سورج)، والذي كان أحد أسباب ربع الحرب العالمية الثانية... وفي الولايات المتحدة أيضاً، تم انتداب (روبرت هانسن)، من المباحث الفيدرالية، إلى المخابرات المركزية الأمريكية؛ باعتباره مسؤولاً عن مكافحة النشاط السوفييتي المعادي، ولقد بدا (هانسن) عملياً نمطيًا، حيث إنه اكتفي بعمل مكتبي؛ لنقل كل ملفات النشاط السوفييتي، في المخابرات الأمريكية، من الورق إلى الصورة الرقمية، وقضى معظم وقته في مكتبه المنعزل، في ركن هادئ من قبو مبنى المخابرات، في (لأنجلي) بولاية (فيرجينيا) الأمريكية، بصحبة أخطر الملفات، وأدق الأسرار... ولم يدر أحدهم أن (هانسن)، الذي لم يبال به أحد، قد أجرى اتصالاً بالسفارة السوفيتية في (كندا)، وعرض على ملحقها العسكري كومة من الوثائق والأسرار، دفعت هذا الأخير لسرعة الاتصال برؤسائه في (موسكو)، والذين انبهروا بكم وخطورة المعلومات، فتحول (هانسن) في سرعة إلى جاسوس لهم، في قلب المخابرات الأمريكية...

وطوال سبعة عشر عاماً، عمل (هانسن) لحساب المخابرات السوفيتية، وحتى في هذا كان جاسوساً نمطياً إلى حد مثير للدهشة؛ إذ استخدم وسيلة اتصال واحدة لا تتغير، لتسليم المعلومات، واستلام التعليمات والمكافآت، على عكس المطبع، من ضرورة تغيير نقطة الاتصال بصورة دورية؛ إذ كان يدس المعلومات في نقطة بعينها، في منتزه المدينة العام، ويعود بعد أربع وعشرين ساعة؛ لاستلام التعليمات والمكافأة، من النقطة نفسها... وكما حدث في (بريطانيا)، شعر الأميركيون بتلك الثغرة في

جدار معلوماتهم، وبدأوا بحثاً مسعوراً عن المسئول عنه... والعجب أن (هانسن) لم يخطر ببالهم قط، على الرغم من أنهم قدروا بسيبه أحد أخطر جواسيسهم في قلب المخابرات السوفيتية.... ولقد استمر هذا، حتى سقوط الاتحاد السوفيتي في بداية التسعينيات، عندما نجح أحد رجائهم في الحصول على صورة من مراسلات الجاسوس مع السوفيت، والتي حوت بعض العبارات الساخرة، التي اعتاد (هانسن) ترديدها، مما جذب أنظارهم إليه، ودفعهم إلى التركيز على مراقبته...

ولقد أدهشهم بشدة، أنه جاسوس نمطي إلى هذا الحد، وأنهم لم يكتشفوا أمره طوال سبعة عشر عاماً، على الرغم من هذا... وهنا بدأت الاستعدادات للايقاع بالجاسوس... وهذا فن آخر.

\*\*\*

## (٧)

الإيقاع بالجاسوس فن، لا يقل براءة عن كشفه وتحديد هويته؛ لأن إلقاء القبض على جاسوس، مختلف تمام الاختلاف، عن إلقاء القبض على مجرم عادي، مهما بلغ إجرامه، أو بلغت درجة خطورته؛ ففي كل الأحوال، ومهما كان الجرم، فإلقاء القبض على مجرم، يعد شأنًا داخليًا، يخص أية دولة، دون أن يخص سواها، إلا في حالات الجريمة الدولية، وهي حالات نادرة نسبياً، في حين أن إلقاء القبض على جاسوس هو شأن دولي، يخص الدولة التي أوقعت به وكشفت أمره، ويخص أيضًا الدولة التي جندته، أو المتهمة بهذا...  
أي أن اتهام شخص ما بالتجسس، هو اتهام ضمني لدولة، بأنها وراء هذا...

وهذا ليس الفارق الوحيد بين إلقاء القبض على مجرم ما، وإلقاء القبض على جاسوس، فالفارق الأكثر أهمية، هو أن المجرم يمكن القبض عليه، فور كشف هويته، وتوجيهه أصابع الاتهام إليه، أما مع الجاسوس، فالامر مختلف تمام الاختلاف... فكشف الجاسوس يُعد الخطوة الأولى فحسب من العملية، ويبعدها تأتي الخطوات الأكثر أهمية، وهي إثبات الاتهام أولاً،

باعتبار أنه، كما قلنا، اتهام ضمني لدولة، ومن المحتم أن يكون موثقاً، وربما بالصوت والصورة أيضاً، قبل إلقاء القبض على الجاسوس... وحتى بعد وجود كافة الإثباتات، لا يتم إلقاء القبض على الجاسوس مباشرةً، بل تتم دراسة الأمر دراسة متأنية أولاً؛ لتحديد الوقت المناسب لإلقاء القبض عليه...

ففي بعض الأحيان، وبالذات في زمن الحروب، يكون من الأفضل ترك الجاسوس، بعد كشف هويته؛ لاستغلاله في توصيل معلومات بذاتها إلى العدو...

تماماً مثلما حدث في حالة الجاسوسين (إبراهيم حسين شاهين)، و(انشراح على موسى)، وهي حالة فريدة في عالم الجاسوسية، إذ تم تجنيد (إبراهيم) في قلب (سيناء)، عقب الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧م، وقام بتجنيد زوجته (انشراح)، التي دفعتها شهوة الطعم إلى الموافقة الفورية، وعندما كشف ابنها الأكبر (نبيل) أن والديه جاسوسين إسرائيليين، قاما بتجنيدته معهما، وبعده شقيقه الأصغر (محمد) لتحول العائلة كلها إلى عائلة مسمومة باسم الخيانة الزعاف....

ولقد كان (نبيل) هو مفتاح سقوط الأسرة بأكملها، إذ أنه كشاب لم يستطع كبح جماح نفسه، وراح ينفق بسخاء، من نقود الخيانة، على نحو لا يتفق مع مستوى دخل أسرته المعلن، مما جذب الأنظار إليه، ووضعه تحت المراقبة، لتكتشف المخابرات أمره، وأمر أسرته، مع بداية السبعينيات، ويتبين لها أنه من كثرة المعلومات،

التي أرسلتها العائلة المسمومة إلى (الموساد)، تم إلهاق (إبراهيم) و(انشراح) بالجيش الإسرائيلي، تحت اسمي (موسى عمر) و(دينا عمر)، وأقيم لها حفل استقبال في (تل أبيب)، كانت صوره على مكاتب المخابرات المصرية، بعد يومين فحسب ...

وهكذا انكشف أمر عائلة الخيانة، وبقي اتخاذ قرار إنهاء العملية، وإلقاء القبض على الجواسيس ...

ولو أنها تتحدث عن جريمة عادية، لتم إلقاء القبض على العائلة كلها فور كشف أمرها، ولكن ولأن الأمر يتعلق بالجاسوسية، فقد وجدت المخابرات أنه من الأفضل أمنياً، تركهم يحارسون خيانتهم، مع دس معلومات مغلوطة عليهم، تؤدي إلى توصيل انطباع قوي للعدو، بأن (مصر) لا تنوى الدخول في حرب معه، لفترة طويلة قادمة ...

وبالفعل، تم دس أحد المجندين على الأسرة، من خلال علاقته بالابن الأكبر، وعبر هذا المجند، تم إيصال الانطباع للجاسوسين، اللذين أرسلاه بدورهما إلى العدو، وكانت ضربة أكتوبر ١٩٧٣ المbagة، التي أربكت العدو، وخالفت كل ما أرسله إليه جواسيسه ...

ولقد تم استدعاء (إبراهيم) و(انشراح) إلى (تل أبيب) بعدها، ولأن رجال المخابرات محترفون بحق، فقد تركوهما يسافران، مع وضعهما تحت مراقبة دقيقة خفية، وفي (تل أبيب)، سألهما رجال المخابرات الإسرائيلية عن كيف خدعهما المصريون، ثم طلبوا

منهما فتح عيونها وأذانها جيداً، والاستعانة بكل مصادرهما، للتيقن مما إذا كان المصريون ينون القيام بضربة تالية، أم أنهم قد اكتفوا بهذا، ثم منحوهما جهاز إرسال متتطور، هو نسخة أولية من الهواتف المحمولة الحالية، يمكنها بواسطته إرسال رسالة نصية، تحوي المعلومات، من أي مكان خارج المنزل...

ولقد عادا بالجهاز إلى (القاهرة)، وقاما بتجربة إرسال، ولكن أزرار الجهاز تعطلت، فتم إبلاغ (تل أبيب)، التي حددت لها موعداً في (روما)؛ لاستلام طاقم أزرار بديل، فسافرت (انشراح) لاستلام طاقم الأزرار، في حين بقي (إبراهيم) في (القاهرة)...

وهنا رأت المخبرات أنه قد حان وقت إنتهاء العملية، فأطبقت على (إبراهيم) في منزله، وكان من الضعف بحيث انهار فوراً قدموه أنفسهم إليه، باعتبارهم من رجال المخبرات العامة، بصحبة وكيل النائب العام، وكان يرتحف، وهو يخط اعترافه الكامل، وإن أبقى عليه رجال المخبرات في منزله؛ ليواصل اتصالاته بزوجته، بعد أن أكدوا له عملياً، أنهم على دراية كاملة بكود الأمان، المستخدم في الاتصالات، وحضروه بشدة من استخدام كلمة (ألو) في بداية المكالمة، حيث إنها وسيلة سرية؛ ليخبر زوجته أنه يجري المكالمة تحت الضغط...

ولقد أطاعهم (إبراهيم) تماماً، حتى أن (انشراح) قد عادت هادئة مطمئنة، وفوجئت برجال المخبرات، عند دخولها المنزل، وعلى عكس (إبراهيم)، فقد ثارت وهاجت وماجت،

وهددت وتوعدت، ثم سرعان ما أدركت أن كل هذا بلا طائل، فاستسلمت للموقف، وانتقلت إلى مرحلة المساومة، ولكن الوقت كان قد انقضى، ولم يعد هناك مجال للتفاوض....

هذا مثال لإحدى الحالات، التي يكون فيها الإيقاع بالجاسوس فن، لا يقل أهمية عن فن كشفه، وهذا يعود بنا إلى قصة (روبرت هانسن)، ذلك الجاسوس النمطي، الذي كان مسؤولاً عن مكافحة النشاط السوفيتي في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم تبيّن أنه جاسوس للسوفيت، بعد سبعة عشر عاماً من الخيانة...

فعندما بدأت الخيوط تتكشف، لتكشف خيانة (هانسن) شعر رجال المخابرات الأمريكية بدهشة شديدة؛ لأن كل تصرفات (هانسن) كانت واضحة مكشوفة، ربما أكثر مما ينبغي، وعلى الرغم من هذا، فلم يتتبّه إليه أحد، لشعورهم بضآلته شأنه، على الرغم من أنه كان يضع يده على كل ملفاتهم باللغة السرية طوال الوقت، ويطلع على كل ما فيها، من خلال توليه عملية التسخن الرقمي لها، وهنا وضعوا خطة لالقاء القبض عليه متلبساً، وعند نقطة اتصاله، التي لم تتغيّر، خلال سبعة عشر عاماً، انتظر الرجال حتى دس (هانسن) المعلومات في المكان المعتمد، ثم أطبقوا عليه من كل صوب...

والعجب أن (هانسن) ظل هادئاً، عندما أوقعوا به، وكل ما فعله هو أن سألهم: «لماذا تأخرتم يا رفاق؟!...»..

ولقد ظل هادئاً حتى تم نقله إلى قسم الاستجواب، وهناك  
توالت المفاجآت....  
على نحو مدهش.

\* \* \*

على الرغم من ثقة المخابرات الأمريكية، من أن (روبرت  
هانسن) هو ذلك الجاسوس، الذي يمد السوفيت بكل  
المعلومات من داخلهم، إلا أنه كان من الضروري إثبات الإيقاع  
به متلبساً، كما تقتضي القواعد....

ولقد توقع منه الكل انهياراً، واضطراها، أو شيئاً من المقاومة  
على الأقل، ولكن (هانسن) لم يجد شيئاً من هذا، فقد كان يدس  
المعلومات، في نفس المكان، الذي اعتاد وضعها فيه، طوال سبعة  
عشر عاماً، عندما فوجئ بزملائه من حوله، يحيطون به، ويلقون  
القبض عليه متلبساً، فأدار عينيه في وجوههم في هدوء، وهو  
يسألهما: «لماذا تأخرتم يا رفاق؟!...»

كان يتساءل: كيف أنهم لم يكتشفوا أمره، طوال سبعة عشر  
عاماً، عمل فيها كجاسوس للسوفيت، وهو المسئول عن متابعة  
النشاط السوفيتي المضاد!!...

وفي حجرة التحقيقات، توالت المفاجآت....  
فعندما تم انتداب (هانسن) من الشرطة الفيدرالية، إلى  
المخابرات الأمريكية، اقتصرت مهمته على نقل جميع الملفات  
السرية إلى أقراص رقمية، بحيث يسهل تجميعها، وربطها

بعضها البعض، وإيجاد كل المعلومات داخلها... ولقد قام (هانسن) بعمله خير قيام، وكان يقضي أكثر من اثنين عشرة ساعة يومياً، في نقل المعلومات، من الوثائق إلى القرص الصلب، ويؤدي عمله في آلية، جعلت الكل ينسى أمره، ويعتبره عميلاً لا شأن له، ومحرّد ناقل معلومات فحسب، ونبي الكل أن هذا يعني أنه يمتلك كل المعلومات، منها بلغت درجة سريتها، عن كل عمليات وعملاء المخابرات الأمريكية، في كل بلدان العالم، وبالتحديد في قلب الاتحاد السوفييتي ...

ولقد اندهش السوفييت بشدة، عندما اتصل بهم (هانسن)، ومنهم قدرًا رهيباً من المعلومات، وبعد تحريات دقيقة، اعتبروه واحداً من أهم وأخطر رجاتهم، في قلب المخابرات الأمريكية... ولكن المفاجأة الحقيقة، بالنسبة لرجال المخابرات الأمريكية، كانت أن (هانسن)، وطوال سبعة عشر عاماً من التجسس، وعلى الرغم من خطورة المعلومات، التي نقلها إلى السوفييت، لم يتصرف منهم سوى سبعيناً ألف دولار فحسب، وهو مبلغ يعد شديداً للضاللة، مقارنة بما يتصرفه جواسيس أقل شأنًا، في ربع هذا القدر من الأعوام، ومقابل معلومات أقل أهمية وخطورة!!...

المفاجأة الثانية، هي أن (هانسن) لم ينفق الكثير من هذه الأموال على أسرته، أو حتى على نفسه، فبحلaf سيارة مرسيدس، لم يزد إنفاقه على أسرته كثيراً، إلى الحد الذي يمكن أن يثير

الشبهات، ولم يشتَر أية هدايا فاخرة لزوجته أو أولاده؛ لعلمه بأن زوجته لن تقبل أية هدية، إلا لو علمت مصدر ثمنها بالضبط؛ إذ كانت شخصية متزنة، وكاثوليكية ملتزمة...

ولقد أقام (هانسن) علاقة عجيبة، مع راقصة تعرى، تعرّفها في أحد الملاهي الليلية، وارتبط بها لعدة سنوات، والعجيب أن علاقتها لم تكن جنسية، كما أقرّت الراقصة في أقوالها، بقدر ما كان (هانسن) يحب التحدث إليها، أو دعوتها إلى العشاء، أو منحها هدايا ماسية، وكأنه كان يجد فيها تعويضاً عن زوجته، التي لا يستطيع أن يقدم لها هذا...

ولقد حار محققو المخابرات الأمريكية بشأن (هانسن)؛ إذ أنه إن لم يكن يهتم بالمال أو الجنس، وليس صاحب فكر شيوعي، فلماذا إذا فعل، وما كان دافعه الأساسي للتجسس؟!...

ولقد تم نقل الأمر برمته لقسم التحليل النفسي، الذي راجع كل ما حصل عليه، من رسائل (هانسن) إلى السوفيت والعكس...

وبعد دراسة مستفيضة، كانت المفاجأة الجديدة...  
(هانسن)، الذي يعيش روایات الجاسوسية، شعر أنه ضئيل الشأن في المخابرات الأمريكية، باعتباره متذمراً لنقل البيانات فحسب، فقرر أن يلعب دور (جييمس بوند)، أو دور الجاسوس المحترف عظيم الشأن...

ولما لم يكن هذا ممكناً، داخل المخابرات الأمريكية، فقد قرر

أن يلعب هذا الدور مع المخابرات المضادة...  
مع السوفيت...

ولقد كان من الواضح أن السوفيت قد التقاطوا هذا الخيط، وفهموا دافع (هانسن) للتجسس، لذا فقد كانت رسائلهم إليه، تغذى لديه هذا الدافع، فييدون انبهارهم بما يرسله إليهم، ويصفونه بأنه من أرفع جواسيسهم شأنًا، وبأنه جاسوس عظيم، وإذا ما أرسل إليهم عبارة ساخرة، محاولاً تقليد أسلوب (بوند)، فهم يشيدون بروحه الساخرة، وبذكاء عباراته ولزوعتها...  
ولقد بدا لهم أن هذا أرخص كثيراً من أن يدفعوا له المال، طالما يكتفي بما يرسلونه إليه، ولا يعرض أو يطالب بالمزيد، مثل أي جاسوس آخر...

أعجب ما في أمر قضية (هانسن)، وما يستحق أن يكون المفاجأة الحقيقة، هو أنه خلال الأعوام السبعة الأخيرة من تجسسه، أدركت المخابرات الأمريكية أن هناك حتى جاسوساً بين صفوفها، وعقدت جلتين، خلال تلك الفترة، في محاولة لكشف هوية ذلك الجاسوس، وفي كل مرة، كان (هانسن) يمحو المعلومات، التي يمكن أن تدينه، من ملفاتهم، باعتبار أنه المسؤول عن النسخ الرقمي، وذات مرة تسلل إلى الكمبيوتر المركزي للمخابرات؛ لمعرفة ما إذا كانت الشبهات قد أحاطت به أم لا، ثم محا هذا الدخول من برنامج الكمبيوتر المركزي، ولم يتتبه إليه أحد، بل إنه كان يتبع خطوات وبرامج لجان البحث

عن الجاسوس، عبر الكمبيوتر الخاص به، ولم يكشف أحدهم  
هذا...

فقط عند سقوط الاتحاد السوفياتي، وانهيار جهاز الكي.  
جي. بي، والحصول على ملف مراسلات الجاسوس، اتبه  
البعض إلى عبارات الرسائل، التي تتشابه مع عبارات (هانسن)،  
وبدأ وضعه تحت المراقبة الدقيقة..

وعندما سأله المحققون (هانسن)، كيف استخدم نقطة  
اتصال واحدة، طوال سبعة عشر عاماً، أجابهم في بساطة، أنهم  
لم يكتشفوا أمرها، طوال كل تلك الفترة، وهذا دليل نجاحها...  
ولم يستطع أحدهم أن يعتذر، على قوله هذا، والذي يثبت  
أنه في عالم الجاسوسية والمخابرات، لا توجد ثوابت، وأن كل  
شيء ممكن، وكل احتمال وارد...

وكل شيء يمكن استخدامه واستغلاله...  
ولهذا بالتحديد واقعة شديدة الغرابة، خلال الحرب العالمية  
الثانية، و...  
هذا رواية أخرى.

\*\*\*

 \book100100

## (٨)

(نوستراداموس) فلكي فرنسي، عاش في القرن السادس عشر، وعلى الرغم من هذا، فهو يعد أشهر فلكي عرفه التاريخ، وأكثرهم إثارة للجدل، حتى يومنا هذا... .

ذلك لأن (نوستراداموس) وضع كتاباً مدهشاً، أطلق عليه اسم (قرون)، وفيه كتب متويات من رباعيات الشعرية، التي حملت في معظمها تنبؤات أثارت العالم كله، طوال القرون الماضية؛ ففي رباعياته تنبأ بتوقيت ووسيلة مقتل الملك (هنري الخامس)، مما أثار غضب الملكة (كاترين دي ميديتشي)، واضطربه للفرار، ولم تكن هذه سوى بداية لتنبؤاته المدهشة، والتي تجاوزت حتى زمن وفاته، فقد تنبأ بمقتل (جون كينيدي)، الرئيس الأمريكي الأسبق، في (دالاس)، ومقتل شقيقه (روبرت)، واندلاع الحرب العالمية الثانية، والأولى أيضاً، وحتى بحرب (العراق)، وربما كانت أشهر تنبؤاته هي تلك التي حدد فيها، وبمتهى الدقة، ضربة الحادي عشر من سبتمبر، وانهيار برجي التجارة العالميين، قبل الحدث بخمسة قرون كاملة، ولا تعود شهرة نبوءته الأخيرة هذه إلى التوقيت والأسلوب الذي حدد فحسب، وإنما إلى أنه ذكر في رباعياته عبارة «برجتان عظيمان ينهايان»، في زمن لم تكن

الأبراج فيه معروفة، حتى أن البعض تصور أنه قد أخطأ اللفظ، وأنه كان يقصد «صخرتان عظيمتان تنهاران»...

وبغض النظر عن قبول أو رفض هذا، فقد كان للفلكي (نوستراداموس) دوراً كبيراً، في الحرب العالمية الثانية، وعلى نحو بالغ الغرابة... فذات ليلة، وبينما استغرق وزير البروباجندا أو الدعاية بالمصطلح الحديث (جوزيف جوبيلز) في نوم عميق، انهمكت زوجته في مطالعة الطبعة الألمانية من كتاب (قرون)، الذي وضعه (نوستراداموس) في القرن السادس عشر، وأذهلها أن وجدت إحدى رباعياته تتحدث في وضوح عن (هتلر)، الذي سيشعل الحرب في (أوروبا) فتسيل لها الدماء أنهاها في نهر (الراين)... ومن شدة ذهوها وفزعها، أيقظت الزوجة (جوبيلز)، وقرأت عليه الرباعية...

في البداية شعر (جوبيلز) بسخافة الأمر، الذي أيقظته زوجته من أجله، إلا أنه لم يلبث أن حمل عدوى الذهول والفزع بدوره، عندما طالع الرباعيات، ووجد أنها تصف (هتلر) بدقة، وإن حلت اسم (هتلر)، بدلاً من (هتلر)...

وفي الصباح التالي، كان (جوبيلز) يقف بزيه العسكري أمام (أدولف هتلر)، ويروي له الأمر، ثم يقترح حرباً دعائية من نوع جديد...

وعجب....

فعبر مجموعة من الخبراء، تم استخلاص كل الرباعيات، التي

تشير إلى انتصار (هتلر)، وقام (جوبلز) بطبعها في كتاب خاص، حملت الطائرات الألمانية آلاف النسخ منه؛ لتلقّيها على (إنجلترا)، وبباقي الدول، التي لم تصل إليها الجيوش النازية بعد...

ولقد فوجئ الحلفاء بهذا الأسلوب الجديد من الحرب النفسية، والذي لم يستخدمه أحد من قبل، فأسرعت المخابرات البريطانية تدرس كتاب (نوستراداموس)، بواسطة لجنة من الخبراء أيضاً، واستخلصت منه بدورها تلك الرباعيات، التي تتحدّث عن هزيمة (هتلر) في النهاية، وانتصار الحلفاء، وعملت المطبع البريطانية بأقصى طاقاتها؛ لطبع آلاف النسخ من تلك الرباعيات، باللغة الألمانية، وحملتها الطائرات الانجليزية؛ لتلقّيها على (ألمانيا)...

وغضب (هتلر) بشدة من الهجمة المرتدة البريطانية، وصب غضبه على (جوبلز)، الذي لم يقبل بالهزيمة، فاستقدم مجموعة من الخبراء، ليس لاستخلاص المزيد من الرباعيات هذه المرة، ولكن لتأليف رباعيات جديدة، لها نفس خصائص رباعيات (نوستراداموس)، ولكنها تشير إلى أن (هتلر) سيربح الحرب في النهاية، وأرسل طائرات النازية لتلقّيها على (إنجلترا)...

وأدرك رجال المخابرات البريطانية اللعبة بسرعة، وقرروا دخوها بالأسلوب نفسه، وسرعان ما ألقوا على (ألمانيا) عشرات الآلاف من نسخ كتاب جديد، زيفوا فيه بدورهم رباعيات جديدة، تقول: إن الحلفاء سيربحون المعركة، وسيلقون القبض

على (هتلر) حيًا، ويعرضونه على الناس داخل قفص حديدي، مما أثار جنون (أدولف هتلر)، وجعله يأمر بإيقاف هذه الحرب الدعائية فورًا؛ كوسيلة لدفع البريطانيين إلى إيقافها من جانبهم... ولكن الفكرة لم تفارق ذهنه قط، وربما لهذا أقدم على الانتحار، عندما خسر الحرب، خشية أن يفعل به الحلفاء ما قالوه، في رباعيات (نوستراداموس) الزائفة، وإن كانت هناك شكوك عديدة، أثيرت مؤخرًا، حول انتحار (هتلر)، خاصة وقد تم حرق جثته وجثة عشيقته (إيفا براون)، والتي أصرَّ على أن يتزوجها، في ساعاته الأخيرة؛ إذ صدر كتاب يقول مؤلفه أن (هتلر) لم يتتحر فعليًا، وإنما تم تهريبه، بخطة وضعَت مسبقًا، وأنه نجح في الفرار إلى (أمريكا الجنوبية)، حيث قضى ما تبقى من حياته مختبئًا، في مزرعة كبيرة هناك، ولكن مؤلف الكتاب لم يعط دليلاً واحداً على ما كتبه، مما جعل الأمر أشبه بقصة خيالية، تصلح لفيلم وهمي، ثم ظهر مؤلف آخر، يؤكد أن الحلفاء قد ألقوا القبض على (هتلر) حيًا، وأنهم قد احتفظوا به سجينًا، وأعلنوا عن انتحاره، حتى لا يثير وجوده على قيد الحياة حماسة النازيين مرة أخرى، والمدهش أنه أكد أن (هتلر) ظل سجينًا، حتى مات في السجن عام 1969م، ولكنه أيضًا لم يقدم دليلاً واحداً على قوله هذا، ولا عن التوقيت الذي ذكره بالتحديد، بل ولم يعط مبررًا أكثر قيمة، لسجن الزعيم النازي، دون الإعلان عن هذا... وأيًّا كانت الحقيقة، فما حصل في الحرب العالمية الثانية،

أثبت، بما لا يدع سبلاً للشك، أن الحرب النفسية هي واحدة من أقوى أسلحة الحروب، وأن جميع أجهزة المخابرات تتعامل معها بجدية بالغة، منها بلغت غراحتها؛ نظراً لأن هدم الجبهة الداخلية، هو أحد أهم وأخطر أهداف أجهزة المخابرات، لتدمير ترابط الشعوب، وإشعال النيران في المجتمعات، مما يضعف الجبهة الخارجية، التي تشغل بصر اهتماماتها في الجبهة الداخلية... .

ومن أخطر وسائل الحرب النفسية حرب الشائعات، والتي تستخدم منذ قديم الأزل، إلا أنها، ومنذ الحرب العالمية الثانية، صارت أكثر تطوراً، إلى الحد الذي صنع منها علمياً مستقلاً، وصنع من الشائعات فصائل وتقسيمات عديدة، لكل منها مغزاه وهدفه، و... .

هذا حديث آخر.

\* \* \*

الشائعات لعبة قديمة، عمرها هو عمر الحروب نفسها؛ ففي كل حرب، يسعى العدو دوماً هدم الجبهة الداخلية، وإشاعة البلبلة فيها، وبث روح الفرقة في الشعوب، وقطع كل رباط ثقة، بينها وبين قياداتها ودفعها، بحيث يصنع منها جبهة جديدة، ينشغل بها عدوه، فتسهل هزيمته، في جبهة الحرب والقتال... .

الشائعات لعبة، استخدمها الفراعنة، وانتهجها البربر، وبرع فيها التار، الذين كانت تسbulkهم الشائعات التي ابتكروها، والتي تبالغ في قوتها وبأسهم وجبروتهم؛ لكي ترهب عدوهم،

من قبل حتى أن يواجههم...

ولقد نجحت الشائعات، التي بثها الألمان، في الشعب الروسي، إبان الحرب العالمية الأولى، في إشعال وإذكاء جذوة الثورة الروسية، التي كان على رأس مطالبها الانسحاب من الحرب...

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وجاء معها الفكر النازي، الذي أدرك أهمية الدعاية والشائعات، حتى أنه أنشأ، وربما لأول مرة، وزارة البروباجندا، أو الدعاية، والتي رأسها (جوزيف جوبنر)، أحد مؤسسي علم الشائعات، المعروف الآن...

والشائعات فن من فنون عالم الجاسوسية، له تقسيمات وأنواعه وتأثيراته، ولكل شائعة من تصنيفاته مهمة، وغاية، وهدف، يجعلها أحد فنون الحياة، وفن عميق أيضاً، يدرك كيفية استخدام الشائعة الصحيحة، في الوقت الصحيح؛ لبلوغ الهدف الصحيح... فالشائعات ليست كلها من طراز واحد، بل هي تدرج نحو نوعين كبيرين من التقسيمات...

نوع يعتمد على هدفها، والأخر يعتمد على مصدرها... والشائعت التي ترتبط بمصدر الشائعة، هي الشائعات البيضاء، والشائعات السوداء، والشائعات الرمادية... والمصطلح هنا لا صلة له بهدف الشائعة، ولا يعني أن الشائعة البيضاء ذات هدف نبيل، أو العكس بالعكس، وإنما يرتبط بمصدرها فحسب؛ فالشائعة البيضاء هي شائعة معلومة المصدر، مثل خبر ينشر أو يذاع في التليفزيون الإسرائيلي مثلاً،

ويثير بلبلة في الشارع المصري، أو ينشر عن لسان مسئول أمريكي،  
يحتل مكانة رفيعة، ولكنه ليس صاحب القرار الرئيسي، فيثير  
بلبلة هنا، لما حواه من تهديدات ومخاوف وتصريحات، ليست في  
النهاية سوى تعبير عن وجهة نظر صاحبها، الذي يمكن فوراً  
التصرّح بأنه ليس في موقع إصدار القرار، إذا ما أتت الشائعة  
بنتيجة عكسية...

أما الشائعة الرمادية، فهي شائعة يصعب تحديد مصدرها  
بالضبط؛ إذ أنها تنطلق وتنتشر في الشارع، ويتناقلها ويردّها  
البعض، مما يزيد من انتشارها السريع، على الرغم من أنها لم تأت عن  
لسان شخص بعينه، ولم تصدر عن جهة معلومة، وليس هناك حتى  
ما يمكن أن يثبتها أو ينفيها؛ لذا فهي شائعة مجهلة المصدر، تحدث  
تأثيراً كبيراً، دون أن يتتبّع أحد إلى ضبابية ورمادية مصدرها...

الشائعة السوداء أمرها مختلف؛ فهي تصدر عن مصدر،  
يخالف تماماً ما توحّي به، أو ما تنسب إليه...

كأن تتحدّث بها إذاعة ناطقة بالعربية مثلاً، وتبدو وكأنها  
إذاعة وطنية، في أغانياتها، وإعلانها ومضمونها، ومعظم نشراتها  
الإخبارية، والتي تدرس فيها الشائعات، التي هي سر وجودها  
من الأساس....

وتلك الإذاعات، ولأنها تتخذ مظهراً وطنياً؛ لتدس السم في  
العسل، تحظى في المعتاد بنسبة مستمعين عالية، وبنسبة مصداقية  
كبيرة بين الناس، مما يرفع من قيمة دورها، عندما تدرس شائعاتها،

بين الأوساط البسيطة، والمتابعة لها، خاصة وأنها تنفرد أحياناً بمجموعة من الحقائق، ترفع ثقة الناس بها إلى الحد المطلوب... والشائعات، بكافة تصنيفاتها، تعتمد على قاعدة أساسية، توصل إليها خبراء علم النفس، منذ سنوات وسنوات...

قاعدة تقول: «إن الناس مستعدون لتصديق الكذب، مهما بدا زيفه، إذا ما صادف هواهم، وتكتسب الصدق، مهما بلغ وضوحيه، إذا ما خالف هواهم»....

المسألة إذن ليست في صدق أو كذب ما يقال، ولكنه في رغبة الناس في تصديق أو تكذيب ما يقال...

ولكن دعنا نعود إلى الشائعات نفسها، وإلى تقسيماتها، حيث تنقسم من منطلق الهدف، إلى ثلاثة تصنيفات أخرى، وهي الشائعات المتفجرة، والشائعات الزاحفة، والشائعات الغائصة... والشائعة المتفجرة، هي شائعة سريعة المفعول، معدّة ب بحيث تتفجر في المجتمع، تحت ظروف بعينها، لكي تتحقق هدفاً تكتيكيّاً سريعاً، مثل شائعة موت (هتلر)، التي أطلقت عام ١٩٤١م؛ في محاولة لإثارة بلبلة كبيرة، يمكن من خلالها العمل على قلب نظام الحكم...

وشائعة فرار القيادة، مع الأيام الأولى لثورة يناير ٢٠١١م، والتي أشاعت الاضطراب في صفوف قيادات الشرطة...

وهذا النوع من الشائعات يقتصر على فترات المواجهات المباشرة، ولا يصلح للتعامل على مستوى كبير، او لفترات طويلة، إذ أنه ينكشف في سرعة، بعد أن يتحقق الهدف المرجو منه،

على عكس الشائعات الراحفة، ذات التأثير الاستراتيجي طويل المدى، وهي شائعة تعتمد على الانتشار، والتواغل في المجتمع، بحيث تتناقلها الألسن، وتضيق إليها، وتعمل على تقويتها، دون أن تدرى، فتزحف الشائعة في المجتمع وتزحف، وتتصبح بالنسبة إليه غير قابلة للجدل، بحيث يكون تكذيبها أشبه بالكذب، وليس بكشف الحقيقة، لذا فالشائعة الراحفة تعد من أخطر أنواع الشائعات، لقدرتها على تغيير تفكير مجتمع كامل، مع مرور الوقت...

أما الشائعة الغائصة، فهي شائعة من نوع خاص، تظهر في ظروف بعينها، ثم تغوص في المجتمع، وتعود للظهور مرة أخرى، كلما عادت الظروف نفسها، وهو نوع من الشائعات، التي تعتمد على تكرار ظروف بعينها، في مجتمع بعينه...

هذا بالإضافة إلى نوعين أساسيين كبيرين من الشائعات، تدرج تحتهما كل أنواع الشائعات الأخرى، بمختلف تصنيفاتها، وهما الشائعة الاستراتيجية، والتي تدرج تحتها كل أنواع الشائعات، التي تستهدف ترك أثر دائم في المجتمع كله، على نطاق واسع، وتستهدف كل فئات المجتمع بلا استثناء، على المدى الطويل، والشائعة التكتيكية، التي تستهدف فئة من الشعب، أو حتى الشعب كله، لتحقيق هدف سريع ومرحلي، والوصول إلى نتائج قوية وفورية...

والشائعات، على الرغم من كونها وسيلة شديدة الفاعلية،

لضرب الجبهة الداخلية، وربما الجبهة الخارجية المباشرة أيضاً، إلا أنها ليست الوسيلة الوحيدة للحرب النفسية، وهدم الجبهات الداخلية، فهناك وسائل أكثر قوّة، وأكثر عنفاً أيضاً، وهذا حديث... قادم.

\* \* \*

عملية (سوزان)، واحدة من أشهر عمليات الجاسوسية، على المستوى المصري والعالمي، وبالتأكيد على مستوى الصراع المصري الإسرائيلي، ولقد بدأت في الخمسينات، عقب حركة يوليول ١٩٥٢ م، وعرفت عالمياً باسم (فضيحة لافون)، نسبة إلى (بنحاس لافون)، وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق، والذي أصدر قراره ببدء العملية، من خلال المخابرات الحربية الإسرائيلية (أمان)... ولقد اعتمدت العملية على قيام مجموعة من الشباب الإسرائيلي المدرب، بتخريب بعض المنشآت الأمريكية في (مصر) في ذلك الحين...

ففي ذلك الحين، كان (دافيد بن جوريون)، رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير دفاعها الأسبق، قد اعتزل العمل السياسي، وجاء بدلاً منه (موشى شاريت) لرئاسة الوزراء، و(بنحاس لافون) لوزارة الدفاع، في نفس الوقت الذي وجدت (إسرائيل) فيه نفسها في موقف لا تخسد عليه، إذ صار الاتحاد السوفيتي دولة عظمى، غير مؤيدة لها، في نفس الوقت الذي أدار فيه الرئيس الأمريكي (إيزنهاور) وجهه لها نسبياً؛ أملاً في فتح قنوات اتصال

جديدة مع النظام المصري بعد الحركة، وكان الفكر الإسرائيلي يتوقع صداماً ثارياً، بينه وبين العرب، الذين لم تفارقهم مراة هزيمة حرب ١٩٤٨م بعد، وتولى الجيش السلطة في (مصر)، يدق ناقوس الخطر حول هذا...

لذا فقد وضعت المخابرات العسكرية الإسرائيلية، المعروفة باسم (أمان)، خطة للتخريب والتجسس في (مصر)، وبالذات لضرب المصالح الأمريكية فيها، حتى لا يزداد التقارب المصري الأمريكي، على حساب ضعف العلاقة الإسرائيلية الأمريكية، وكانت الخطة تشتمل على الاعتداء على دور السينما، ومؤسسات الدولة العامة، وبعض المؤسسات الأمريكية والبريطانية، على أمل أن يفصّم هذا العلاقة المصرية الأمريكية الوليدة، ويدفع ببريطانيا إلى إعادة النظر، في فكرة إجلاء قواتها عن (السويس)... وبناء على الخطة، تم إنشاء ما يعرف بالوحدة (١٣١) في (مصر)، والتي ضمت مجموعة من شباب اليهود في (الاسكندرية)، والعجيب أن أحدهم كان (جالك بيتون) موظف شركة التأمين الشاب، والذي هو في واقعة (رفعت الجمال)، الذي يتتحل شخصية يهودية، لحساب السلطات المصرية؛ لكنه يتواجد في أوساط اليهود، ويكون عيناً عليهم...

ولقد كان المقدم (مودخاي بن تسور) مسؤولاً عن إنشاء ومتابعة الوحدة (١٣١)، والتي اختار لقيادتها الرائد (إبراهام دار)، الذي سافر إلى (مصر)، ودخلها بجواز سفر زائف،

كـرـجـلـ أـعـمـالـ بـرـيـطـانـيـ، تحتـ اـسـمـ (ـجـوـنـ دـارـلـنـجـ)، ولـقـدـ تـلـقـتـ الـوـحـدةـ أـوـلـ أـوـامـرـهاـ، كـمـ كـشـفـتـ التـحـقـيقـاتـ فـيـهاـ بـعـدـ، عـبـرـ رسـالـةـ لـاـسـلـكـيـةـ، تـحـدـدـ أـنـ الـهـدـفـ الأـكـبـرـ لـلـعـمـلـيـةـ، هوـ الـحـيلـولـةـ دونـ التـوـصـلـ إـلـىـ اـتـفـاقـيـةـ مـصـرـيـةـ بـرـيـطـانـيـةـ، بـأـيـ ثـمـنـ، وـعـنـ طـرـيـقـ تـوـجـيهـ ضـرـبـاتـ مـتـالـيـةـ لـلـجـبـهـةـ الدـاخـلـيـةـ المـصـرـيـةـ، وـحدـدـتـ الـأـوـامـرـ الـأـهـدـافـ الـمـشـوـدـةـ بـالـتـالـيـ: الـمـراـكـزـ الـثـقـافـيـةـ وـالـإـعـلـامـيـةـ، الـمـؤـسـسـاتـ الـاـقـتـصـادـيـةـ، سـيـارـاتـ الـدـبـلـومـاسـيـينـ الـبـرـيـطـانـيـينـ، وـرـعـاـيـاـ (ـبـرـيـطـانـيـاـ)، وـأـيـ هـدـفـ آـخـرـ، يـمـكـنـ أـنـ يـؤـدـيـ تـدـمـيرـهـ إـلـىـ توـتـرـ الـعـلـاقـاتـ الـدـبـلـومـاسـيـةـ، بـيـنـ (ـمـصـرـ) وـ(ـبـرـيـطـانـيـاـ)، وـالـبـحـثـ عـنـ أـهـدـافـ موـجـعـةـ، فـيـ مـنـطـقـةـ الـقـنـاءـ، وـكـانـتـ الـأـوـامـرـ تـصلـ عـبـرـ الإـذـاعـةـ الـإـسـرـائـيلـيـةـ، فـيـ السـابـعـةـ مـنـ صـبـاحـ كـلـ يـوـمـ، وـكـانـتـ إـذـاعـةـ وـصـفـةـ عـمـلـ (ـالـكـيـكـ الـإنـجـليـزـيـ)، هيـ إـشـارـةـ بـدـءـ الـعـمـلـيـةـ.. وـفـيـ الـأـرـبـاعـ الـثـانـيـ مـنـ يـوـليـوـ ١٩٥٤ـ، بـدـأـتـ الـعـمـلـيـةـ، بـتـفـجـيرـ ثـلـاثـ صـنـادـيقـ بـرـيدـ، فـيـ مـبـنـيـ الـبـرـيدـ الرـئـيـسيـ فـيـ (ـالـاسـكـنـدـرـيـةـ)، وـكـانـتـ الـأـضـرـارـ طـفـيـفـةـ غـيـرـ مـؤـثـرـةـ، مـاـ دـعـاـ الصـحـافـةـ إـلـىـ تـجـاهـلـ الـأـمـرـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ العـثـورـ عـلـىـ عـبـوـةـ مـجـهـولـةـ، دـاـخـلـ الصـنـادـيقـ الـثـلـاثـةـ.. وـلـقـدـ تـوـلـىـ التـحـقـيقـ فـيـ هـذـاـ الصـاغـ (ـمـدـوـحـ سـالـمـ)، الـذـيـ صـارـ رـئـيـسـ وزـرـاءـ (ـمـصـرـ) فـيـهـاـ بـعـدـ، ثـمـ مـسـاعـدـاـ لـرـئـيـسـ الـجـمـهـورـيـةـ، وـالـذـيـ كـشـفـتـ لـهـ التـحـقـيقـاتـ أـنـ الـعـبـوـاتـ تـحـويـ مـزـيـجـاـ مـنـ الـمـوـادـ الـكـيـماـوـيـةـ، وـقـطـعـ صـغـيرـةـ مـنـ الـفـسـفـورـ الـأـحـرـ، وـلـمـ يـتـبـهـ أـحـدـ عـنـدـئـذـ إـلـىـ أـنـ صـنـادـيقـ بـرـيدـ كـانـتـ مـجـرـدـ تـجـربـةـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـزـلـيـ الصـنـعـ مـنـ

المتفجرات، حتى انفجرت قنبلة في المركز الثقافي الأمريكي في (الاسكندرية)، صباح الرابع عشر من يوليو، ثم في المركز الثقافي الأمريكي في (القاهرة)، في مساء اليوم نفسه، وفي الحادفين، ثم العثور على جراب لنظرارة، يشبه ما تم العثور عليه في حادث تفجير صناديق البريد، وفي الثالث والعشرين من يوليو، كانت الخطوة تقضي بوضع متفجرات في محطات القطارات، ومسرح (ريفيولي) بالقاهرة، ودارى سينما (مترو) و(ريبو)، إلا أن أحد العبوات اشتعلت، في جيب أحد منفذى العملية، قبل موعدها، وتم إنقاذه من قبل المارة، واعتقاله من قبل ضابط شرطة، ارتاد في الأمر...

وفي المستشفى، وجد الأطباء مسحوقاً فضياً، يلطخ جسم الشاب، وتم العثور معه على جراب نظارة، داخله مسحوق مشابه، ورجح الأطباء أن يكون الاشتعال ناشئاً عن تفاعل كيميائي، وبتفتيش الشاب، الذي يدعى (فيليب ناتاسون)، غير المعروف الجنسية، والذي يبلغ من العمر - آنذاك - ٢١ عاماً، تم العثور على جراب آخر، به قنبلة من النوع ذاته، ويحمل اسم (مارون آياك)، صاحب محل النظارات، واعترف الشاب بأنه عضو في منظمة مسؤولة عن الحرائق، وفي منزله، تم العثور على مصنع صغير للمفرقعات، ومواد كيماوية سريعة الاشتعال، وقنابل حارقة...

وبناءً على اعترافاته، سقط أفراد الشبكة، وهم (فيكتور

موين ليفي)، مهندس زراعي، في الخامسة والعشرين من عمره، و(روبير نسيم داسا)، تاجر في نفس العمر، ولقد ادعى كلاهما الوطنية، وأن هدفهما كان حب (مصر)، وإرسال رسالة إلى الإنجليز والأمريكيين، بأنهم سيخرجون منها بالقوة، ولكنهما عجزا عن تبرير محاولة حرق مكتب البريد المصري، كما جاء التقرير، الذي يفيد العثور على شرائط ميكروفيلم، في منزل (فيليب ناتاسون)؛ ليحسم الأمر تماماً، حيث لم يكن الحصول على الميكروفيلم متاحاً، في ذلك العصر، إلا لأجهزة المخابرات وحدها، مما يثبت أنها جاسوسان..

وهكذا تساقط باقي أفراد العملية، واحداً بعد الآخر، وتم اعتقال عدد كبير من اليهود للتحقيق معهم، كان من بينهم، وفقاً لترتيبات القدر (جاك بيتون) نفسه، والذي تم اعتقاله في زنزانة واحدة، مع (إيلي حوفي كوهين)، والذي ساعد (رفعت الجمال) على إسقاطه في (سوريا) بعد بسنوات، عندما عاش هناك تحت اسم (كامل أمين ثابت)، وكاد يتولى منصب وزير الدفاع السوري، بعد أن تم ترشيحه لمنصب نائب وزير الدفاع بالفعل، قبيل كشف أمره وسقوطه بقليل، أما في (مصر)، فقد جاءت قائمة الاتهامات، في قضية (سوزانانا) كبيرة.... وهذا حديث آخر.

\* \* \*

عندما تم الإيقاع بأوائل المتهمين في عملية الحاسوبية

الكبرى، التي عرفت باسم (عملية سوزانا)، أو (فضيحة لافون)، كان من أهم الأدلة، التي تم العثور عليها، في منزل (فيليب ناتاسون)، أحد المتهمين، شرائط ميكروفيلم دقيقة، لم يكن من الممكن توافرها، في ذلك الحين، إلا لأجهزة المخابرات، ولقد تبيّن فيما بعد، أن تلك الشرائط قد دخلت إلى (مصر) عن طريق (باريس)، وبوسيلة كانت آنذاك مبتكرة للغاية؛ إذ تم لصقها خلف طوابع البريد، في رسائل عادية، ولعناوين مختلفة... وعندما تم تكبير تلك الشرائط، وجد الخبراء عليها سبع وثائق، عن تركيب واستعمال بعض القنابل البدائية الحارقة، وشفرة للاتصال اللاسلكي، وعدد من الخرائط للأهداف المراد توجيه الضربات إليها، وأشياء أخرى، تنتهي كلها إلى منظومة التجسس... ولقد قادت التحريات والاستجوابات إلى الإيقاع بعده متهمين آخرين، مثل (صمويل باخور)، وهو مهندس يهودي، في الرابعة والعشرين من عمره، أسس خلية الوحيدة في (الاسكندرية)، وتولى زعامتها مؤقتاً، قبل أن يحتل (فيكتور ليفي) منصب الزعامة، لتفوقه خبرة وتدريساً، وعبر اعترافات (صمويل)، تم إلقاء القبض على (ماير موحاش)، اليهودي البولندي الأصل، والذي يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، ويحمل مندوبياً للمبيعات، والذي أرشد في اعترافاته إلى (جون دارلينج)، أو (إبراهام دار)، قائد الشبكة، ومؤسس فرعها، في (القاهرة) و(الاسكندرية)، وأحد أخطر رجال المخابرات

الإسرائيلية، وأكثرهم مهارة، كما أرشد عن (موسى ليتو)،  
اجراح ومسئول فرع (القاهرة)، والذي تم القبض عليه،  
ليرشد بدوره عن (فيكتورين نيت)، الشهير باسم (مارسيل  
نيتو)، و(ماكس بيست)، و(إيلي جاكوب)، و(يوسف زعفران)،  
و(سيزار يوسف كوهين)، و(إيلي كوهين)، الذي لم يثبت تورطه  
في (عملية سوزانا)، وتم الإفراج عنه فيما بعد، وإن ساعد ملفه  
في هذه العملية، على كشف أمره فيما بعد، عندما تم زرعه في  
(سوريا)، تحت اسم (كامل أمين ثابت)، وألقى القبض عليه  
هناك، قبل أن يفوز بمنصب نائب وزير الدفاع مباشرة...

ولقد أعقب سقوط الشبكة في (مصر) وما صحب ذلك  
من دوي إعلامي عالمي، أن أصدر (موسى ديان)، رئيس أركان  
الجيش الإسرائيلي في ذلك الحين، قراراً بعزل (موردخاي بن  
تسور)، من قيادة الوحدة (١٣١)، وتعيين (يوسي هارئيل)،  
بدلاً منه، ومن الواضح أن اختياره لم يكن موفقاً، إذ أن  
(يوسي هارئيل) قد اتخذ قراراً بالغ الغرابة والعجب، في تاريخ  
المخابرات كله؛ إذ خشي تحمل المسئولية، فأصدر قراره بإيقاف  
جميع عمليات التجسس، في كل الدول العربية، واستدعاء جميع  
العملاء فيها، حتى لا يواجه مصيرًا مشابهاً لمصير سلفه... وهو  
إجراء لا يمكن أن يتخده رجل مخابرات حقيقي، في فترة شديدة  
السخونة كهذه...

وعلى جانب آخر فقد تمت محاكمة أفراد شبكة التجسس،

التي استهدفت ضرب الجبهة الداخلية، وإفساد علاقات (مصر) الدولية، في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٩٥٤م، وصدر الحكم على (موسى ليتو مرزوق)، و(صمويل بخور عازرا)، بالإعدام شنقاً، والأشغال الشاقة المؤبدة، لكل من (فيكتور ليفي)، و(فيليپ هرمان ناتاسون)، والأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً، لكل من (فيكتورين نينو)، و(روبير نسيم داسا)، والأشغال الشاقة لسبع سنوات، لكل من (ماير يوسف زعفران)، و(ماير صمويل ميوحاس) ومصادرة أجهزة اللاسلكي والأموال المضبوطة، و سيارة (ماكس بينيت)، والذي لم يرد اسمه في منطوق الحكم؛ نظراً لانتخاره في السجن ...

أما (سيزار يوسف كوهين)، و(إيلي جاكوب)، فقد تمت تبرئتها، ليخرجَا بعدها من (مصر)، ويعاود (إيلي) نشاطه في المخابرات الإسرائيلية، ثم يسقط في (سوريا) بعدها بسنوات، وهو يتتحل شخصية (كامل أمين ثابت) ...

ولقد أصيب الشارع الإسرائيلي بحالة من الغضب والغليان، عقب صدور الأحكام، وبذلت (إسرائيل) جهوداً مضنية؛ لإقناع (مصر) بالعدول عن الأحكام؛ لصغر سن المتهمين، وتدخل الرئيس الأمريكي - حينذاك - (أيزنهاور)، وأرسل رسالة شخصية إلى (جمال عبد الناصر)، يناشدُه الإفراج عن المتهمين لدوافع إنسانية، وكذلك فعل (أنتوني إيدن)، و(وينستون تشرشل)، وعدد من كبار المسؤولين الفرنسيين، إلا

أن الرئيس (جمال) رفض كل هذا، وأصر على المضي في تنفيذ الأحكام، باعتبار أن مصلحة (مصر) تفوق كل اعتبار... .

وبالفعل، وفي ٣١ يناير ١٩٥٥م، تم تنفيذ حكم الإعدام في (موسى ليتو مرزوق)، و (صمويل بخور عزرا)، حيث تم دفن الأول في مقابر اليهود بالبساتين، والثاني في مقابر اليهود بالإسكندرية... .

وعم الحزن (إسرائيل) كلها، حيث نكست أعلامها، ووقف أعضاء الكنيست حداداً، وخرجت كل الصحف الإسرائيلية بمانشيتات سوداء، وتم إطلاق اسم الجاسوسين على أهم شوارع (بئر السبع)... ولكن الفضيحة لم تنته؛ وقد تم التحقيق مع (موسى شاريت)، رئيس الوزراء، والذي لم يكن لديه أي علم بالعملية، وكذلك التحقيق مع وزير الدفاع (بنحاش لافون)، الذي أنكر معرفته بأية عملية، تحمل اسم (سوزانا)، إلى أنه اضطر بعدها للاستقالة، وعاد (بن جوريون) إلى منصب وزير الدفاع، فأصدر قراره بعزل (بنيامين جيلبي)، مدير المخابرات العسكرية (أمان)، وتعيين (يهو شفاط هركابي) بدلاً منه... .

و(هركابي) هذا، والذي كان نائباً لمدير المخابرات العسكرية، هو صاحب نظرية الردع العسكري، التي تم تطبيقها في السياسة العسكرية الإسرائيلية فيما بعد... .

أما باقي المتهمين، فقد تم عقد صفقة تبادل أسرى، عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م، وتم الإفراج عنهم في بدايات عام ١٩٦٨م،

ليعودوا إلى (إسرائيل)، التي تم استقباهم فيها استقبال الأبطال، واستقبلتهم رئيسة الوزراء - آنذاك - (جولدا مائير)، وصدر قرار بتعيينهم في الجيش الإسرائيلي؛ كوسيلة لمنعهم من ذكر تفاصيل القضية، وحضرت (جولدا مائير) مع (موشى ديان)، وزير الدفاع الإسرائيلي - آنذاك - حفل زفاف (مارسيل نينو)، وإن لم يمنع هذا ظهور هذه الأخيرة، مع (روبير داسا)، و(يوسف زعفران)، على شاشة التليفزيون الإسرائيلي، بعد عشرين عاماً من العملية، في يوليو ١٩٧٤م، ليهاجموا الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة؛ لأنها لم تبذل الجهد الكافي لإطلاق سراحهم قبل هذا، وأنه لو لا عملية تبادل الأسرى، لما عادوا إلى (إسرائيل)... وهذا يقودنا إلى الحديث عن لعبة تبادل الأسرى وصفقات تبادل الجنود، باعتبار أنه حتى هذا... فن آخر، من فنون اللعبة، التي لا نهاية لها...  
لعبة الجاسوسية.

\*\*\*



## (٩)

ماذا بعد إلقاء القبض على جاسوس ما؟...  
سؤال هام جداً، يطرح نفسه على الساحة؛ ليبرز فنوناً  
أخرى، من فنون لعبة الجاسوسية، وحرب المخابرات، التي لا  
تضع أوزارها فقط، في الحرب أو السلم..  
فكشف الجاسوس فن... والإيقاع به فن... وإثبات أنه  
جاسوس فن أكبر...

أما الفن الحقيقي، فيأتي بعد الإيقاع به بالفعل...  
فالجاسوس هو شخص ليس عادياً، ولو أنه رجل مخابرات  
محترف، أو حتى عميل تم تجنيده، أو زرعه في مكان ما، فهو  
مدرب دوماً على المراوغة خلال الاستجواب، وعلى خطة أو عدة  
خطط احتياطية، وفقاً لدرجة ذكائه، وخبرته، وقوته تدريبية...

وعندما يتم الإيقاع به، وعلى عكس ما يحدث في جهات  
الأمن الداخلي لأية دولة، تكون أدلة وقرائن اتهامه كاملة ومؤكدة،  
وعلى الرغم من هذا فاعترافه ضرورة كبيرة؛ لأن ما يخفيه في  
أعماقه، يكون دوماً أكبر مما تم التوصل إليه وكشفه، واستخراج  
المعلومات الباقية منه ليس بالأمر السهل، وإنما يحتاج إلى مزيج  
من الفن والصبر؛ لأن الجاسوس سيديلي بالخطة (ب) أولاً؛ عندما

تواجده بالأدلة والبراهين، وهي خطة ستبدو متقدمة، وربما تتفق مع عدد كبير من الأدلة، وسيقاوم لوقت طويلاً، قبل أن يدللي بها؛ حتى يكسبها المصداقية الالازمة، لذا فسيتحتم إرسالها إلى القسم الفني، الذي يفحص ويدرس ويحلّل كل جزء وكلمة وحرف منها، قبل أن يخرج بتقرير يكشف زيفها، وهنا تتم مواجهة الجاسوس بما توصل إليه القسم الفني، فينتقل على الفور إلى الخطة (ج)، وتدور الدائرة نفسها مرة ثانية، وربما ثالثة ورابعة، لو أنه هناك الخطة (د) أو أكثر، وفي النهاية، يدرك الجاسوس أنه محاصر بفريق من المحترفين، فلا يجد أمامه سوى الإدلاء بالاعترافات الصحيحة، التي تؤيدها تقارير القسم الفني ...

كل هذا لابد وأن يتم دون اللجوء إلى أي نوع من الإكراه البدني؛ لأن الإكراه البدني يدفع الجاسوس إلى قول ما تريده سهلاً، وليس الحقيقة، وهذا لا يتفق مع النظرية المعلوماتية التراكمية، الالازمة لعمل أي جهاز مخابرات، والتي إذا ما شابها معلومة واحدة خاطئة، أدى بها جاسوس واحد، تحت إكراه بدني، يمكن أن تنهاز منظومتها المعلوماتية بالكامل، مما ينجم عنه فشل ذريع، في عدة عمليات تالية... قيمة الجاسوس إذن، تكمن أولاً، فيما يمكن انتزاعه منه، من معلومات حقيقية، يمكنها أن تضيف شيئاً إلى المنظومة المعلوماتية المترادفة، أو كشف بعض الغموض، الذي اكتنف أجزاء منها... وبعد اعتصار الجاسوس، بعض النظر عن الوقت الذي يستغرقه هذا، لا تعود لهفائدة

تذكر، اللهم إلا توجيه رسالة إلى العدو، بأنه قد خسر هذه الجولة، وتم تقديم عميله أو جاسوسه للمحاكمة...

وهنا يتم سجن الجاسوس، في انتظار بلوغ لحظة الفائدة الحقيقة له، وهي عملية تبادله مع آخرين، أو ربح صفقة هامة بشأنه...

هنا في الواقع تكمن الأهمية الكبرى، وربما الأساسية؛ لأي جاسوس يتم إلقاء القبض عليه، واعتصار كل المعلومات الممكنة منه...

فبعد سجنه، يصبح الجاسوس، مهما علا شأنه، مجرد سجين عادى، يقضي مدة عقوبته، ويتحتم على الدولة أن ترعاه صحيًا وبدنيًا، وأن توفر له باختصار، يصبح عبئاً عليها...

حتى تأتي اللحظة، التي لابد وأن تأتي، في كل جولات حرب الجاسوسية بلا استثناء....

لحظة سقوط أحد رجالنا، أو احتجازه من قبل العدو، أو تعرض العدو لضغوط شعبية شديدة؛ حتى يسترد جاسوسه، الذي هو بطل في نظر شعبه...

هذا ينطبق بالطبع على الجواسيس الأجانب، وليس على الخائنين من بنى الوطن نفسه، والذين أسقطوا أنفسهم في بتر التجسس؛ فمن النادر أن تسلم دولة مواطنها لدولة أخرى، دون هدف قومي كبير...

وعندما يطالب العدو بجاسوسه، أو يسعى لاستعادته، يبدأ فن جديد من فنون لعبة الجاسوسية.... فن التفاوض، وعقد الصفقات... فقبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، نجحت (مصر) في إسقاط رجل

مخابرات إسرائيلي في قبضتها، يدعى (باروخ زكي مزراحي)، وهو أحد المولودين في (مصر)، وأكمل دراسته كلها فيها، ثم هاجر إلى (إسرائيل)، وعمل في شرطة الآداب، وتزوج وأنجب، ثم تم إلتحاقه بالمخابرات الإسرائيلية... ولأنه يجيد اللهجة المصرية، تم إرساله في مهمة إلى (أوروبا)؛ ليندرس بين المصريين هناك، وينقل أخبارهم وتفاصيل حياتهم، وعندما نجحت مهمته هناك، تم إرساله إلى (اليمن)؛ لتصوير البوارج المصرية في باب المندب، وهناك تم كشف أمره، وألقى القبض عليه، وسافر رجل مخابرات مصرى لإحضاره، وخاض مغامرات مدهشة، أشبه بروايات السينما؛ لإحضاره إلى (مصر)، والمخابرات الإسرائيلية تطارده في شراسة؛ لاسترجاع ضابطها، أو حتى التخلص منه، حتى لا يصل بكل ما لديه من معلومات إلى (مصر)...

في ذلك الحين، وفي قلب (العرיש)، كانت هناك مجموعة من الرجال، تعمل لصالح المخابرات المصرية، أطلقت على نفسها اسم (مجموعة العريش)، وكبدت العدو خسائر فادحة، واستمرت تكبده، حتى قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، مباشرة، وقامت بعدة عمليات عظيمة؛ لقطع خطوط مواصلات واتصالات العدو، خلال الأيام الأولى للحرب، إلى الحد الذي جعل العدو يكتشف جهوده وتحركاته، حتى أوقع بالمجموعة، عقب إعلان الهدنة...

كانت المخابرات، في ذلك الحين، قد انتهت من تصفية كل

المعلومات التي تنشدها، من (باروخ زكي مزراحي)، ولم تعد هناك فائدة أمنية تذكر، من استمرار سجنه في (مصر)؛ لذا فقد تم عقد صفقة تبادل مع الإسرائيлиين، استعاد فيها الإسرائيرون جاسوسهم، واستعدنا نحن فيها عدداً من أسرانا، ومن عملوا الصالح (مصر) في قلب (سيناء)، وكان من بينهم (مجموعة العريش)....

وعندما يعقد رجال المخابرات مثل هذه الصفقات؛ فإنهم ينظرون إليها باعتبارها وسيلة لاسترجاع رجالنا، وليس تساهلاً مع جاسوس للعدو، فرجالنا لهم الأولوية، منها كان ثمن استرجاعهم، وهنا يكمن فن السيطرة على المشاعر، وضبط النفس، والثبات الانفعالي... وهذا فن مختلف.

\* \* \*

الثبات الانفعالي... مصطلح ارتبط دوماً، في أذهان الناس، بلعبة الجاسوسية والمخابرات، وصار العديدون يرددونه، دون أن يستوعب معظمهم معناه بالضبط، ولقد أدركت معناه العملي، خلال أكثر من عشرين عاماً، تعاملت فيها مع رجال مخابرات محترفين، دون أن ألتقي برجل واحد منهم، يمكن استفزازه أو إثارة غضبه، أو دفعه إلى القيام برد فعل غير مدروس... وهذا يمكن أن يوضح ما يعنيه مصطلح (الثبات الانفعالي)... فالمصطلح يعني، باختصار، القدرة على السيطرة على الانفعالات البشرية، منها كانت الضغوط والمؤثرات، ومها كان الموقف، أو

بلغت صعوباته وتعقيداته، والقدرة على ضبط تردد العقل، على إيقاع واحد، تحت أحلك الظروف، بحيث يكون قادرًا، في كل الأحوال، على اتخاذ القرار السليم، في الوقت السليم، دون التأثر بمحريات الأمور القادرة على تشتيت أي عقل ...

وبلوغ هذه المرحلة، من الثبات الانفعالي، ليس بالأمر السهل، وليس بالأمر الذي نرثه، أو نولد به، فهو ليس نوعاً من تبلد المشاعر، وإنما هي قدرة مكتسبة، على فصل المشاعر عن العقل، في اللحظات التي يحتاج المرء فيها إلى قرارات عملية، قد تؤثر في مجرى الأمور من حوله، أو في مستقبل وطنه كله، في بعض الأحيان... والتدريبات الالازمة، للوصول إلى حالة الثبات الانفعالي، كثيرة، وتحتاج إلى صبر وحكمة، وربما واجه بعض من تقدموا الاختبارات القبول، في مؤسسات عسكرية، أو في هيئة الشرطة، ذلك الاختبار الخاص بالثبات الانفعالي، عندما يسعى مختبروه لاستفزازه، ودراسة ردود أفعاله، تحت هذا المؤثر المباشر ... فالشخص لحظتها، إما أن يفقد أعصابه، أمام هذا الاستفزاز، أو يتاسك، ويعبر الاختبار بسلام ...

أما بالنسبة لرجل المخابرات، فهذا الاختبار الأولى يعد مجرد بداية فحسب، إذ أنه، وفور التحاقه بجهاز المخابرات - أي جهاز مخابرات - يبدأ في التدريب عملياً، على اكتساب حالة مرتفعة من الثبات الانفعالي، تؤهله لمواجهة ظروف بالغة الحساسية والخطورة، وعلى نحو مبالغت، دون استعداد مسبق

لها؛ إذ أن رجل المخابرات المحترف معرض دوماً لمواجهات غير متوقعة، وتطورات غير محسوبة، ولا بد له من أن يمتلك القدرة على مواجهتها مباشرة، ودون إضاعة الفرصة...

والتدريب على الثبات الانفعالي لا يتم دوماً على نحو مباشر، وإنما من خلال برنامج تراكمي مدروس، يمر به رجل المخابرات خطوة بخطوة، وأحياناً دون أن يدرك أنه يمر بجزء من أهم تدريباته...

فهو، في أثناء فترة التدريب الأولى، قد يواصل التدريب حتى ساعة متأخرة للغاية، حتى يشعر بإرهاق شديد، وعندما يغفو قليلاً، يتم إيقاظه بعد ساعة أو ساعتين، وعليه فور استيقاظه، أن يواجه مشكلة ما، ويوجدها الحلول العملية، في سرعة مناسبة... هذا لكي يعتاد عقله سرعة الاستيقاظ، تحت أية ظروف، وتحت أية ضغوط...

وفي البداية لا يكون هذا سهلاً، ويكون على العقل أن يبذل جهداً شديداً؛ لكي يمكنه الاستيقاظ، والعمل بكفاءة، في ظل هذا الموقف، ولكن مع مرور الوقت، يعتاد العقل هذا، وتهدأ الانفعالات المصاحبة له، وتبدأ أولى خطوات الثبات الانفعالي، ويعدها يتم طلب مشروع ما، مثل رسم طوبوغرافي للمنطقة المحيطة بمركز التدريب، ويكون على المتدرب قضاء الليل كله في رسم المشروع، وعند الانتهاء منه، في الصباح الباكر، يتم تقديمه إلى المشرف، الذي يقوم بتمزيقه، دون حتى الإطلاع

عليه، ويطلب إعادة مرأة أخرى....

لو حدث هذا مع أي شخص عادى، لتملكه الغضب، وثار على المشرف، وربما رفض إعادة المشروع مرأة أخرى، ولكن في حالة الثبات الانفعالي، يواجه رجل المخابرات الأمر في هدوء، ويبداً في إعادة المشروع....

هذا بالطبع عندما يصبح مؤهلاً لحالة الثبات الانفعالي، التي يكتسبها مع مرور الوقت، وتتصبح جزءاً من شخصيته، وسمة من سماته، فلا يعود من السهل استفزازه، أو إفقاده أعصابه، مهما كانت المؤثرات....

الثبات الانفعالي سمة حتمية، لكل رجل مخابرات محترف؛ إذ أن عمليات المخابرات، مهما بلغت دقة إعدادها وتنظيمها، يمكن أن تواجه تطورات مفاجئة، أو مصادفات مباغطة، تضطر ضابط المخابرات إلى الخروج عن الخطوة الأساسية، أو العمل على تعديل مسارها؛ لتفق مع المتغيرات، ولو أن رجل المخابرات ارتبك، أو اضطرب، أو فقد قدرته على التحكم في انفعالاته، تحت وطأة المفاجأة، لأنها لانهارت العملية برمتها، وقد ينهار معها خط دفاعي كبير، في الأمان القومي لوطن بأكمله....

ثم أنه من المحتمل أن يسقط رجل المخابرات، تحت أي ظروف، في قبضة العدو، وعندئذ سيكون عليه استنفار ثباته الانفعالي إلى أقصى حد، حتى يمكنه مواجهة العدو، والحفاظ على أسرار وطنه، وعدم كشف طبيعة مهمته في الوقت نفسه، خاصة وأنه سيواجه

محترفين أيضاً، يجيدون سبل الاستجواب واستخلاص المعلومات، وربما يلجئون إلى وسائل كيمائية، مثل عقار (بنتوثال الصوديوم)، الذي يطلق عليه اسم (مصل الحقيقة)، والذي من سماته أنه يضع العقل البشري في حالة من نصف الوعي، يعجز معها عن ترتيب أفكاره، أو كهان حقائق أساسية لفهمه، أو إلى وسائل إلكترونية، مثل جهاز كشف الكذب، الذي هو عبارة عن جهاز متعدد النتائج، يقيس معدلات النبض، والتنفس، وإفرازات العرق، باعتبار أن الكذب يزيد كل منها، على نحو يمكن معه لأي محترف، أن يكشف ما إذا كان المستجوب يذكر الحقيقة، أم أنه يروي حقيقة مختلفة؛ للتغطية على الحقيقة الأساسية...

والتدريب الطويل على الثبات الانفعالي، يجعل رجل المخبرات المحترف، الذي يخوض مواجهات مباشرة، قادرًا على التحكم في أعصابه، إلى درجة يعجز معها جهاز كشف الكذب عن إدراك حقيقة روايته، أما عقار (بنتوثال الصوديوم)، فيمكن إلغاء تأثيره، عبر سلسلة من التعامل بجرعات صغيرة منه، عبر مسار عمل رجل المخبرات...

والحديث عن تقنيات الاستجواب، في عالم الجاسوسية، يقود حتماً إلى الحديث عن تاريخ تقنية التجسس.. وهذا حديث آخر... قادم.

\* \* \*

## (١٠)

تقنية التجسس جزء هام للغاية، ويكاد يكون الجزء الأهم، بعد اخاوس البشري، في عالم اخاوسية والمخابرات... وهو يتتطور مع تطور الزمن والتكنولوجيا، ولا بد له من أن يسبق التكنولوجيا المتاحة للعامة، وحتى للخاصة، بخطوتين على الأقل، وأن يسبق ما لدى العدو من تقنية، ولو بخطوة... فقدّيماً كانت تقنية التجسس ببساطة عصوّرها الأولى، ففي زمن الفراعنة، كانوا يخلقون شعر عبد ما، ويوشمون الخطابات والأوامر السرية على رأسه، ويتركون شعره ينمو من جديد، ثم يرسلونه بالأوامر إلى القادة، الذين يقومون بحلاقة شعره، ويقرأون الرسالة الموسومة على رأسه، ثم يقتلونه؛ لمنع الرسالة من الوصول إلى العدو، تحت أية ظروف..

وكانت تلك التقنية البسيطة ناجحة تماماً في زمانها، حتى تم كشف أمرها، فلم يعد استخدامها ممكناً... وفي زمن الرومان، ابتكرّوا العصا المجوفة، التي توضع داخلها الرسالة، المكتوبة على رقعة من الجلد، والتي تحوي بيانات ومعلومات هامة، وأحياناً دون أن يدرك حاملها هذا، وإنما يدرك فقط أنه عليه تسليمها لجهة بعينها، أو شخص بعينه...

أما في الحرب العالمية الأولى، فقد بدأت الأمور تتطور، وخاصة مع وجود آلات التصوير، التي كان يتم إخفاؤها في حقائب السفر، أو جدران المنازل...

ثم تطورت الأمور في الحرب العالمية الثانية، التي ظهر فيها الميكروفيلم إلى الوجود، بحجمه الصغير الدقيق، مع آلات التصوير الصغيرة، والتي كانت تحفة التجسس آنذاك، من حيث القدرة على إخفائها في علب السجائر والقداحات، وتصوير المنشآت السرية بوساطتها، على ميكروفيلم دقيق، يمكن إخفاؤه في زر معطف، أو كعب حذاء، أو بطانة حقيبة يد صغيرة، أو على ظهر طابع بريدي، كما حدث في قضية (سوزانا)...

وبعدها ظهر التصوير الرقمي، الذي حول الميكروفيلم إلى سلعة شعبية، بحيث صار من الممكن الآن، لأي مستهلك عادي، شراء أفلام وكاميرات الميكروفيلم، من متاجر التصوير الفوتوغرافي، بأسعار زهيدة للغاية...

وعندما ظهر التصوير الرقمي في البداية، لم يكن متاحاً للأشخاص العاديين، وإنما كان تقنية استخباراتية فريدة، يستخدمها الجواسيس ورجال المخابرات فحسب، قبل أن تخرج لل العامة، بدقة وضوح محدودة، سرعان ما تطورت، لتبلغ حدّاً مدهشاً، يعلم الله سبحانه وتعالى وحده كم ستبلغ مستقبلاً...

والحديث عن استخدامات التصوير في عالم المخابرات والجاسوسية وجمع المعلومات، يقود إلى الحديث عن التصوير

الجوي؛ لدراسة أرض المعركة، والذي بدأ استخدامه خلال الحرب العالمية الثانية، من خلال آلات تصوير، مشببة أسفل طائرات، لديها القدرة على التحليق عاليًا، وعلى التقاط الصور في سرعة كبيرة، تتناسب وسرعة الطائرة نفسها، كما فعلت (اليابان)، قبيل هجومها على ميناء (بيرل هاربور) الأمريكي، في بدايات الحرب العالمية الثانية، حيث التقى طائراتها صور الأسطول الأمريكي هناك، وحدّدت أهدافها، قبل بدء الهجوم....

وفي ذلك الزمن، لم تكن السرعات العالية لآلات التصوير وعدساتها متاحة لل العامة، بل ولم يكن فلاش التصوير، المعروف حالياً، متاحاً على الإطلاق، بل كانت آلات التصوير تستخدم مصابيح خاصة، تنفجر مع كل لقطة، ويتحمّل على المصوّر المحترف حمل كمية كبيرة منها، لاستخدامها مع كل صورة، ثم جاء الأمريكي (هارولد ادجرتون)، فاخترع الفلاش الإلكتروني، الذي يمكن أن تتكّرر إضاءة مصباحه، لعدد كبير من اللقطات، دون الحاجة إلى تغييره، وابتكر أيضاً نظاماً صوتياً، يطلق إضاءة الفلاش، مع أي صوت مرتفع، وأمكنه بهذا تصوير رصاصة، وهي تشق ورقة من أوراق اللعب (الكوتشن)، قبل أن تمضي في طريقها...

ومع ظهور الانترنت، الذي كان في البداية وسيلة عسكرية، محدودة الاتصال، وغير متاحة لل العامة، ثم صار وسيلة تواصل اجتماعي متاحة للجميع، تطور فن إرسال الصور والمعلومات،

وصار بإمكان الجاسوس إرسال مالديه، وقتها ي يريد، وإلى حيث يريد، عبر شبكة الانترنت.... ولكن، ولأن تقنية التجسس ليست حكراً على جهاز مخابرات دون الآخر، فقد بدأت حرب إلكترونية رقمية جديدة، في عالم الجاسوسية، مما دفع البعض إلى ابتكار تقنية تعرف باسم (ستينوجرافيا) (Stenography)، أو الصورة المخفية داخل صورة أخرى، بحيث لا يمكن رصدها، إلا لو ثمت معرفة الصورة الأم بالتحديد، وفحصها عبر تقنية أخرى مضادة، ولكن الصورة الرقمية لها خصائص تختلف عن الصورة الفيلمية العادية، من حيث أنها في الأساس مجموعة من الأرقام والمعادلات الرياضية الرقمية، التي تضع صورة على الشاشة، لذا فمن الممكن دس صورة أخرى، هي أيضاً عبارة عن معادلات رقمية، داخل الصورة الأم، كما يمكن تشفير معادلات الصورة الجنينية، داخل معادلات الصورة الأم، بحيث تصعب رؤيتها، حتى ولو تم إنجابها، دون معرفة الشفرة الأصلية لها، مما أدى وبالتالي إلى السعي لابتكار برامج شديدة التطور؛ للتعامل مع الشفرات المختلفة، ومحاولة حلّها وفك رموزها، ولكن حرب التكنولوجيا الحديثة، جعلت الاطراف الأخرى تتذكر البرامج المضادة، التي تصنع شفرات شديدة التعقيد، بحيث يستغرق فك رموزها وقتاً طويلاً، يكفي لكي تؤدي الشفرة دورها، وتنقل معلومات، تتم الاستفادة بها، قبل التوصل إلى فك الشفرة الأولى، في نفس الوقت الذي تكون فيه البرامج الرقمية الدقيقة،

قد ابتكرت شفرة ثانية، وهكذا...

وفي عالم المخابرات والجاسوسية الآن، برامج رقمية شديدة التطور، لديها القدرة على ابتكار شفرة خاصة لكل مرة إرسال، بحيث لا تكرر الشفرة الواحدة مرتين، فيصير التعامل مع الصور الجنيحية عسيراً، ولكن هناك برامج أخرى، تسعى لإيجاد نظام موحد، يمكنه كشف كل الشفرات، على نحو واحد...  
وهنا يعيينا ذلك الجزء من تقنية التجسس إلى الجاسوس البشري، الذي لو أمكنه نقل برنامج التشفير الرقمي إلى الطرف الآخر، فسيحسم حرب التكنولوجيا التشفيرية بخطوة واحدة...  
والتصوير السري لم يتوقف عند التقاط صور الأشياء، التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وإنما تطورت تقنية التصوير، في هذا العالم الممتلئ بالغموض والأسرار، وحوّلت تقنيات أخرى، تطورت أيضاً مع الزمن...  
وهذا حديث آخر.

\* \* \*

كل شيء في عالم الجاسوسية يتتطور في سرعة...  
وكل تقنية من تقنيات التجسس، تدخل في سباق سرعة من نوع آخر، إذ يتحول الأمر، من تطوير تقني عادي، إلى حرب تقنية، يفوز فيها الأسرع، والأكثر قدرة على الابتكار...  
وتقنية التصوير، الذي يدرك كل مصور محترف، أو حتى مصور عادي، كم صارت تتطور في سرعة، في هذا الزمن، كانت

مضمار حرب طاحنة، في عالم الجاسوسية والمخابرات...  
ولقد ساعد تطور التقنيات الأخرى، على سرعة تطور تقنية  
التصوير أيضًا؛ إذ تحول التصوير الجوي، الذي كان يتم بوساطة  
طائرات ذات قدرة على الارتفاع عاليًا، إلى تصوير رقمي، يتم  
بوساطة الأقمار الصناعية، التي تحجب الفضاء الخارجي، المحيط  
بالأرض، طوال الوقت تقريبًا، ويمكنها رصد أية بقعة فيه، بدقة  
وضوح عالية، وإرسالها في لحظات إلى حيث يمكن فحصها  
وتحليلها، واستخلاص المعلومات الممكنة منها...

والأمريكيون يبالغون كثيراً، في وصف قدرة أقمارهم  
الصناعية على التصوير الدقيق، حتى أنهم أعلنوا، عقب سقوط  
نظام (صدام حسين) في العراق، أنهم قادرون، مع دقة التصوير  
في أقمارهم الصناعية، على معرفة نوع ولون الملابس الداخلية  
للرئيس، ثم فشلت كل تقنياتهم في العثور على الرئيس نفسه، إلا  
عبر وشایة من أحد المقربين له...

ولكن هذا لا يمنع من أنهم قد دخلوا تطورات كبيرة على  
نظم التصوير والرصد، في أقمارهم الصناعية، بعد الخطأ الذي  
وقعوا فيه، في حرب الخليج الأولى؛ عندما رصدوا منصات  
صواريخ وسيارات مدرعة، في صور أقمارهم الصناعية، وبعد  
أن قاموا بقصفها، بصواريخ تساوي الملايين، كشفوا أنها لم  
تكن سوى هيماكل خشبية، مصنوعة بدقة؛ خداع صور الأقمار  
الصناعية بالتحديد...

فقد أضيفت تقنية التصوير بالأشعة تحت الحمراء، التي تستخدم في رصد الأهداف الليلية، وتقنية أخرى، أشبه بتقنية الرصد بال WAVES فوق الصوتية؛ لتحديد الأهداف، التي تم إخفاؤها أو تمويهها... ولو حاولنا متابعة تقنية التصوير في عالم الجاسوسية الآن، فسنجد أنها قد بلغت حدًا أشبه بالخيال العلمي، حيث يمكن الآن تصوير الأشخاص، الذين يجلسون داخل حجرات مغلقة، إلا لو حصنوا جدران تلك الحجرات بألوان من الرصاص، الذي لا تخترقه الأشعة بأنواعها، أما آلات التصوير نفسها، فقد صارت في حجم رأس الدبوس، ويمكن إخفاؤها في طرف قلم، أو أرقام ساعة يد، أو حتى في أزرار قميص عادي، وانتقلت تقنية التصوير من التصوير الضوئي، إلى التصوير الرقمي، إلى التصوير ثلاثي الأبعاد (الهولوغرام)، والذي يستخدم نوعاً من أشعة الليزر، لرصد الأجسام من كل الزوايا، وعمل صورة مجسمة لها، تظهر كل جوانبها في وضوح... والمتابع لأفلام (جيمس بوند)، منذ نهايات الخمسينيات، سيفاجأ بأن كل التقنيات، التي كانت تبهر المشاهد في ذلك الحين، وتحل محل صورة خرافية عن اجهزة المخابرات، لم تصبح فقط حقيقة تقنية في القرن الحادي والعشرين، بل صارت أيضًا متابعة للمستهلك العادي، وبأسعار في متناول اليد، فالمتابع للتسوق عبر شبكة الانترنت، سيجد أجهزة اتصال دقيقة، في ساعات يد صغيرة الحجم، ومزودة أيضًا بكاميرا رقمية، يمكن استخدامها

لعمل اتصال مرئي شديد الوضوح، وسيجد كاميرات تصوير شديدة الدقة، مخفاة في مناظير شمسية، وأحزنة، ولعب أطفال، وحتى في دبوس صغير، يوضع على الصدر...

كل هذا صار تقنية متاحة للمستهلك العادي، أما في عالم المخبرات والتجسس، فالتقنية تفوق هذا بكثير، إذ صار هناك زجاج عادي المظهر، يمكن استخدامه في منظار طبي عادي، ولكنه يحوي موصلات شديدة الصغر والدقة، تنقل كل ما يراه الجاسوس، إلى مستقبل يجلس في منطقة ليست بالقريبة، بحيث يتحول المنظار الطبي، عادي المظهر إلى جهاز رصد من الدرجة الأولى؛ إذ أن تقنية المنشآت (نانوتكنولوجى)، قد جعلت هذه الأشياء دقيقة للغاية، وربما تصبح ميكروسكوبية أيضاً، في المستقبل القريب، بحيث تتحول تقنية الرصد، في زجاج المنظار الطبي، إلى تقنية أدق، يمكن غرسها في عدسات لاصقة بسيطة... هذا التطور أضاف عبئاً كبيراً على عالم المخبرات، وخاصة على ما يسمى بالشق السلبي منه، والمسؤول عن محاولة منع العدو من الحصول على المعلومات، إذ صار السباق كله يتركز على إخفاء المعلومات السرية، حتى عن الأعين، والبحث عن وسائل تقنية جديدة؛ للكشف عن أجهزة الرصد بالغة الدقة والصغر.... وحرب التكنولوجيا، والتكنولوجيا المضادة، والتكنولوجيا المضادة للتكنولوجيا المضادة، صارت جزءاً أساسياً من عالم المخبرات والجاسوسية، بل وانتقلت حتى إلى الحياة اليومية

المعادة، فهناك أجهزة رادار؛ لرصد السيارات المسرعة، وأجهزة تكشف أجهزة الرادار، فور الدخول في مداها، وأجهزة أخرى تكشف أجهزة كشف الرادار، وهناك أجهزة دقيقة للتنصُّت، وأجهزة للشوشرة على أجهزة التنصُّت، وأجهزة تكشف وجود أجهزة التنصُّت، وتزيل الشوشرة...

وتستمر حرب التقنية... والجاسوس المحترف، في زمننا هذا، لم يعد يحمل كتاباً للشفرة، أو حبراً سرياً، أو ميكروفيلماً، وإنما صار يحمل تقنية شعبية معادة، تحوى داخلها تقنية جاسوسية متطرّفة؛ فهو قد يحمل هاتفاً محمولاً، من طراز عادي، ولكنه يحوي برنامج تشفيـر شديد التطور، بحيث يمكنه أن يرسل عبره أية معلومات، من خلال رسالة نصية عادية، ولكنها تخضع للتشفيـر فور كتابتها، بحيث لا يمكن فهم محتواها، حتى ولو تم تعقبها، إلا من خلال برنامج مماثل، في هاتف المستقبل، وقد يحمل وحدة معلومات صغيرة ( فلاش ميموري)، بريئة المظاهر، ولكن لا يمكن إخراج المعلومات المخزنة عليها، إلا عبر برامج خاصة، أو تحت الأشعة دون الحمراء، أو فوق البنفسجية، كما حدث مع جاسوس تم الإيقاع به في (مصر)، عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير.... والحدث عن تقنية التجسـس يطول، مع ذلك الكم الهائل من التقنيات، التي يتم ابتكارها في كل لحظة؛ لتسهيل عملية التجسـس وجمع المعلومات، والتصوير ليس التقنية الوحيدة، التي يتم تطويرها يومياً، وإنما هناك أيضاً

التقنية الصوتية، و....

لهذا حديث طويل آخر.

\*\*\*

التنصُّت وسيلة شديدة الأهمية والفاعلية، في عالم المحسوسية والمخابرات، ولقد كانت أول وسيلة مستخدمة، لجمع المعلومات، منذ أزمنة الصراع الأولى، إذ كان التنصُّت بالأذن المجردة، على أحاديث الأعداء، هو الوسيلة الوحيدة لكشف أسرارهم، وسبل أغوارهم، وتحديد نواياهم، قبل أن تنتقل الأحاديث إلى الأفعال...

ومنذ قديم الزمان، كان الملوك يصنعون مرات سرية في قصورهم، وفتحات خفية في حجرات الوزراء والمستشارين، وحتى الجواري والمحظيات؛ بهدف التنصُّت على أحاديث الجميع، كجزء من درء مؤامرات القصور، التي لم يخل قصر في التاريخ كله منها...

ولقد استمر استخدام الأذن المجردة، كوسيلة للتنصُّت، لقرون وقرون، مع اختلاف الوسائل وتطورها، ففي قصور الرومان، كانوا يمدون أنابيب خاصة في الجدران، تبدأ من حجرة الامبراطور، وتنتهي بفتحات في معظم جدران حجرات القصر، داخل تجويف في نقوش جدار، أو فوهه أحد تماثيل الحجرات، بحيث لا تكون ظاهرة للأعين، ولكنها تنقل كل الأحاديث، إلى أذن الامبراطور مباشرة...

ولقد تم استخدام الجواسيس أيضاً، للإنصات لما ي قوله الآخرين، والجواسيس في تلك الحالة كانوا من الخدم والعبيد، الذين يتم تجنيدهم، كوسيلة للتنصُّت ونقل المعلومات، وكشف أسرار الآخرين...

ثم تطور الزمن، وصارت هناك وسائل أكثر تقدماً، مع اختراع الراديو، والفنونجراف، والميكروفونات، وبدأ عصر جديد في دنيا التنصُّت، حيث بدأ استخدام الميكروفونات، وأجهزة الفونونجراف؛ لتسجيل الأحاديث، وإعادة سماعها، وتحليل فحواها فيما بعد...

ولكن الميكروفونات كانت كبيرة الحجم، واجهزة الفونونجراف ضخمة، مما كان يستلزم الحفر في الجدران؛ لزرع الميكروفونات، التي يمتد منها سلك كبير، إلى جهاز فونونجراف، يتم وضعه في حجرة مجاورة...

كل هذا كان يضعف من موقف الجاسوس، الذي يحتاج إلى عمل شاق، وأماكن متاحة؛ للقيام بعملية التنصُّت، وتسجيل الأحاديث...

وطوال سنوات، حاول عالم الجاسوسية والمخابرات- كما المعاد- أن يسبق عالم العامة بخطوة أو خطوتين، وبدأت محاولات لابتكار ميكروفونات أصغر حجماً، وأجهزة تسجيل، يمكنها استخدام اسطوانات صغيرة، بدلاً من الاسطوانات العادية كبيرة الحجم، إلا أنه، وعلى الرغم من نجاح تلك

الابتكارات، ظلت الميكروفونات سلكية، يتحتم زرعها في الجدران، وتوصيلها بواسطة الأسلامك، إلى أجهزة التسجيل، التي يتحتم أن تكون قريبة من موضع التنصت نسبياً...

وفي الحرب العالمية الثانية، أمكن ابتكار النموذج الأول من الميكروفونات اللاسلكية، والتي يمكنها بث الإشارة إلى مسافة محدودة، وهذا في عالم الجاسوسية والمخابرات فحسب، إذ لم تتح للعامة في ذلك الحين...

وعلى الرغم من أنها ظلت كبيرة الحجم نسبياً، إلى أن قدرتها على إرسال الأحاديث لاسلكياً، ساعدت على زراعتها أسفل موائد الاجتماعات، أو وضعها تحت أريكة أو فراش، أو حتى أخفائها أسفل أحد مقاعد سيارة، ولكن المدى الفعال لها كان قصيراً، وتحتم وجود أجهزة التسجيل قريبة، مما يعرض الجاسوس ومهمته خطراً بالغ...

ثم تطورت أجهزة التنصت أكثر وأكثر، في فترة السبعينيات، وتم ابتكار أشرطة الكاسيت، في أجهزة المخابرات، قبل طرحها للعامة كالمعتاد، وأصبح حجم الميكروفونات أصغر، وقدرتها على البث أعلى، كما صارت أشرطة الكاسيت المستخدمة في عالم التخابر، صغيرة نسبياً، عن مثيلاتها، في عالم التسجيلات الصوتية...

ولكن حتى هذا لم يرض خبراء عالم الجاسوسية بشكل كاف... وفي أفلام (جييمس بوند)، شاهدناه يتحدث عبر ساعته، أو من خلال زجاجة لوسيون ما بعد الحلقة، أو أي جهاز آخر

صغير، وكانت كلها، في ذلك الحين، أحلاماً، يتمنى خبراء عالم المخابرات تحقيقها، إلى أنه لم يمض وقت طويل، حتى أطلت السبعينات، وأطل معها تطور كبير، في عالم التنفس، إذ صار من الممكن زرع أجهزة نقل الصوت، في قداحات كبيرة، أو مذيع سيارة، أو ساعة حائط، وصار من الممكن أن تبث الأصوات لمسافة ثلاثة متر كاملة، مما منعها - آنذاك - فعالية كبيرة، في مضمار كشف المعلومات... ولكن أجهزة المخابرات المضادة طورت وسائل أخرى، يمكنها كشف أي بث صوتي، ينطلق من مكان يفترض أن يكون سرياً، ومن خلال تلك الأجهزة، يمكنها كشف أجهزة التنفس، والتخلص منها، وهنا قامت الأجهزة الأساسية بإلغاء فكرة البث اللاسلكي، واستخدمت فكرة التسجيل الفوري للأحاديث، خاصة وأن أجهزة التسجيل صارت أصغر حجماً، وأشرطة التسجيل صارت أكثر دقة...  
ومع مطلع التسعينات، كانت أجهزة التنفس قد صارت دقيقة، وصغيرة، نسبة إلى ما كانت عليه، في الحرب العالمية الثانية، إلا أنها مازالت واضحة للعين المجردة، وأكثر وضوحاً للعين الفاحصة الخبرة، وصارت المشكلة ليس في استخدامها، ولكن في إيجاد المكان المناسب لزرعها...  
ومع تطور التكنولوجيا، ابتكرت أجهزة المخابرات ما يعرف باسم (مسدس الميكروفون)، وهو ميكروفون شديد الحساسية، يحيط به قمع من الألياف الصناعية، بحيث يمكن توجيهه إلى

هدف واحد من بعيد، دون أي تداخل من أصوات أخرى، وكان هذا الابتكار ناجحاً، في النصّت على أحاديث أشخاص يقفون وسط مجتمع، أو في مكان عام... .

ولم يكن هذا يكفي بالطبع؛ فمعظم الأسرار الحقيقة، يتم تداوّلها في حجرات مغلقة، أو خلف سواتر، لذا كان من الضروري البحث عن وسائل أكثر تطوراً... .

ومن هنا كان ابتكار ميكروفون الليزر، وهو عبارة عن شعاع، يطلق من جهاز خاص، نحو جدار تدور خلفه أحاديث سرية، فيرتد حاملاً ذبذبات الأصوات داخل الحجرة، ويقوم كمبيوتر خاص بتنقية تلك الأصوات، وإعادة تكوينها، لتحول إلى أصوات مسموعة واضحة... .

ومن أهمّ سمات ميكروفون الليزر، أنه من الممكن استخدامه من مسافات بعيدة للغاية، ومع أبواب وجدران مغلقة بمتنهى الإحكام... .

وفي القرن الحادي والعشرين، ومع تطوير تكنولوجيا المنشآت، صار سمك شعاع الليزر، في ميكروفون الليزر، أصغر بواحد على عشرة آلاف، من سمك شعاع الليزر القديم، مما جعله أكثر قوة ودقة، في نفس الوقت الذي صار من الممكن فيه صنع أجهزة تنّصّت شديدة الفاعلية، في حجم ذرة رمل... .

وسُباق التكنولوجيا لن يتوقف بالطبع، وخاصة في عالم الجاسوسية، الذي طور كل شيء، حتى وسائل القتل نفسها.... .

ولنا حديث آخر، في هذا الشأن.

\* \* \*

الاغتيالات لعبة من ألعاب أجهزة المخابرات، منذ زمن بعيد، وإن اختلف كل جهاز، في كل دولة، في أيديولوجيته الخاصة بهذا الشأن...

فهناك أجهزة مخابرات تراه ضرورة، ووسيلة ناجحة وسريعة؛ لجسم كثير من الأمور، وانهاء المشكلات على نحو حاسم وسريع، وربما لتصفية خصومها ومعارضيها أيضاً، مثل المخابرات السوفيتية السابقة(KGB)، والمخابرات الليبية السابقة، والمخابرات الإيرانية عقب ثورة(ال宸ميني)، والمخابرات الإسرائيلية بالطبع، والتي لا تدحجاً إلى لعبة الاغتيالات فحسب، وإنما تعتبرها جزءاً من قوتها، وعِدَاداً أساسياً لسمعتها وسلطتها، في العالم أجمع...

والمخابرات الفرنسية، في زمن الاحتلال (الجزائر)، مارست أبشع وسائل القتل والاغتيال؛ في محاولة لقمع المقاومة، فقد كانت تلقى خصومها أحياً من الطائرات، على ارتفاع شاهق، أو تدفنهم أحياً، باعتبار أن الموت في حد ذاته لا ينحيف من يقاوم الاحتلال وطنه؛ لذا فلابد وأن تخيفه وسيلة قتل بشعة... والمخابرات الليبية، في زمن (القذافي)، كانت تحاول تقليد المقاومة الفلسطينية في بداياتها، وفرض إرادتها على العالم، من

خلال إرهابه وترويعه، ولم تتردد في صنع كوارث رهيبة، فقط لكي تتخلص من خصم واحد أو خصمين، وكذلك فعلت المخابرات الإيرانية، مع حماس واندفاع سنوات الثورة الأولى، وكوسيلة ليتقم (الخميني) من كل من آذوه في حياته...

أما المخابرات السوفيتية والإسرائيلية، فهما تستحقان دراسة شاملة في هذا الشأن بحق...

فعقب الثورة البلشفية، في أكتوبر ١٩١٧ م، بدأ البلاشفة في بسط نفوذهم على البلاد بالقوة، وبأساليب تتعارض تماماً مع ما خرج الشعب ليثور من أجله، ولكي تفرض هذا النفوذ، على شعب ثائر منفلت، أسقط البلاشفة كل قواعد الحرية والديمقراطية والعدالة، واستخدموا كل نظم القهر والقمع والترويع... ومع شعب ثار من أجل الحرية، لم يكن هذا سهلاً، لذا فقد بحثوا البلاشفة إلى اعتقال كل المعارضين لتفكيرهم ونظمهم، وكل من يخالف رأياً واحداً من أراءهم، أو حتى يبني اعترافاً عليه، وبدأت القطارات في نقل الآلاف، من شتى أنحاء (روسيا)، إلى (سيبيريا)، حيث الصقيع القارص، الذي تنخفض درجات الحرارة فيه، في فصل الشتاء، إلى ما يقارب الأربعين درجة تحت الصفر...

ولكن كل وسائل القمع والإرهاب والترويع، لم تستطع منع المعارضين من الفرار إلى (أوروبا)، بحثاً عن الحرية، وسعياً إلى تقليل العالم على النظام الشيوعي الجديد...

ولم يرض البلاشفة بهذا، فقد صوّر لهم تعنتهم، أن فرار معارض واحد منهم، يعني فشلهم في فرض إرادتهم ومن هنا بدأت لعبه الاغتيالات الخارجية...

لم تكن الاغتيالات الداخلية مشكلة بالنسبة إليهم، إذ كان أي ضابط، يتبع النظام البلشيفي، يمتلك السلطة والصلاحية، لإطلاق النار على رأس أي معارض يقع في قبضته، في وضح النهار، ووسط شارع مزدحم، دون أن يجرؤ مواطن واحد على الاعتراض؛ حتى لا يلقى المصير نفسه...

أما الاغتيالات الخارجية، فأمرها مختلف؛ إذ أنها تتم في دول أخرى، لا يمكنك أن تمارس فيها هذه الوحشية الواقحة، دون أن تنالك يد القانون...

وهذا بدأ ابتكار وسائل القتل والاغتيال الخفية...

في البداية، كانت اللعبة كلها تدور حول ما عرف باسم (مسدس الرصاصية الواحدة)، وهو وسيلة خفية، تتخذ من الخارج شكل قدّاحة بسيطة، أو إصبع طلاء شفاه، أو يد حقيقة جلدية، ولكنها تحوي داخلها رصاصية واحدة، تتناسب مع حجمها الصغير، مع زناد مخفي في قاعدة إصبع طلاء الشفاه، أو مشعل القدّاحة، أو مقبض الحقيقة الجلدية، وتكتفي ضغطة واحدة على ذلك الزناد؛ لتنطلق الرصاصية نحو الهدف، وتصيبه في مقتل، من مسافة قريبة...

ولقد حققت تلك التقنية نجاحاً كبيراً، لفترة طويلة من

الزمن، تم خلاها تصفية عدد كبير من المعارضين، قبل أن تكشف اللعبة، وتصبح غير قابلة للتكرار، وهنا انتقل خبراء الاغتيالات، في المخابرات الروسية، إلى السم، كوسيلة للخلاص من المنشقين، وبدأوا في ابتكار أنواع وتركيبات شديدة التعقيد من السموم، بحيث يصعب إيجاد طريق مناسب لها، قبل فوات الأوان، ولأن اللعبة الكيميائية لم تكن معضلة كبيرة، فقد بقيت مشكلة التقنية الازمة، لدس السم للمنشق، دون أن يتتبه إلى هذا... في البداية كانت اللعبة تعتمد على إغواء المنشق، بوساطة عميلة بالغة الحسن، تدفعه إلى محاولة التقرب منها، ودعوتها إلى كأس من الشراب، وفي لحظة هيام، تضغط العميلة زرًا خفيًا في خاتمتها، فتنفتح فجوة صغيرة فيه، لتصب السم المخزن داخله، في كأس المنشق...

وبعدها تم ابتكار كرة صغيرة شفافة، تحوي أربعة أنواع من السموم، في تجاويف دقيقة، يتم إلقاءها في كأس المنشق، فتنتشر السموم الأربع في شرابه، في سرعة كبيرة، ثم تذوب الكرة نفسها فيها بعد، خلال ثوان قليلة...

والأهداف من وجود أربعة أنواع مختلفة من السموم، كان لظهور أعراض غير نمطية على المنشق، تمنع تشخيص حالته، ومنحه العلاج المناسب، منها كانت مهارة وحنكة من حوله... ولقد برع السوفييت في لعبة مزج السموم هذه، واستعانوا فيها بكل ما أمكنهم الحصول عليه، من سموم صينية، وهندية،

ويمنية، وبنغالية، بالإضافة إلى سموم تخليقية، صنعواها في معاملهم، من مزج بعض العقاقير الضارة ببعضها البعض؛ لضمان تأثيرات جديدة باللغة السرعة...

والسوفييت أيضاً هم من اخترعوا مسدس السم، وهو أشبه بمسدس الطلقة الواحدة، ولكنه يحوى إبرة رفيعة، مغمومة في سم قوى فعال، يكفي أن تنطلق، فتصيب أي جزء من جسد الضحية، فيسرى السم في عروقه على الفور، ويلقى مصرعه في لحظات، وهم أيضاً من اخترعوا مظلة السم، التي اغتالوا بها أحد كبار المنشقين، في وضح النهار، في أكبر ميادين (لندن)، إذ كانت قاعدتها أشبه بسن محقق رفيع، وفي مقبضها زناد خاص، ما أن يغرس حاملها ذلك السن، في أي جزء من جسد المنشق، حتى يضغط الزناد الخفي في مقبضها، فتنطلق، عبر فتحة السن الدقيقة، كرة ميكروس코بية، تحوى عدة فجوات، في كل منها سم الخردل، وتستقر في جسد المنشق، ثم تبدأ في بث السم داخله، في بطء وانتظام، حتى يسقط فجأة، ويختار الكل في تشخيص حالته، ويلقى مصرعه، قبل معرفة سبب وفاته...

هذا مثال لوسائل وتقنيات القتل والاغتيال، في عالم المخابرات السوفياتية، أما المخابرات الإسرائيلية، فلها حديث آخر... طويل.

\* \* \*

المخابرات الإسرائيلية بفرعيها (الموساد) و(أمان)، لها تاريخ

طويل في لعبة الاغتيالات، والتي صارت أحد أبرز سماتها، وسر سمعتها، التي تحرص على تقويتها، وتأكيدها، ربما لإرهاب كل معارضيها، في كل مكان في العالم، فالإسرائيليون، ومنذ زمن (تيدور هرتزل)، مؤسس الحركة الصهيونية، يؤمنون بمبدأ فتح الطريق، أمام طموحاتهم وتفوقهم، بأي ثمن كان، بما في ذلك الجنس، والرشوة، والتهديد والوعيد، ووصولاً إلى الاغتيالات، لو لزم الأمر...

والاغتيالات في شريعة المخابرات الإسرائيلية، ليست لتحقيق الأهداف فحسب، ولكنها للانتقام أيضاً، وفقاً لما أسماه سياسة دفع الثمن، وهم لا يقتلون بمبدأ العين بالعين والسن بالسن، وإنما يقول مبدأهم أنك لو مسست سنًا من أسنانهم، حطموا فمك كله، أما لو اقتلعت عينهم، فهم يقتلون رأسك كله، وهذا الذي تفكّر ألف مرة، قبل أن تمس سنًا من أسنانهم... ولقد نفذ الإسرائيليون مبدأهم هذا، عقب عملية (ميونخ)، والتي قتل فيها الفريق الأولمببي الإسرائيلي كله، إذ قرر (الموساد) تعقب كل مخطط ومنفذ العملية وأسرهم، والقضاء عليهم عن بكرة أبيهم... ولقد استغرقهم الأمر سنوات، نفذوا فيها عمليات اغتيال وحشية، في أماكن مختلفة من العالم، وعلى نحو سافر، أثبتوا به نزعتهم الانتقامية، وأساليبهم الوحشية، وتجاهلهم لكل القوانين والأعراف الدولية، وموصلين رسالة إلى العالم أجمع تقول باختصار: «احذرونا»...

وعندما بدأ (العراق) مشروعه النووي، شعر الإسرائييليون بخطر امتلاك دولة عربية قرية لسلاح نووي، فأطلقوا مخابراتهم لتعقب كل من وراء المشروع، ووقع اختيارهم على العالم المصري (يحيى المشد)، الذي يتولى أمر أول مفاعل نووي عراقي (أوسراك)، والذي تم إيفاده إلى (فرنسا)، من قبل الحكومة العراقية، للتعاقد بشأن بعض الأجهزة المطلوبة، لإنشاء وتشغيل المفاعل ...

المشكلة أن العراقيين لم يولوا الأمر الاهتمام نفسه، الذي أولاه إياه الإسرائييليون، فلم يسعوا لتوفير الحماية والحراسة الكافية للعالم المصري، واكتفوا برجل أمن واحد، والأسوأ أن القواعد البيروقراطية لم تسمح له بالإقامة في الجناح المجاور للعالم المصري؛ نظراً لصغر رتبته، والاعتمادات المالية الخاصة بمهمته... وهناك روايات عديدة، تروى عن كيفية الوصول إلى جناح (يحيى المشد) وأغتياله، ولكن جثته تم العثور عليها مذبوحة، داخل جناحه الخاص، ولكي يتم اغتياله معنوياً، وإغلاق الملف في سرعة، تم ترك بضعة أشياء نسائية في جناحه؛ للإيحاء بأن مقتاله هو أحد القوادين، بعد أن اصطحب عاهرة محترفة إلى حجرته، إلا أن نشأة (يحيى المشد) وتاريخه، كانا يتعارضان مع هذا في شدة، كما أنه من غير المنطقي، أن يتولى عالم معروف مهمة بهذه الخطورة، ثم يتورط في اصطحاب عاهرة إلى جناحه الخاص، في فندق شهير، أضعف إلى هذا أن الدافع لاغتياله كان يتوافر لدى (الموساد)، بأكثر مما يتوافر لدى قوّاد عادي، كل

ما يعنيه هو الفوز ببضعة فرنكات...

وحتى يومنا هذا، لم يعترف (الموساد)، أو تعرف أية جهة إسرائيلية رسمية، بعملية اغتيال (يحيى المشد)، وكالمعتاد في أعمال المخابرات، لم تنجح أية جهة، في إثبات تورط (الموساد) في عملية الاغتيال، من قريب أو بعيد، وبقيت حقيقة اغتيال عالم مصرى، يشارك في مشروع بناء المفاعل资料 Iraqi، الذي قام الإسرائيلىون بقصصه بطارياتهم بالفعل؛ لمنع أية دولة عربية من تطوير أو إنتاج سلاح نووى...

ولقد تكرر الأمر مع عالم مصرى آخر، عمل على تطوير موجات الميكروويف، في قدرتها على التعامل مع أقمار التجسس الصناعية، بحيث تمنعها من التقاط أية صور للمنشآت الحيوية، بل ويمكنها أن تسحب منها كل ما التققطه من صور، وهو العالم المصرى (سعيد سيد بدير)، ابن الفنان الراحل (سيد بدير)، والذي تم العثور عليه قتيلًا، وقيل أنه قد حاول الانتحار بالغاز، ثم طعن نفسه، قبل أن يقفز من النافذة، مما يجعلك تستعيد مشهدًا من أحد الأفلام الكوميدية، عندما اتهم شخص بطعن غريمه في الخمام، فدافع محاميه بأن أرضية الخمام كانت زلقة، فسقط الرجل فوق خنجره، ولقي مصرعه، وعندما اعترض المدعى العام بأن الرجل قتل بخمس طعنات، أسرع المحامي يجيب بأن الأرضية كانت زلقة للغاية... المشهد في الفيلم كان هزليةً تمامًا، ولكن تبرير مقتل (سعيد بدير) كان أكثر هزلية...

والمخابرات الإسرائيلية تعتمد، في تخطيط وتنفيذ عمليات الاغتيالات، على ثلاثة أمور رئيسية... النساء، والخيانة، والتكنولوجيا... ولديها معرفة كافية بكيفية اختيار المرأة، القادرة على الإيقاع بأي شخص؛ فهم يمررون أمامه عدداً من النساء، ويتبعون اهتماماته ب أجسادهن، ثم يختارون، من بين نساء (الموساد)، من توافق في تكوينها الجسدي مع اهتماماته، ويضعونها في طريقه؛ لتوحد إلية، وتجذبها إلى حيث ترید، ثم تقضي عليه بدم بارد..

أما الخيانة، فهي اللعبة الأساسية، التي ترشدهم إلى الهدف المراد اغتياله، أو تؤمن لهم سبل الوصول إليه، كما حدث في عملية اغتيال الشيخ (ياسين)، حيث دسّ أحدهم قطعة مغناطيسية إلكترونية في مقعده، ثم جاء دور التكنولوجيا، حيث أطلق الإسرائيليون صاروخاً، تجذبه تلك القطعة المغناطيسية الإلكترونية نحو الهدف، وذلك الصاروخ مزود بجهاز خاص، يجعله يتفادى كل ما يعترض طريقه، فيدور من حوله، أو يرتفع فوقه، ويواصل طريقه، حتى يبلغ هدفه، وهناك فقط ينفجر؛ ليؤدي عملية الاغتيال في نجاح...

وتلك التكنولوجيا موجودة لدى العديد من البلاد، بما فيها (مصر)، ولكن استخدام لعبة الاغتيالات في عالم الحاسوبية والاستخبارات أيديولوجية تعنى بها أجهزة مخابرات عينها؛ تميل إلى تصفية كل من يسبب لها الإزعاج من خصومها، أو تدميره

معنوياً على الأقل، باعتبار أنه في بعض الأحيان، يكون الاغتيال المعنوي أكثر تأثيراً من الاغتيال الجسدي، كما حدث في قضية (بيل كليتون)، و(مونيكا لوبنسكي)، فما إن بدأ (كليتون) في تجاهل الرغبات الإسرائيلية، حتى تم توريشه في القضية، التي حيكت في براعة، لا تتفق مع عقلية فتاة عادمة؛ إذ تم الانتظار، حتى أنكر (كليتون) تلك العلاقة، بينه وبين (مونيكا)، متدرية البيت الأبيض، ثم تبرز هذه الأخيرة ثوبها الأزرق، الذي يحمل الأحمض النووي للرئيس الأمريكي، فتصبح اللعبة محبوبة... هكذا تعمل المخابرات الإسرائيلية، التي يصعب إثبات تورطها بالأدلة المادية، وهذا لا يخرج المخابرات الأمريكية نفسها من لعبة الاغتيالات... وهذا قصة أخرى.

\* \* \*



## (١١)

المخابرات الأمريكية، على الرغم من شهرتها، ليست مخابرات عريقة، مثل المخابرات البريطانية أو الروسية، وإنما، وحتى الحرب العالمية الثانية، لم يكن هناك جهاز مخابرات أمريكي بالمعنى المعروف الآن، بل كان هناك فقط مكتب الخدمات الاستراتيجية، وتطور فيها بعد إلى جهاز مخابرات استراتيجية محدود، ولقد انبهر الأمريكيون بقوة ومهارة جهاز المخابرات البريطاني، الذي خطط ونفذ عدة عمليات ناجحة، خلال الحرب العالمية الثانية، كان لها الكثير من الفضل، في انتصار الحلفاء في الحرب، وانبهروا أكثر بعملية مخابرات من النوع ذي النفس الطويل، قام بها جهاز المخابرات البريطاني؛ لدفع (أمريكا) إلى خوض الحرب، في مواجهة دول المحور، على الرغم من أن تلك العملية قد تسبّبت في تلك الضربة الموجعة، التي سدّدها الطيران الياباني لبناء (بيرل هاربور) الأمريكي، والتي كانت سبباً رئيسياً في دخول (أمريكا) الحرب ضمن الحلفاء...

ففي بدايات الحرب، رفضت (أمريكا) بشدة التورّط فيها، واعتبرتها شأنًا أوروبيًا بحتًا، حتى عندما بدأ (هتلر) يمد قواته إلى دول (آسيا) وأفريقيا)، ومع توالي الخسائر على الجانب

البريطاني، أدرك (ترشل) رئيس وزراء (بريطانيا) آنذاك، أن الأمل الوحيد في ربح الحرب، مع الانتصارات المتواصلة للجيش النازي، هي في دخول (أمريكا) ميدان المعركة وساحة القتال، ليس بما تورّده للجانب البريطاني من السلاح فحسب، ولكن بقواتها كاملة...

وهنا، ولدفع (أمريكا) إلى دخول حرب، ترى أنها بعيدة عن أراضيها، كان السبيل الوحيد هو أن تصلك الحرب إلى الأراضي الأمريكية مباشرة...

ومن هذا المنطلق، بدأت أغرب عملية تجسس، بين الحلفاء بعضهم وبعض...

في البداية سرّب رجال المخابرات البريطانية إحدى شفراتهم الجديدة إلى اليابانيين، عبر أحد جواسيسهم، والذي تم كشفه، دون إلقاء القبض عليه؛ لاستغلاله في توصيل ما يريدون من معلومات إلى العدو، ثم، وعبر تلك الشفرة، بدأت المخابرات البريطانية في تبادل الرسائل مع قطع من أسطوتها، والتي تقع في مجال، يمكن لأجهزة اللاسلكي اليابانية رصده واعتراضه، وبدأ اليابانيون في التقاط تلك الرسائل، وفك رموزها، وهم يتصرّرون أن البريطانيين يجهلون حصولهم على تلك الشفرة، التي يتم تبادل الرسائل بها... ولكي تنجح اللعبة، كانت مجموعة الرسائل، التي تم تبادلها في البداية، تحمل معلومات صحيحة، سمحت لليابانيين بتحقيق انتصارات محدودة ومحسوبة، ثم جاء

## دور اللعبة الأساسية...

مجموعة من الرسائل، تم تبادلها، بواسطة الشفرة نفسها، تتحدث عن عزم الأسطول الأمريكي توجيه ضربة عنيفة للأسطول الياباني، بالقرب من سواحل اليابان، ولم ينس البريطانيون تأكيد رفضهم المشاركة في تلك الضربة المزعومة القادمة...

ولما كانت تلك معلومة شديدة الخطورة، بالنسبة لليابانيين، وجاءت من مصدر يتصورون أنهم يسيطرون عليه مائة في المائة، فقد بدأوا على الفور في وضع خطة لمواجهة هذا، وكان من الطبيعي أن تعتمد خطتهم على توجيه ضربة وقائية للأسطول الأمريكي في (بيرل هاربور)، في نفس الوقت الذي لم يكن الأمريكيون يدركون فيه ما يدور خلف ظهورهم، من حلفائهم قبل أعدائهم...

وبناءً على أوامر المخابرات اليابانية، نشط جواسيسها، لجمع كل المعلومات عن الأسطول الأمريكي في (بيرل هاربور)، ورصدوا قطع الأسطول، ومواقعها، ولكن ما اخطأوا فيه هو أنهم تصوّروا أن ما يدور على سطح سفن الأسطول الأمريكي هو استعداد للحرب، في حين لم يكن في الواقع سوى أعمال صيانة وتجهيزات معتادة، للأسطول الذي كان يعاني من نوع من الإهمال البيروقراطي؛ نظراً للاستبعاد التام لفكرة انتقال الحرب عبر المحيط، من (أوروبا) إلى (أمريكا)...

وفي السابع من ديسمبر عام ١٩٤١م، شن اليابانيون ما

أطلقوا عليه اسم الخطة (زد) أو (Z)، على الأسطول الأمريكي الغافل في (بيرل هاربور)، وكان هجوماً مباغتاً، حتى أن الأمريكيين لم يستطيعوا صده أو مقاومته، إلا بأقل القليل، وللتدليل على نجاحه، يكفي أن نعلم أنه قد تسبب في إغراق أربع بوارج أمريكية، وتدمر أربعة أخرى، بالإضافة إلى تدمير ثلاث طرادات، وثلاث مدمرات، وزارعة الغام البحرية، إلى جانب مائة وثمانية وثمانين طائرة حربية، تم تدميرها على مهابط الطائرات، وقبل أن تنجح في الإقلاع وصد الهجوم، إلا فيما ندر...

ولقد راح ضحية هذا الهجوم ٢٤٠٢ قتيل، و١٢٨٢ جريحاً ومصاباً، في حين لم يخسر اليابانيون سوى ٢٩ طائرة، وأربع غواصات قزمة، و٦٥ جندياً فحسب...

ولم يدرك الأمريكيون خطة المخابرات البريطانية في حينها، وإنما نجحت الخطة تماماً، في دفع (أمريكا) لإعلان الحرب، وخوضها بكل قواتها وعتادها وعدتها...

لم يدرك الأمريكيون هذا إلا بعد سنوات من الحرب، ولم تنشر التفاصيل إلا مع نشر الوثائق البريطانية، بعد نصف قرن من انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولكنهم حؤلوا مكتب الخدمات الاستراتيجية، والذي نشأ بأمر الرئيس الأمريكي الأسبق (هاري ترومان)، إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، بقرار من الرئيس (فرانكلين روزفلت)، تحت ضغط المخابرات العسكرية، ومكتب المباحث الفيدرالية، كوسيلة لمواكبة أجهزة

التّجسُّس و مقاومة التّجسُّس، و جمع المَعْلُومات العسكريّة والاقتصاديّة والمدنية، والتي أثبتت نجاحاتها الكبيرة، في الحرب العالميّة الثانية...

و على الرّغم من أنَّ (آلان دالاس) هو أول من أسس الجاسوسية الأميركيّة، إلا أنَّ الرئيس (ترومان) قام بإبعاده عن هذا العمل، نتيجة لبعض الأخطاء في البداية، ليحل محله الجنرال (والتر سميث)، إلا أنَّ خبرة (دالاس) الكبيرة في هذا المضمار، و عبقريته في التعامل معه، جعلا الرئيس (إيزنهاور) يعيده إلى منصبه، مع توليه الرّياضيّة، حيث جاء مدعوماً من شقيقه (جون فوستر دالاس)، وزير الخارجية الأميركي آنذاك، ولكن عقب أزمة ما عرف باسم (خليج الخنازير)، والتي نشبت بين الأميركيين والsovietis؛ بسبب محاولة الأميركيين غزو (كوبا)، قام الرئيس (جون ف كيندي)، بتنحية (آلان دالاس) من منصبه في رئاسة وكالة المخابرات الأميركيّة، وعيّن بدلاً منه الجنرال (جون مكين)، عام ١٩٦٣م، و...  
ما زال الحديث عن المخابرات الأميركيّة مستمراً.

\* \* \*

الشهرة الأسطوريّة للمخابرات الأميركيّة، هي في واقعها شهرة دعائيّة وسينائيّة، بأكثر منها حقيقة، تماماً كالبطولات الأميركيّة الخارقة، التي تبهر المشاهدين، على شاشة السينما، ثم لا نراها فعليّاً على أرض الواقع...

فسواء المقاتل، أو رجل المخابرات الأمريكي، يستند على قوة السلاح، وتطور التكنولوجيا، بأكثر مما يستند إلى كفاءة وقوة الأفراد؛ فالنظام الأمريكي في مجمله يعتمد على تفوقه العلمي، سواء في التسليح، وابتكار أسلحة الدمار والدمار الشامل، بأكثر مما يستند إلى الأمريكيين أنفسهم...

والمخابرات الأمريكية، على الرغم من أنها تتبع الرئيس الأمريكي مباشرة، إلا أنها لا تتوّرّع عن خداع الرئيس نفسه، أو حتى اغتياله لو لزم الأمر؛ للحفاظ على قوتها وتفوّقها... وفي عالم المخابرات الأمريكية، لا توجد حدود أو قواعد، باستثناء قاعدة واحدة، تشارك معها فيها المخابرات الإسرائيلية، وهي أن تنتصر دوماً... وبأي ثمن...

وحتى عندما كانت في مهدّها الأوّل، كمكتب للخدمات الاستراتيجية، في عهد الرئيس (هاري ترومان)، ومع أبحاث القنبلة الذريّة، كان هناك سباق عنيف، بين (المانيا) و(أمريكا)، في محاولة لكلّ منها، للتّوصل إلى إنتاج أوّل قنبلة ذرية قبل الآخر؛ إذ أنّ العلماء الألمان هم أوّل من وضعوا فكرة القنبلة الذريّة، ولكن نظام الحكم القمعي النازي دفعهم إلى الفرار من (المانيا)، ومن (أوروبا) كلّها، واللجوء إلى (أمريكا)، التي عرضوا عليها خدماتهم في هذا المضمار؛ ولأنّ الفكرة كانت تعنى إنتاج سلاح جبار، يستطيع من يمتلكه السيطرة على العالم أجمع، فقد أولت

(أمريكا) الأمر اهتماماً بالغاً، وحولته إلى مشروع عسكري بالغ الأهمية، وعيّنت جنرالاً كبيراً للإشراف عليه... .

والطريف أن مشروع إنتاج أول قنبلة ذرية كاد يفشل، بسبب التفكير العسكري لذلك الجنرال، الذي كان يتقدّم المشروع بنظرة عسكرية، عندما فوجئ بقاعة كبيرة، بها عدد من أصحاب المعاطف البيضاء، يجلسون في استرخاء، لتناول الشاي والقهوة، وتبادل الحوارات والأحاديث، وكل حين وآخر، ينهض أحدهم إلى لوح أسود كبير، فيدّون عليه بعض المعادلات، أو يعدّل أو يضيف حرفاً أو رقمًا، إلى معادلة هنا أو هناك، فغضب بشدة، ووصف مجموعة أصحاب المعاطف البيضاء هؤلاء بالكسالي، الذين لا يقدمون ما يساوي رواتبهم، وكاد يصدر قراراً عسكرياً بإيقافهم عن العمل، لولا أن سارع من حوله بإخباره أن هؤلاء الكسالي هم مجموعة العلماء، التي تقوم بالعمل كلها فعلياً، أمام الباقيين، والذين يعملون بجهد ودأب، هم مجرّد منفذين لتعليمات هؤلاء فحسب... .

ولا أحد يدرى كيف كان من الممكن أن تتطور الأمور، لو أنه أوقف علماء الطاقة الذرية بالفعل عن عملهم حينذاك؟!... المهم أن مكتب الخدمات الاستراتيجية قد نجح في الحفاظ على سرية المشروع، حتى تم إنتاج قنبلتين ذريتين بالفعل، واحدة تعتمد على الانشطار النووي، والأخرى على الاندماج النووي... . وعندما جاء (هاري ترومان) إلى السلطة، في الثاني عشر من

أبريل، عام ١٩٤٥ م، خلفاً للرئيس (فرانكلين روزفلت)، خشى رجال مكتب الخدمات الاستراتيجية من طبيعة الرئيس الجديد، الذي وإن اعتمد خلفيته على الخدمة العسكرية كضابط مدفعية، إلا أنه كان رقيق المشاعر، إلى الحد الذي يخشوا فيه من عدم تجربة سلاحهم النووي، الذي يفترض منه أن يضعهم على قمة العالم، لذا فقد أخفوا عنه تماماً مشروع القنبلة الذرية، حتى أجروا أول تفجير اختباري لها، في السادس عشر من يوليو، في العام نفسه، في صحراء (ألاموجوردو)، في ولاية (نيومكسيكو)، وأطلقوا على تلك التجربة الاختبارية اسم (القنبلة أ)، (A-Bomb)، وأثبتت التجربة نجاحها الفائق، ونجاح مشروع (مانهاتن)، وهو الاسم الذي أطلقوه على مشروع إنتاج القنبلة الذرية...

المشكلة التي بقيت أمامهم هو ان (المانيا) قد سقطت بالفعل، ولم يكن هناك أي مبرّر لاستخدامها هناك، ثم أن نتائج التفجير الاختباري كانت تعنى أن الدمار سيكون شاملاً، حتى أنه سيتحتم سحب القوات المتحالفه تماماً، قبل تفجير القنبلة، و(اليابان)، وإن كانت مستمرة في المقاومة، إلا أن المراقبين كلهم أجمعوا على أن سقوطها وشيك...

وفي الوقت ذاته، رأى رجال مكتب الخدمات الاستراتيجية، أنه من غير المنطقي ابتكار سلاح هائل مخيف كهذا، دون أن يدرك العالم قوته وتأثيره، لذا فقد فاتحوا الرئيس (ترومان) في الأمر، وطلبو منه إصدار أوامره باستخدام القنبلة الذرية، على

مدينة (هيروشيماء) اليابانية ...

ولقد أصيّب (ترومان) بالفزع؛ لوجود سلاح جبار كهذا، وأخبر القادة العسكريين، ورجال مكتب الخدمات الاستراتيجي، أنه لا يجد أي مبرر لاستخدامها؛ باعتبار أن الحرب قد أوشكت على الانتهاء بالفعل، ولا يوجد سبب لارتكاب أكبر مجزرة في التاريخ، ولكنه فوجئ بمعارضة الجميع، قبل أن يجسم مدير مكتب الخدمات الاستراتيجي الأمر بقوله: "ما فائدة أن تمتلك سلاحاً جباراً، دون أن يدرك العالم هذا" ...

وهكذا، وعلى مضض، أصدر (ترومان) الأمر بإلقاء القنبلة الذرية الأولى على (هيروشيماء) ...

وفي السادس من أغسطس، عام ١٩٤٥ م، تم إسقاط أول قنبلة ذرية، على مدينة (هيروشيماء) اليابانية ... وكانت النتيجة رهيبة ...

آلاف القتلى لقوا حتفهم لحظياً، ودمار شامل أصاب المدينة اليابانية الكبيرة، من أقصاها إلى أقصاها ...

وعندما بلغ الأمر (ترومان)، أخفى وجهه بين كفيه، وقال متتحجاً: «لقد صرت أكبر سفاح عرفه التاريخ» ...

في نفس الوقت، لم يكن اليابانيون قد فهموا أو استوعبوا بعد ما حدث، ولا كيف زالت مدينة كبيرة من مدنهم في لحظة واحدة، وكيف أصابها كل هذا الدمار، في غفلة من الزمن، وراح خبراؤهم يسعون لتحليل وفهم ما حدث، على ضوء كل ما

كان معروفاً آنذاك؛ فاقتصر بعضهم أن الحلفاء قد أرسلوا آلاف الطائرات، في غارة جوية شاملة، وأنها قد ألقت كل حمولتها من القنابل دفعة واحدة، وفي توقيت واحد، محدثه ذلك الدمار الشامل، واقتصر البعض الآخر أن الطائرات ألقت حمولة هائلة من مسحوق المغنيسيوم، الذي تم إشعاله بقنبلة واحدة، وبينما يضربون أخماساً في أسداس، أعلن الأميركيون أنهم قد أتوا على (هيروشيما) قنبلة جديدة واحدة...

ولم يصب اليابانيون وحدهم بالذعر، بل أصيب به العالم أجمع، من هول ما جاء في الإعلان الأميركي...

كان (ترومان) يتصور حينذاك أنه قد انتهى من أسوأ قرار اتخذه في عمره كله، إلا أن القادة العسكريين، ورجال مكتب الخدمات الاستراتيجية فاجأوه بأنه ما زال هناك ما هو أسوأ... بكثير...

ومازال للحديث بقية.

\* \* \*

بعد أن ألقي الأميركيون قنبلتهم الذرية الأولى، والتي محت مدينة (هيروشيما) اليابانية من الوجود بضربة واحدة، في السادس من أغسطس ١٩٤٥ م، فوجئ الرئيس (هاري ترومان) بالقادة العسكريين، وكبار رجال مكتب الخدمات الاستراتيجية، يطالبونه بإصدار أمر آخر، بإلقاء قنبلة ذرية ثانية، على مدينة (ناجازاكى) اليابانية أيضاً، والتي تقارب مساحتها

وعدد سكانها، مدينة (هيروشيماء)...

ولقد غضب (ترومان) من الاقتراح في شدة، وواجههم بأنه لا يوجد أي مبرر على الإطلاق؛ للقيام بمذبحة ثانية، خاصة وأن اليابانيين سيصابون بالذعر من القنبلة الأولى، وسيستسلمون حتى، خلال فترة قصيرة، وتضع الحرب أوزارها، ولكنهم أخبروه في حزم، أنه توجد مبررات أكيدة لإلقاء القنبلة الثانية، والتي أخفى عنه مكتب الخدمات الاستراتيجية أمرها، حتى وهو يأمر بإلقاء القنبلة الأولى؛ فالقنبلتان كانتا تعتمدان على نظامين نوويين مختلفين تماماً...

الأولى كانت تطلق طاقتها الجبارية عن طريق الانشطار النووي، والثانية تطلقها عبر الاندماج النووي، والكل كان يريد اختبار تأثير كل منها في ساحة المعركة، والمقارنة بين تأثير الانفجار الانشطاري، والانفجار الاندماجي النووي، ولهذا وقع الاختيار منذ البداية على مدینتين، تتقاربان من حيث المساحة وعدد السكان؛ حتى تكون المقارنة أكثر دقة...

وكاد (ترومان) يبكي وهو يستمع إلى تحليلاتهم وتفسيراتهم، إلا أنه لم يملك، وتحت ضغط الفريقين، إلا أن يصدر الأمر، وقد فقد كل ثقة له بمكتب الخدمات الاستراتيجي، الذي يحجب عنه المعلومات وقتها يشاء، ويطرحها عليه فقط عندما يشاء...

وفي التاسع من أغسطس، أي بعد ثلاثة أيام فحسب، من إلقاء القنبلة الأولى، أسقطت القنبلة الذرية الثانية، والتي

أطلق عليها الأميركيون اسم (الولد السمين) (Fat Boy)، على عكس الأولى، والتي أطلقوا عليها اسم (الولد الصغير) ... (Small Boy)

اسقطت القنبلة على مدينة (ناجازاكي) اليابانية، في تمام الساعة الثامنة والربع، ومحيت على إثرها المدينة تماماً، في الثامنة وواحد وعشرين دقيقة...

ولقد أسرف إلقاء القنبلتين عن مصرع أكثر من مائتي ألف شخص لحظياً، ودون أن يدرك أي من مخترعيها تلك التأثيرات الإشعاعية التي ستختلفها، والتي راح ضحيتها عدد مماثل، خلال السنوات العشر التي تلت ذلك...

وحقق العسكريون ومدراء مكتب الخدمات الاستراتيجي ما كانوا ينشدونه؛ فلقد استسلمت (اليابان) فوراً، دون قيد أو شرط، مع تعهدها بإقامة دولة ديمقراطية، وإلغاء قدسيّة الامبراطور، والتعهُّد بأن يظل تسليحها محدوداً، وألا تحاول بناء مفاعلات نووية، أو انتاج قنابل ذرية... وفي الوقت ذاته بلغت الرسالة كل دول العالم، التي صارت تدرك أن الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك سلاحاً جباراً، قادراً على محو مدن بأكملها من الوجود، في لحظات معدودة...

وكان أكثر من بلغته الرسالة، وأقلقته، وأفزعته، وأغاظته أيضاً، الاتحاد السوفيتي، الذي بدأت هزيمة الرايخ الثالث من أرضه، عندما دحر الهجوم الألماني، بعد خطأ (هتلر) المميت،

بوقف القتال على مشارف (موسكو)، وإجبار قواته على قضاء شتاء مفترس وسط الجليد، مما منح السوفيت فرصة إعادة تنظيم قواتهم، وشن هجوم شامل على القوات النازية، ودحرها، وإجبارها على الانسحاب، وهي تطاردها في شراسة، حتى دخلت (برلين)...

فبعد أن كان الاتحاد السوفيتي يرى نفسه كبطل قوي منتصر، فوجئ بأن الأمريكيين يمتلكون سلاحًا جبارًا، يعجز عن مقاومته ومواجهته، وأنهم لو أرادوا، يستطيعون محو (موسكو) من الوجود بضربة واحدة...

وعلى الرغم من أنهم كانوا حلفاء في الحرب العالمية الثانية، إلا أن (جوزيف ستالين)، ديكاتور (روسيا)، كان يدرك أنه ما إن تستقر الأمور، حتى يبرز العداء التقليدي، بين الشيوعية والرأسمالية مرة أخرى، ويعود الصراع إلى الوجود، في الوقت الذي صارت فيه (أمريكا) الدولة، التي تملك أقوى سلاح في العالم...

لذا فقد كان أول ما طلبه (ستالين)، من جهاز مخابراته، هو حشد كل الجهود الممكنة؛ للحصول على سر القنبلة الذرية، وبأي ثمن...

وفي الوقت الذي بدأت فيه المخابرات السوفيتية العريقة، ذات الخبرة الواسعة، في وضع خطتها بعيدة المدى؛ للحصول على سر القنبلة الذرية، والذي عكف فيه آلاف العلماء السوفيت، على دراسة الأمر، ومحاولة فك أسراره وتعقيداته، كان (هاري

ترومان) يصدر قراره بحل مكتب الخدمات الاستراتيجية، ويؤسند إلى (آلان دالاس) مهمة إنشاء وكالة المخابرات الأمريكية، بعد أن قفزت مذبحة (هiroshima) و(Nagasaki) بشعبيتها إلى القمة، ما دامتا قد أنهيا الحرب العالمية الثانية، التي فقد العالم بسببها اثنى عشر مليون شخص...

وبينما انهمك (dalas) في تكوين جهاز مخابراته، و اختيار معاونيه، ووضع قواعد عمله الأساسية، والتي اشترط (ترومان) أن تحوي ما يحظر حجب المعلومات عن الرئيس، أياً كانت الأسباب، كان الروس يبدأون خطتهم بزرع أكبر عدد ممك من عملائهم، في الولايات المتحدة الأمريكية، التي شهدت حمى سيل طلبات الهجرة إليها، بعد أن صارت أقوى دولة في العالم، وصارت بعد الرخاء الاقتصادي الذي حظيت به، عقب الحرب، والذي محا تاماً أثر الأزمة الاقتصادية العنيفة، التي عانت منها في أواخر العشرينات وحتى نهايات الثلاثينات، هي الحلم والأمل، بالنسبة لعدد كبير من الجنسيات المختلفة، وكانت فرصة مثالية للسوفيت، أن يزرعوا أكبر قدر من عملائهم، في المجتمع الأمريكي، عبر سيل المهاجرين الجدد، ولأن (انجلترا) كانت حليفاً للولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب، وتشترك معها في النهج الرأسمالي نفسه، فقد استغل السوفيت الدمار الذي أصابها، وضياع العديد من سجلاتها خلال الحرب، وزرعوا فيها مجموعة من عملائهم أيضاً...

ووفقاً للإحصائيات غير الرسمية، زرع السوفيت ما يزيد على ألفين وثمانمائة عميل، في الولايات المتحدة الأمريكية و(إنجلترا)، خلال السنوات الخمس، التي تلت الحرب العالمية الثانية...  
خلال كل هذا، كان الأمريكيون يواصلون محاولات تطوير القنبلة الذرية، وإجراء الأبحاث لإنتاج القنبلة الهيدروجينية، والعمل على إنتاج قنابل نووية أصغر حجماً من القنبلة الأولى، التي عاها حجمها شديد الضخامة، واستعانت في هذا بنفس الطاقم الذي أشرف على مشروع (مانهاتن)، والذي ضم عدداً من أبرز علماء الفيزياء، مثل (أنريكو فيرمي) و(هارولد أورى)...  
وفجأة، وبينما بلغ وهو الأمريكي مبلغه، واعتقدت المخابرات الأمريكية أنها قد صارت واحدة من أكبر أجهزة المخابرات العالمية، وصلها نبأ شديد الخطورة، إلى أقصى حد...  
وللحديث بقية.

\* \* \*

في الوقت الذي انشغلت فيه الولايات المتحدة الأمريكية، في تطوير طائراتها Convair B-36؛ حتى يمكنها حمل قنابل نووية أكثر قوة، وقدرة على التدمير، وفي الوقت الذي تصوّرت المخابرات الأمريكية فيه، أنها قد صارت قوة استخباراتية لا يشق لها غبار، أعلن الاتحاد السوفيتي فجأة، في التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٩م، أنه قد أجرى تجربة ناجحة؛ لتفجير قنبلته الذرية الأولى، في منطقة (سيمي بالاتينسيك)؛ في

(казاخستان)...

وكانت صدمة رهيبة، ليس للمخابرات الأمريكية وحدها، ولكن لكل مواطن أمريكي أيضاً؛ فبعد أن امتلأت نفوس الأمريكيين بشعور القوة والتميز، وصاروا على قمة العالم، وبدأوا بالتعالي على السوفيت بالتحديد، نزل ذلك الخبر على رءوسهم كالصاعقة، ونسف زهوهم وشعورهم بالقوة بضربة واحدة؛ فلم يكن هناك مخلوق واحد، لا بين العامة، ولا بين السياسيين، ولا حتى بين رجال المخابرات الأمريكية أنفسهم، يتصور، أو يمكن حتى أن يتصور، أن يتمكن السوفيت من بناء قنبلتهم الذرية الأولى بهذه السرعة... كان علماء مشروع (مانهاتن) قد حذروا من أن السوفيت سيتوصلون حتماً إلى سر صنع القنبلة الذرية؛ لأنه من المستحيل حجب العلم عن الآخرين، الذين يمتلكون عقولاً وعلوماً، تساوى مع من أبدعوا القنبلة الأولى، ثم أن السوفيت كانوا يمتلكون الإمكانيات الازمة؛ لإنتاج القنبلة الذرية، وكل ما ينقصهم، هو الخطوط الأساسية لتصميم وصنع القنبلة...

وبسرعة، سرت في أروقة المخابرات الأمريكية معلومة باللغة الخطورة، تقول: إن السوفيت قد حصلوا، من خلال أحد جواسيسهم، والذي يعمل لحساب (الكي جي بي) (KGB)، على التصميات الأولية، للقنبلة الانشطارية، التي أقيمت على (ناجازاكى) اليابانية!!... وفي الوقت الذي أصبحت

فيه المخابرات الأمريكية بحمى البحث عن الجاسوس، الذي سرّب أسرار القنبلة الذرية، أصيب الشعب الأمريكي بحمى جديدة، أطلقوا عليها اسم (الرعب النووي)، وهي حالة من الهلع الشديد، من أن تدور عليهم الدوائر، ويصبحون ضحية لانفجار ذري سوفيتي، كما كانوا الجناة ذات يوم، عندما فجّروا قنابلهم الذرية في (اليابان)...

وعلى نحو محموم، نابع من ذلك الرعب النووي، بدأ الأمريكيون في بناء مخابئ نووية، في الحدائق العامة، وتحت منازلهم، وزودوها بكميات هائلة من المياه والأطعمة المحفوظة، حتى يمكنهم العيش فيها لسنوات، إذا ما تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية لقصف نووي، خاصة وأن السوفيت قد استعنوا بأسراهم من العلماء الألمان؛ لتطوير الصواريخ الألمانية (ف-١)، و(ف-٢) (and V٢ V١)، والتي استخدمها (هتلر) في نهايات الحرب العالمية الثانية؛ لقصف (لندن) من (أوروبا) والتي كان لها الدور الأكبر، في الدمار الهائل، الذي شهدته (لندن)، في سنوات الحرب وأشهرها الأخيرة، وصار لدى الروس ما يعرف باسم (الصواريخ عابرة القارات)، والتي يمكن إطلاقها من أقصى شرق (روسيا)، نحو القارة الأمريكية، وهي تحمل رؤوساً نووية بالغة الشدة والقوة التفجيرية...

المشكلة الكبرى آنذاك، كانت أن (روسيا)، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، تمتلك ترسانة من الصواريخ، التي طورتها

كثيراً، خلال اهتمام الأميركيين بتطوير أسلحتهم النووية، مما زاد من حدة الهلع النووي، الذي بلغ حد إصابة ما يزيد على الستين في المائة، من الأميركيين البالغين، بحالات اكتئاب مرضي، وهلع نفسي متواصل، وإرهاق شديد؛ بسبب عجزهم عن النوم؛ من شدة خوفهم على أنفسهم وعلى أسرهم ...

ربما لأن الخوف لم يقتصر على الخوف من الضربة النووية فحسب، وإنما امتد إلى الخوف من الشيوعية والشيوعيين، ومن أن يستيقظوا يوماً، فيجدوا أنهم صاروا تحت الاحتلال السوفيتي، ولقد دفعهم هذا، ودفع مخابراتهم، التي كان يرأسها آنذاك - (آلن فوستر دالاس)، ومكتب المباحث الفيدرالية (FBI)، التي كان يرأسه (جون إدغار هوفر)، المعروف باسم (إدغار هوفر)، إلى الشك في كل من يتسمى أو يتعاطف مع الفكر الشيوعي، وبلا أدنى رحمة... في تلك الفترة تم اعتقال المئات للتحقيق معهم، ومن بينهم (هاري جواد)، الذي ألقى القبض عليه، ثم أفرج عنه، عندما لم يثبت عليه شيء... .

العجب أنه بعد ذلك، وفي الثالث والعشرين من مايو، عام ١٩٥٠، تم اعتقاله في (فلاديلفيا)؛ بعد أن تبين من التحريرات تورطه في شبكة تجسس سوفيتية، تعمل في (أمريكا) منذ الثلاثينيات، ومع اعتقاله، ويقينه من أن كل الأدلة تدينـه، كشف (جواد) عن أسماء باقي أفراد الشبكة؛ في محاولة للتحقيق من عقوبته، واعترف بأنه، وفي يونيو ١٩٤٥م، التقى

بأحد العسكريين الأميركيين، والذي يعمل في قاعدة (لوسن الاموس) في (نيومكسيكو)، حيث سلمه هذا الأخير وثائق باللغة السرية والخطورة، عن صاعق تفجير القنبلة الذرية، وأنه أعطى تلك الوثائق للمدعي (كلاوس فوشنر)، زعيم شبكة التجسس الروسية، مقابل خمسةمائة دولار فحسب...

وعندما عرضت المخابرات الأمريكية عليه بعض صور العسكريين، الذين يشبهه في أمرهم، تعرّف بينهم (دافيد جرين جلاس)، والذي تم تسریحه من الجيش قبل هذا؛ بسبب تعاطفه وزوجته مع الشيوعيين، الذين كان الأميركيون يطلقون عليهم لقب (الحمر)، والذي كان يعمل في مؤسسة صناعية كبيرة في (بروكلين)، مع (جوليوس روزنبرج)، زوج شقيقته (إيشيل)، و(جوليوس) هذا ابن مهاجر روسي، وقد تم طرده قدّيماً من مؤسسة صناعية أخرى، بعد خمس سنوات من عمله فيها؛ بسبب انتهاء للحزب الشيوعي غير الرسمي...

وتم اعتقال (دافيد جلاس)، في السادس عشر من يوليو ١٩٥٠، واعترف ضمن ما اعترف، بأنه لم يسلم الوثائق إلى (جواد) فقط، وإنما سلم نسخة منها إلى زوج شقيقته (جوليوس)، الذي أخبره أيامها أنها ستذهب إلى (الأصدقاء الروس)، على حد قوله، وأضاف أن (جوليوس روزنبرج) قد نصحه وزوجته بالفرار إلى (المكسيك)، بعد اعتقال (جواد)، ولكنه تأخر في هذا، على عكس عميل آخر، وهو (مورتون

سويل)، الذي هرب بالفعل إلى (المكسيك)، وهنا تركّزت شبّهات وتحريات المخابرات الأمريكية والباحث الفيدرالية على (جوليوس روزنبرج، و...). مازال للحديث النووي بقية.

\* \* \*

منذ فجر السوفيت قنبلتهم الذرية الأولى، جن جنون المخابرات الأمريكية، التي اتهمها الشعب الأمريكي كله، بأنّها لم تستطع الحفاظ على أعظم سر، في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بأكمله، ولم تشعر بشيء من الارتياح، حتى ألت القبض على شبكة تجسس سوفيتية، اعترف أحد أفرادها، وهو (جرين جلاس) بأنه قد سلّم خطوطات القنبلة الذرية لزوج شقيقته (جوليوس روزنبرج)، الذي أخبره أنه سيرسلها إلى (الأصدقاء الروس)، على حد قوله ...

وفي اليوم التالي مباشرةً، تم اعتقال (جوليوس)، الذي أصيب بالدهشة والفزع، وأقسم للمحققين أنه لم يسمع عن القنبلة الذرية، حتى أسقطت على (اليابان)، ولكن المحققين واجهوه باعتراف (جلاس)، الذي أنكره تماماً، وأصرّ على إنكاره ...

وعلى الرغم من هذا، فقد تم إلقاء القبض على زوجته (ايشيل) بعد ستة أيام، وعلى الرغم من فرار (مورتون سوبل) إلى (المكسيك)، فقد قامت المخابرات الأمريكية بعملية محدودة، وتم

اختطافه، وإعادته إلى الولايات المتحدة، عبر الحدود الشمالية، وإن كان الإعلان الرسمي قد أشار إلى اعتقاله في (لاريدو) بولاية (تكساس) ...

وتم توجيه التهمة لكل من (جرين جلاس) و(جولد)، و(سويل)، بالإضافة إلى (جوليوس) و(إيشيل روزنبرج)، (أما روث)، زوجة (جرين) فلم يوجه إليها أي اتهام، على الرغم من إفادة زوجها بأن (جوليوس) قد أرسلها إلى قاعدة (لوس آلاموس)؛ لاقناعه بالتجسس، وبعد عدة سنوات، ومع نشر وثائق القضية، تبيّن أن المدعى العام - حينذاك - (جون روج)، قد عقد اتفاقاً مع (جرين)، باستثناء زوجته من الاتهام، مقابل شهادته ضد زوج شقيقته (جوليوس) ...

وعلى نحو عجيب، دارت القضية الكبرى، وشهدت تطورات غير طبيعية، وبعد أن كانت إفادة (جرين) خالية، من أي اتهام لشقيقته (إيشيل)، عاد هو وزوجته يقرّان بأنها من قاما بطبعاً المعلومات، التي سيتم إرسالها إلى الروس، ولقد كشفت إحدى الوثائق فيما بعد، أن (إدجار هوفر)، مدير المباحث الفيدرالية الأمريكية، قد ورّط (إيشيل) عمداً في القضية؛ حتى يدفع (جوليوس) إلى الاعتراف بوجود جواسيس آخرين، وكل هذا بسبب رسالة لاسلكية تم اعترافها، من السفارة الروسية، تقول: إن زوجين يعملان كفريق تجسس ناجح في (نيويورك)، ولسبب غير مفهوم، لم يحاول شخص واحد التفكير في احتمال أن

تشير تلك الرسالة إلى الزوجين (جلاس)، وليس إلى الزوجين (روزنبرج)!!!

ولقد أصرّ (جوليوس) و(إيشيل روزنبرج) على نفي التهمة طوال الوقت، في حين اعترف الباقيون بها، ورفضا إجابة سؤال المدعى العام، عن كونهما يعتنقان الفكر الشيوعي، في حين أكد محاميهما أن (جرين جلاس) جاسوس مرتزق، من الطراز الذي يعمل من أجل المال وحده، وأنه مستعد لدفن أخيه وزوجها؛ حتى ينجو بجلده من العقاب ....

وعلى الرغم من مرافعة الدفاع، ومن أدلة الاتهام الواهية، والاعتماد على شهادة رجل اعترف بالتجسس، فقد حصل كل المتهمين على أحكام متواضعة الشدة، فيما عدا (مورتون سوويل) والزوجين (روزنبرج)، فقد حكم على (سوويل) بالحد الأقصى للسجن - آنذاك - وكان ثلاثين عاماً، دون إمكانية الإفراج المبكر، تحت أية ظروف، في حين جاء الحكم على الزوجين (روزنبرج) بالإعدام، باعتبار أن جريمتهما تفوق حتى جرائم القتل المعتادة، وربط القاضي بين تسريب أسرار القنبلة الذرية، وعدوان الاتحاد السوفيتي على (كوريا)، والذي راح ضحيته خمسون ألف شخص، كما قال إن تسريب أسرار القنبلة الذرية، قد يعني موت الملايين فيما بعد ...

وعندما تم نقل (جوليوس) و(إيشيل) إلى السجن، تمهدداً لإعدامهما، راحت (إيشيل) تغنى مقطعاً من الأوبرا، يقول: إن

غداً سيعود جميلاً، وصفق لها (جوليوس) في حرارة، وطلب منها أن تغني مقطعاً آخر، صفق لها كل السجناء بعده طويلاً....

ولقد تقدم محامي الزوجين (روزنبرج) بالتماس للرئيس (دوايت إيزنهاور) ثلاث مرات؛ لتخفيض الحكم عنها، إلا أنه رفض في إصرار، على الرغم من أن العالمين (هارولد يوري) و(ألبرت أينشتين)، الفائزان بجائزة (نوبل)، قد نشرا عدة رسائل في الصحف، تشكيك في نتائج التحقيقات، باعتبار أن المعلومات، التي نسب تسريبها إلى الزوجين (روزنبرج)، لم تكن تكفي وحدها؛ ليصنع السوفيات قبلتهم الذرية، إلا لو كانت أبحاثهم شبه مكتملة بالفعل، وأكّد (أينشتين) أن أوراق التحقيقات جاءت متজنية بشدة على الزوجين (روزنبرج)، وأنه من غير المنطقي أن يكافأ جاسوس بالسجن لمدة محدودة، في حين يعامل آخر بكل هذا التعتن، على التهمة نفسها، إلى حد يصل إلى الحكم عليه بالإعدام!!....

ولقد امتدَّ الشكوك إلى قطاع عريض من الأميركيين، حتى أن وفداً يمثل ألفين وثلاثمائة كنيسة أمريكية، من مختلف الطوائف، قد زار الرئيس الأميركي، مطالباً بتحفيض الحكم عن الزوجين (روزنبرج)، إلا أنه رفض تماماً، وأصرَّ على حكم الإعدام، ولم يشفع له مشهد زيارة طفليهما (ميшиيل) و(روبيرت) لهما، وللذين لا تزيد أعمارهما على أربع وثمان سنوات، ولا الدموع الغزيرة، التي ذرفت في كل زيارة، وتم رفض كل

الالتماسات، لتأييد الحكم بالإعدام، ويتحدد له يوم الثامن عشر من يونيو عام ١٩٦٣ م ...

ومن عجائب القدر، أن وافق هذا اليوم ذكرى عيد زواجهما الرابع عشر، فتم تأجيله ليوم واحد، ليتم إعدامهما بالفعل، في التاسع عشر ...

أسوأ ما في هذه القصة كلها، أنه بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ونشر العديد من وثائقه، التي كان نشرها محظوظاً من قبل، تبيّن أن الزوجين (روزنبرج) لم يتجمسساً أبداً لحساب السوفيت، على الرغم من إعجابهما بالإنجاز السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، ولم يكن لهما أدنى دور، في تسريب أسرار القنبلة الذرية إليهم!!....

وبهذا انكشف الفشل الذريع للمخابرات الأمريكية، التي ارتكبت الكثير من التجاوزات، وضحت بزوجين بريئين، وحكمت على طفليهما باليتم والعuar، فقط حتى تحفظ ماء وجهها، أمام الشعب الأمريكي، الذي لم يخلص من حمى (الرعب النووي)، وإنما حوّلها إلى اتجاه آخر ... تماماً.

\* \* \*

إعدام (جوليوس) و(إيشيل روزنبرج)، لم يؤد إلى تهدئة مخاوف الشعب الأمريكي، ولا ساعد في خروجه من حالة (الرعب النووي)، التي أصابته عقب تفجير السوفيت لقنبلتهم النووية

الأولى، وخاصة مع الاخبار عن تطوير السوفيت لصواريخهم، التي بات في استطاعتها حمل رؤوس نووية، وعبور القارات؛ لتهديد أمن وسلامة الأميركيين، وكان على المخابرات الأمريكية توجيه مشاعر ومخاوف الشعب إلى اتجاه آخر، ينفت عن مشاعره، ويهدي قليلاً من مخاوفه، وهذا ما اتفقت عليه المخابرات الأمريكية، التي رأسها - حينذاك - (آلن فوستر دالاس)، والباحث الفيدرالية، التي كان يقودها (جون إدجار هوفر) ...

ولا أحد يدرى ما إذا كان اتفاقهما هو الدافع، أو الرغبة في الشهرة والزعامة، ولكن في تلك الفترة ظهر السيناتور الأمريكي (جوزيف مكارثي)، ليشن حملة شعواء ضد الشيوعية والفكر الشيوعي ...

ولقد بدأ (جوزيف ريموند مكارثي) (١٤ نوفمبر ١٩٠٨ - ٢ مايو ١٩٥٧م) حملته عام ١٩٥٠م، وهو نفس العام الذي ألقى القبض فيه على (جوليوس روزنبرج)، بقائمة من مائتي وخمسة أسماء، اتهمهم بالعملة للاتحاد السوفيتي، وباعتناق الفكر الشيوعي، في الخارجية الأمريكية، ولم تكن حملة (مكارثي) تستند إلى الأدلة أو البراهين، وإنما كانت تكتفي بتوجيه اتهامات جزافية، للعديد من رموز المجتمع الثقافية والسياسية، وحتى الفنية، وكان توجيه الاتهام الجزافي لأحدthem، يعني تدميره اجتماعياً على نحو كبير، حتى انهم أطلقوا على حملة (مكارثي) اسم (حملة الخوف) ...

ولما كان (جوزيف مكارثي) ينتمي إلى الحزب الجمهوري،

فقد ترَكَّزت اتهاماته على رموز الحزب الديمقراطي، مما أشاع حالة من الخوف والفرع في نفوس العديد من الأميركيين، وانزاحت فكرة اتهام المخابرات الأمريكية بالتقدير، في تُسرب سر القنبلة الذرية، وانشغل الكل بإثبات عدم انتهاه أو تأييده للفكر الشيوعي، خاصة وأن القائمة، التي بدأت بهائتي وخمسين اسمًا، اتسعت لتشمل أكثر من ثلاثة آلاف وسبعين إسم، حتى قيل أيامها أنها ستتمتد لتشمل الولايات المتحدة الأمريكية كلها، خاصة وأن (مكارثي) لم يعد يفرق في حملته، بين الشيوعيين، والليبراليين، والحركات العمالية، التي تسعى لتحسين أوضاع العمل في (أمريكا) ...

في البداية كان (مكارثي) يرفض الغوغائية، ويتعامل في هدوء وثقة، باعتباره أصغر أعضاء الكونجرس سنًا في ذلك الحين، إذ لم يزد عمره عن الثامنة والثلاثين، عندما بدأ حملته، ثم بدأ سلسلة من التحقيقات داخل الكونجرس، يساعده في هذا (روى كوهين)، الذي حقق مع (جوليوس) و(إيثيل روزنبرج)، ودفعهما إلى كرسى الإعدام الكهربائي، والذي أطلق على نفسه لقب (صائد الجواسيس الحمر)، وعاشت (أمريكا) الفترة الأكثر سواداً في تاريخها الحديث (١٩٥٥ م - ١٩٥٠ م)، حيث لجأ العديدون إلى الهجرة إلى (أوروبا)، وتخلّى عشرات الأدباء والكتاب عن وطنهم، وراحت دائرة اتهامات (مكارثي) تتسع وتنبع، ليجبر وزير الخارجية على منع دخول كتب أكثر

من أربعينات كاتب وأديب وأستاذ جامعي أوروبي؛ باعتبار أنها تروج للشيوعية، ووضع قائمة سوداء للكتاب الأوروبيين، ولقد أيدَه الأعضاء الجمهوريون في الكونجرس؛ نظرًا لعدائهم للرئيس (هاري ترومان) الذي ينتمي للحزب الديمقراطي، وتم التحقيق مع مئات من الدبلوماسيين الأمريكيين، مما اضطر وزير الخارجية - آنذاك - (جيمس بيرنز) إلى فصل مائة شخص منهم تقريبًا، تحت مسمى (عدم الكفاءة) ...

ثم التف (مكارثي) إلى (هوليود)، واتهمها بأنها إما شيوعية، أو تعمل على ترويج الفكر الشيوعي، من خلال أفلامها، وكان اتهامه لهذا موجًّهاً إلى اليهود، الذين يمتلكون معظم شركات الإنتاج السينمائي الأمريكية، والذين ترأسوا الكثير من المنظمات اليسارية والنقابات الصناعية، وكان منهم ممثلون ومخرجون ومؤلفون، مما دفع الكاتب اليهودي اليساري (والتر جودمان) إلى أن يصف المكارثية، بأنها لعبة وسيلتها قدرة، وهدفها يدفع إلى التفرُّز ...

وعلى الرغم من أن الشعب الأمريكي قد أيدَ حملته في البداية، مدفوعًا بالخوف من الخطر الشيوعي، إلا أن بعض الصحفيين والكتاب كانت لديهم الشجاعة لهاجمته، وهو في أوج شهرته، وكان أشهرهم (إدوارد مارلو)، الذي قاد حملة قوية ضد (جوزيف مكارثي)، مما دفع نجوم (هوليود) إلى تنظيم مسيرة في قلب (واشنطن)، على رأسها (همفرى بوجارت)، و(لورين

بيكال)، و(جريجورى بيك)، و(دانى كي)، و(جين كيل)، و(جيمس ستيفارت)، و(فرانك سيناترا)، و(جودي جارلاند)، و(ريتا هيوارث)، و(أفا جارنر)، وكانوا أشهر نجوم (أمريكا)، العالميين في ذلك الحين، ودخلوا الكونгрس، وطالبوه بأن يكون الإنسان الأمريكي حرًا في اعتناق ما يريد....

ومع تلك المسيرة، بدأت شعبية (جوزيف مكارثي) تتراجع، حتى أن الكونгрス أدان حملته، عام ١٩٥٦م، وبعد الشهرة التي حازها، صار اسمه مرادفًا للإرهاب الفكري الثقافي، وهو جرت حملته في عنف، دفعه للانزواء عن الأضواء، ودارت عليه الدوائر، ليصبح هو المتهم، في نظر الشعب الأمريكي كله...  
أما مساعدته في التحقيقات المشبوهة (روى كوهين)، فقد سقط في قبضة العدالة فيما بعد، متهمًا بالفساد، وتقاضى رشاوى، وثبت عليه الاتهامات، وحكم عليه بالسجن لسنوات عديدة...  
ومع كل هذا، فقد تحقق الهدف الرئيسي، وراء حملة (مكارثي)، كما اتفق على هذا عدد كبير من مثقفي وأدباء وصحفيي (أمريكا)، وهو جذب انتباه الشعب، بعيدًا عن تقصير المخابرات الأمريكية في حماية سر القنبلة الذرية، كما ثبت فيما بعد، أن الغرض الحقيقي من حملة (مكارثي) لم يكن استهداف الشيوعية، التي وصفها بأنه (دين جديد، يسعى لإزاحة المسيحية)، وإنما كانت تستهدف الحزب الديمقراطي، في محاولة فجة لرفع أسهم الحزب الجمهوري، مما جعل البعض يصفها مؤخرًا، بأنها «أقدر لعبة

سياسية، في التاريخ كله...»...  
ولكنها لعبة حفظت ماء وجه المخابرات الأمريكية، في  
واحدة من أخرج لحظاتها....  
ولا يمكن أن نختم الحديث عن المخابرات الأمريكية، دون  
الإشارة إلى أكثر عملياتها تعقيداً و...  
مازال للحديث بقية.

\* \* \*

(خليج الخنازير) أو (Bahia de Cochinos)، هو خليج على الساحل الجنوبي الغربي لدولة (كوبا)، ويقول البعض: إن تسميته بهذا الاسم، تعود إلى غرق سفينة محملة بالخنازير، بالقرب من ساحلها، وألقت الأمواج الخنازير النافقة عليه، ولكن البعض ينكر هذا بشدة، ويؤكد أنه هناك خطأ فادح في الترجمة، وأن كلمة (Cochinos) هذه إنما تعني (سمك الفهد)، أو (Tiger Fish)، ولكن أيّاً كان الصواب، بين هذا وذاك، فشهرة ذلك الخليج لا تعود إلى سبب تسميته، ولكن تعود إلى ارتباط اسمه بالهجوم الفاشل، الذي نظمته المخابرات المركزية الأمريكية، عبر مجموعة من الكوبيين، المناوئين لنظام (فيديل كاسترو)، والمنفيين خارج (كوبا)، بقيادة (باتستيتا)؛ لاسترجاع الحكم من يد ثوار (كاسترو) وأتباعه، في السابع عشر من أبريل، عام ١٩٦١م...  
ولقد بدأ التخطيط للعملية، في السابع عشر من مارس ١٩٦٠م، عندما اقنعت المخابرات الأمريكية الرئيس (دوايت

إيزنهاور)، بدعم المعارضة الكوبية، ضد النظام الشيوعي الجديد- آنذاك- بقيادة (كاстро)، ووقع (إيزنهاور) بالموافقة، ليبدأ تدريب قوات المعارضة الكوبية في (جواتيمالا)، وتم تشكيل اللواء (Brigada Asalto)، وأطلقت المخابرات الأمريكية على العملية، الاسم الكودي (زاباتا) (Zapata)... وعلى الرغم من أن (آلان دالاس)، مدير المخابرات الأمريكية- آنذاك- كان المسئول الأول عن العملية، وأحاطها بأقصى قدر من السرية، إلا أنه من العسير أن تخفي حدثاً بهذه الضخامة، وأن تقوم بتدريب قوات كاملة من المرتزقة، دون أن تسرب، ولو معلومة واحدة صغيرة..

ثم أن المخابرات السوفيتية (KGB)، كانت تحمي النظام الوليد، وتعتبره نقطة ارتکاز، قرية من سواحل الولايات المتحدة الأمريكية، وحليفاً يمكن استخدامه في حالات الطوارئ، وفَزَاعة تطير النوم من عيون الأمريكيين في الوقت نفسه؛ لذا، فهو سيلة ما، تسربت الخطة إلى الكوبيين، ربما عبر عملائهم السريين في الأوساط الأمريكية، أو عبر المخابرات السوفيتية نفسها...

كانت الخطة تعتمد على قصف أهم القواعد الجوية في (كوبا)، قبل الإنزال البري بيومين، بوساطة طائرات تحمل شعار الطيران الكوبي، ويقودها طيارون كوبيون، وفي صباح يوم الإنزال البري، يتم توجيه ضربة أكثر عنفاً، للقواعد الجوية

نفسها، بهدف شل حركة القوات الجوية الكوبية، وتمهيد السبيل للتدخل العسكري، ثم قصف الجسور البرية وطرق المواصلات وخطوط القطارات، في العاصمة (هافانا) والمناطق المجاورة لها، وبعدها يتم إنزال قوات الكوماندوز الكوبية، التي دربّتها المخابرات الأمريكية، عند خليج الخنازير، أو خليج (كوتتشينوس)، كما يسميه الكوبيون، على أن تتكون تلك القوات من المرتزقة المأجورين، والعناصر المضادة للثورة الشعبية في (كوبا)، بحيث تبدو الولايات المتحدة الأمريكية خارج المنظور الإعلامي تماماً، ويبدو الامر وكأنها عملية منظمة من القوات المسلحة الكوبية، وليس بخطيط وتوجيه من الخارج... .

ولقد كانت الخطة الأولى تعتمد على الإنزال في (ترابينيداد)، في ساعات الصباح الأولى، ولكن تم استبدال الموقع بخليج الخنازير، والموعد بالليل بدلاً من الصباح؛ نظراً لأن منطقة خليج الخنازير أصغر حجماً، وأقل في تعداد السكان، كما أن سكانه سيقدمون الدعم للقوات القادمة، وفقاً لتقديرات (CIA)... ولقد بدأ الفوج الأول للهجوم الجوي، في صباح الخامس عشر من أبريل ١٩٦١م، بقاذفات (بي ٢٦) الأمريكية، التي قصفت القواعد الجوية في (كوبا)، وأحياء (هافانا)، و(سانتياغو)، والعديد من المناطق المجاورة، وعاد الطيارون وهم يعتقدون أن ضربتهم قد حققت أهدافها بنجاح... ولكن الواقع أن المعلومات التي تسربت، جعلت جيش الثوار ينقل

العديد من الطائرات سراً، إلى مطارات احتياطية بديلة، مما أنقذها من التدمير...

وعلى الرغم من هذا الإخفاق، لم يلغ الرئيس (جون ف. كينيدي)، خطة الإنزال البري، وإنما أصدر قراراً بإلغاء الغارة الثانية، لذا فقد بدأ الإنزال بالفعل، على شواطئ (كوبا) ليلاً، واستمر حتى فجر يوم السابع عشر من أبريل، وانتشر المئات من المرتزقة على الشواطئ، وبدأوا الزحف إلى الداخل، عندما وجدوا أمامهم مفاجأة... الميليشيات الشعبية الكوبية كانت في انتظارهم، وتصدت لهم في عنف؛ لمنعهم من التقدّم، حين وصول الجيش الشعبي...

في نفس الوقت، قامت أربع طائرات نقل بإنزال ألف وخمسين إحدى عشر رجلاً، من تم تدريبهم في (جواتيمala)، عند خليج الخنازير، ومعهم كل المعدات والأسلحة، الالزمة للعملية، وبعد ساعتين، قامت خمس طائرات أخرى بإبراز مائة وسبعة وسبعين مظلياً؛ في محاولة للسيطرة على الطرق الرئيسية، إلا أن قوة المعلومات كانت تفوق قوة المناهضين للثورة؛ إذ أنه، وبناءً عليها، وضعت القوات المسلحة الثورية الكوبية خطة بالغة الدقة، نجحت بواسطتها في إيقاف تقدّم المرتزقة الأميركيين، واستعادة الواقع التي احتلوها... في اليوم التالي، الثامن عشر من أبريل، تم شن هجوم بست طائرات، على موقع الميليشيات الكوبية، استخدم فيه الأميركيون الصواريخ، وقنابل النابالم الحارقة، وبلغ

عدد ضحايا ذلك الهجوم، ألف وثمانمائة من المليشيات الكوبية، إلا أن قدراتهم تزايدت، مع تدفق أعداد كبيرة منهم، ووصلتهم السلاح والعتاد، وكبدوا المحتلين خسائر فادحة... .

وفي التاسع عشر من أبريل، شن الأميركيون هجومهم الجوي الأخير، بأربع طائرات، نجح الكوبيون في اسقاط اثنان منها، وقتل أربع أمريكيين من طاقمها، ثم سرعان ما أسقطوا طائرة ثالثة، قبل نهاية النهار... .

ومع غياب الدعم الجوي، حاولت قوات المرتزقة والمعارضين للثورة التراجع إلى الشاطئ، ولكن هجوم المليشيات العنيف لم يسمح للسفن باستعادتهم، فاضطررت للانسحاب، ليأسر الكوبيون ألفاً ومائة وتسعة وسبعون شخصاً منهم، ويستولون على خمس دبابات (شيرمان) ثقيلة، وثمانية رشاشات كبيرة، ومئات من الأسلحة الفردية، من مسدسات ومدافع رشاشة وغيرها، بالإضافة إلى عشر سيارات نقل عسكرية، وأسلحة مضادة لطائرات... .

ولقد اعترف الأسرى بأنهم من أنصار الحاكم المخلوع (باتستيتا)، وبأن المخابرات الأمريكية هي التي درّبتهم، ووضعت خطة الهجوم، مما جعل وزير الخارجية الكوبي يقف في الأمم المتحدة، ليقول في قوته: «إنني أتهم الولايات المتحدة الأمريكية، أمام الرأي العام العالمي، بأنها شنت حرباً ضد (كوبا)، من أجل أن تمتلك ثرواتها من جديد، وتعيدها إلى التبعية لها...» .

وبعد تصريح وزير الخارجية الكوبي-آنذاك - (راءول روا)، في الجلسة السياسية الخاصة، في الأمم المتحدة، لم تستطع المخابرات الأمريكية التستر على فشلها الذريع، الذي لازمها حتى يومنا هذا... والتأمر على مصائر الشعوب، لعبة المخابرات الأمريكية دومًا، و...  
لهذا حديث آخر.

\* \* \*

في كتابه الشهير (لعبة الأمم) (Game Of Nations)، روى لنا رجل المخابرات الأمريكي السابق (مايلز كوبلاند)، كيف خطّطت ونفذت المخابرات الأمريكية، بالتعاون مع المخابرات البريطانية، خطة الانقلاب على الرئيس الإيراني المنتخب ديمقراطيًا، قائد أول ثورة مدنية حقيقية في (إيران) عام ١٩٥٣ م..

لم يكن (محمد مصدق) عسكريًا، يضع النياشين أو الأوسمة، بل كان اقتصاديًّا مدنيًّا، تم انتخابه نائبًا برلمانيًّا، عن دائرة (أصفهان) الإيرانية، عام ١٩٠٦ م، وهو بعد في الرابعة والعشرين من عمره، وبعدها سافر (مصدق) إلى (فرنسا)؛ لاستكمال دراسته، ثم إلى (سويسرا)، التي حصل منها على شهادة الدكتوراه، في القانون الدولي، وعاد إلى (إيران)، ليتبواً منصب وزير المالية، في حكومة (أحمد قوام السلطنة)، عام ١٩٢١ م، ثم منصب وزير الخارجية، في حكومة (مشير الدولة)،

عام ١٩٢٣م، وبعدها أعيد انتخابه كنائب في البرلمان، عن الدائرة نفسها... ومع انتخابه للمرة الثانية، بدأ (محمد مصدق) حركة مناهضة لعسكرة الحكم، وقام بالتصويت ضد انتخاب (رضا خان) شاهًا على (إيران)، في تحد سافر مباشر للنظام القائم...

وفي عام ١٩٢٥م، ظهر نضوجه السياسي واضحًا، عندما أسس (الجبهة الوطنية)، أو (جبهة ملي)، مع الدكتور (حسين فاطمي)، وأحمد زاركرزاده، و(على شاكان)، و(كريم سنجابي)، وصار قائداً لها، وكان أهم أهدافها تأميم النفط الإيراني، وبالتحديد شركة النفط الأنجلو- إيرانية، والتي كانت تسيطر تقريباً، على عالم النفط في (إيران) كلها... ولقد احتمم الصراع بين (محمد مصدق) والشاه (رضا)، مع بدايات أغسطس عام ١٩٥٣م، وعلى الرغم من استهتار الشاه بالأمر في البداية، وشعوره الرائع بقوته وقوته أمنه، إلا أنه سرعان ما أدرك قوة (مصدق)، فأثر الفرار إلى (إيطاليا)، عبر (العراق)، إلا أنه، وقبل فراره مباشرة، وقع قراري هامين...

القرار الأول بعزل (محمد مصدق)، والقرار الثاني بتعيين الجنرال (فضل الله زاهدی) في موقعه...

وعبر الاتصالات المباشرة مع الشاه، بدأت المخابرات الأمريكية في دراسة الموقف في (إيران)، مع المخابرات الانجليزية، التي أقليتها فكرة تأميم شركات النفط الأنجلو- إيرانية، وتم الاتفاق على أن يتولى ضابط المخابرات الأمريكي (كيرمييت

روزفلت) تدبير انقلاب عنيف، يطيح بحكومة (صدق)، ويساعد الشاه على العودة إلى (إيران) متصرّاً، مقابل إلغاء قرار تأميم شركات النفط، ومنح نسبة كبيرة منها للشركات الأمريكية، وببدأ (كيرميت روزفلت) في وضع خطة الانقلاب، عبر عملية أطلق عليها اسم (عملية أجاكس) (Operation Ajax)... وفي نفس الوقت، الذي قصف فيه الجنرال (زاهمي) منزل (محمد صدق)، وسط مدينة (طهران)، بدأ (كيرميت روزفلت) في تنظيم حملة دعائية مناهضة لحكم (صدق)، في وسائل الإعلام الإيرانية والعالمية، كما نجح في إقناع كبير زعران (إيران)- في ذلك الحين- (شعبان جعفري)، بالسعى للسيطرة على الشارع الإيراني، ودفعه إلى القيام بتظاهرات في الشارع الإيراني، تريد هتافات رخيصة مهينة، تحط من قدر (صدق)، وتسقط هيبيته... في نفس الوقت وضع خطة؛ لاغتيال الزعامات الإيرانية البارزة، المؤيدة للرئيس (محمد صدق)، وأبرز قيادات (جبهة مل)... وفي وضح النهار، وفي قلب الشارع، تم اغتيال الدكتور (حسين فاطمي)، على نحو أرعب الكثير من القيادات...

ومع تواصل (كيرميت روزفلت) في تنفيذ خطته، بدأت شعبية (صدق) تتراجع بالفعل، وسيطرة الجنرال (زاهمي) تتزايد، حتى أتى الوقت، الذي صار فيه من الممكن أن يعود الشاه ظافراً إلى (إيران).. ومع عودة الشاه، تم إلقاء القبض على (محمد صدق)، في نفس الوقت- تقريباً- الذي أُلقي فيه قرار

تأميم شركات النفط، وأوفى الشاه بوعده، ومنح الأميركيين نصيباً كبيراً في عالم النفط الإيراني، وبدأ نظامه الأمني (السافاك) في اعتقال كل من وقف إلى جانب (صدق)... ولقد أقيمت محاكمة صورية للرئيس (صدق)، وصفها المراقبون بأنها مهزلة قانونية، على كل المستويات، ووصفها (جليل بزركمهر)، محامي (صدق)، بأنها لم تكن تتمتع بالحد الأدنى من الحيادية، أو الشروط القانونية السليمة...

وفي نهاية تلك المحاكمة الهزيلة، صدر الحكم على (محمد صدق) بالإعدام... وكانت صدمة للمجتمع الإيراني، وصدمة أخرى للمخابرات الأمريكية، فقد كان (كيرميット روزفلت) يرى، أن إعدام (صدق)، سيحوله إلى أسطورة شعبية، وربما يساعد على إعادة ولادة (جبهة مل) من جديد، لذا فقد سافر بنفسه إلى (طهران)، والتقى بالشاه العائد وأقنعه، أو ربما أجبره، على إصدار قرار بتخفيف الحكم على (صدق)، من الإعدام إلى السجن الانفرادي لمدة عامين، ثم الإقامة الجبرية مدى الحياة، في قرية (أحمد أباد)، في شمال (إيران)...

وبينما كان الدكتور (محمد صدق) يجتر ذكرياته، في منفاه الإجباري، كان (كيرميット روزفلت) يتباھي بنجاحه في تغيير مصير أمة كاملة، عبر سلسلة الخداع، التي رتبها بمنتهى الدقة، والتي استعان فيها بالشعب الإيراني نفسه، الذي منح آذانه للشائعات، التي نشرها (كيرميット) في المجتمع، وارتفع غضبه،

فتحَّول، دون أن يدرى، إلى سلاح في قبضة هذا الأخير، يحرّكه وقتها وكيفما يشاء، ويصوّبه إلى صدر كل من يشاء...  
وهكذا روى لنا (مايلز كوبلاند) في كتابه التفاصيل، وروى لنا أيضًا كيف كانت المخابرات الأمريكية تصنع بدلاً، لكل شخصية عالمية، يمكن أن تتعارض معها يوماً، بحيث يمكن لتلك الشخصية البديلة، ان تفكّر تماماً كالشخصية الأصلية، وأن ترى الامور بنفس عيونها، وتعطي نفس ردود افعالها، حتى تكون مرآة اختبارية، لكل رد فعل متظر، من كل زعيم عالمي، ووسيلة شديدة الفاعلية؛ لتحديد كيفية التعامل معه، وहدمه إذا ما اقتضى الأمر...

والحديث عن المخابرات الأمريكية يطول ويطول، والحديث عن تقنية التجسس التي تتذكرها، أو تسعى للاستفادة منها اطول، والحديث عن فنون الحاسوبية أطول وأطول... بكثير....

\* \* \*

## (١٢)

عالم المخابرات والجاسوسية عالم بلا حدود، بل هو عالم يتفرد بأنه يسعى دوماً لتخطي كل الحدود، حتى حدود العقل البشري نفسه، ولهذا، ففي منتصف الخمسينات، من القرن العشرين، كانت هناك تجربة عجيبة تجري في الاتحاد السوفيتي، بوساطة فريق من علماء الطبيعتيات، وتحت إشراف المخابرات السوفيética (KGB) مباشرة، وفي سرية تامة...

الأمر الفريد والممِّيز، في تلك التجربة، هو أنها كانت تجري في مكائن في آن واحد، ودون أي اتصال مباشر...

ففي (موسكو)، جلس شاب سوفيتي بسيط، لم يتم تعليمه أبداً، داخل حجرة من الرصاص السميك، القادر على حجب أية إشارات لاسلكية، وأمامه منضدة خشبية صغيرة، وضع فوقها رسم عشوائي، وضعه أحد أفراد فريق العلماء المشرف على التجربة، دون تخطيط مسبق...

وكان كل المطلوب من ذلك الشاب، هو أن يحْدُق في ذلك الرسم العشوائي، ويفكّر في شاب آخر، يجلس في ظروف مماثلة، داخل حجرة مشابهة، وتحت إشراف فريق علماء مشابه، وطاقم من المخابرات السوفيética... وكانت أمامه منضدة صغيرة مماثلة،

فوقها ورقة وقلم..

الفارق الأساسي، كان أن الورقة لم تكن تحمل أية رسوم،  
بل كانت ورقة بيضاء تماماً... أما الفارق الآخر، فكان أن ذلك  
الشاب الثاني، لم يكن في (موسكو)...  
بل كان في (لينجراد)..

ولقد بقي الشاب الثاني يتطلع إلى الورقة البيضاء بضع  
لحظات، ثم لم يلبث أن أمسك القلم، وراح يخط رسماً على  
الورقة، دون أن يفهم حتى ما يعنيه هذا الرسم...

الأمر العجيب، أن ذلك الرسم العشوائي، الذي وضعه  
شاب (لينجراد)، كان نسخة طبق الأصل من الرسم العشوائي،  
الذي رسمه أحد العلماء، ووضعه أمام شاب (موسكو)...

التجربة أدهشت علماء الطبيعيات إلى حد كبير، خاصة  
 وأنهم يدركون أن الشابين لا توجد أية اتصالات مباشرة بينهما،  
وان المسافة بين (موسكو) و(لينجراد) تزيد عن ألفي كيلو متر،  
والرسم كان عشوائياً وعفوياً تماماً...

وبعد إعادة التجربة ست مرات، مع النتائج المدهشة نفسها،  
أدرك العلماء، وأدرك رجال المخابرات السوفيتية، أنه هناك رابط  
عقلي غير مفهوم بين الشابين، وهو ما أطلق عليه منذ زمن اسم  
(التخاطر العقلي)، أو (التلبياثي)...

وعلى الرغم من أن هذا يخالف تماماً طبيعة عمل المخابرات،  
إلا أن كل جديد، يمكن الإفاده منه فيه...

ولهذا، فقد استبقيت المخابرات السوفيتية الشابين، في محاولة للبحث عن وسيلة الاستفادة من الاتصال العقلي بينهما، على نحو استخباراتي...

في البداية، وعندما تسرّبت المعلومة إلى المخابرات الأمريكية، بدا لهم أنه أمر لا يستحق مجرد التفكير، وأن المخابرات السوفيتية تسعى وراء خرافات، لا محل لها من الإعراب...

ولكن البحث في ملفات الحرب العالمية الثانية، أثبت أن علماء النازيين كانوا أول من أولى اهتماماً كبيراً للظواهر فوق الطبيعية، وفوق النفسية، وأنهم أول من سعى لاستغلالها، في عمل أجهزة مخابراتهم، خلال فترة الحرب...  
وهنا بدأت المخابرات الأمريكية تأخذ الأمر بالجدية اللازمة...

وفي نهاية الخمسينيات، بدأت أولى تجاربهم على الاتصال العقلي...

ففي غواصة أمريكية، وضع العلماء عدداً من أجنحة الأرانب، وغاصوا بها إلى عمق كيلو متر كامل، تحت سطح الماء، في حين تركوا الأم في (واشنطن)، موصولة بأجهزة لقياس انفعالاتها...  
وفي الغواصة، تم ذبح أجنحة الأرانب واحداً بعد الآخر، مع تسجيل التوقيت بمتنهى الدقة...

وعندما عادوا إلى واشنطن، تبيّن لهم أنه في كل مرة، يتم فيها ذبح أحد الأجنحة، كانت الأرندة الأم تصاب بحالة من الهياج

العصبي، في نفس التوقيت بالضبط، وبدقة مدهشة...  
وأثبتت هذا أن السوفيات لم يكونوا يعيشون، وأن التخاطر  
العقلية حقيقة، والأهم أنه موجود لدى كل البشر بنسب مختلفة،  
ولكنه لا يبرز إلا تحت عوامل خاصة، وضغط بعينها...

ولقد سجلوا حالة لرجل، كان ينام في فراشه في هدوء،  
ذات ليلة من ليالي الشتاء، عندما سمع في وضوح صوت أقرب  
أصدقائه إليه ينادي، ويناديه المساعدة، فهب من نومه فزعاً...  
ويبدو أن ما شعر به كان من القوة، حتى أنه نهض يرتدي  
ملابسها الثقيلة ومعطفه، ثم يستقل سيارته، ويقودها تحت المطر،  
لأكثر من خمسين كيلو متراً، دون أن يدرى لماذا يفعل هذا، ثم لم  
يلبث أن توقف عند نقطة بعينها، وغادر سيارته، ودخل إلى الغابة،  
عبر منحدر صغير، وكأنها هناك قوة تدفعه لهذا... العجيب أنه، بعد  
خمسين متراً فحسب، وجد سيارة صديقه مقلوبة، وهذا الأخير لا  
يستطيع الخروج منها، بسبب ضغط مقعد القيادة على ساقه...

ولقد عاون الرجل صديقه، الذي اندهش بشدة لقدمه،  
وأخبره أنه في محنته، لم يفكّر في سواه، ودار بخلده أن يطلب منه  
النجدة...

تلك الحالة سجلتها المخابرات الأمريكية، وتيقنت منها،  
إلا أنها لم تدرك كيف يمكن أن تستفيد منها مخابراتيًّا، أما علماء  
الطبيعتيات، فقد توصلوا إلى قاعدة الاتصال العقلية الأساسية،  
والتي تتكون من مرسل ومستقبل...

ولقد تبيّن أن المرسل يجب أن يكون في حالة توتر شديد، تدفع (الادرنالين) إلى عروقه، وأطلقوا على هذه الحالة اسم (أدرينيرجيا) (Adrenergia)، أما المستقبل، فينبغي أن يكون في حالة استرخاء، يطلق مادة (الأستيل كولين) في عروقه، وهي مادة معاكسة للأدرنالين، وأطلقوا على هذه الحالة اسم (كوليnergia) ...

العلماء توصلوا المعادلة الاتصال العقلي، ورجال المخبرات، سواء الأمريكية أو السوفيتية، لم يتوصلا إلى كيفية الاستفادة منها ...

أو أنهم قد توصلوا، إلا أنهم لم يفصحوا، واعتبروا هذا أحد أهم أسرارهم، التي قد لا تنكشف أبداً، في عالم المخبرات، الذي لا يعرف أية حدود...

حتى حدود التعامل مع أسطورة الأطباقي الطائرة...  
ولهذا رواية أخرى ...

\* \* \*

في عام ١٩٤٧م، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بعامين فحسب، كان رجل الأعمال الأمريكي (كينيث أرنولد) يقود طائرته الخاصة، عندما انتبه إلى تشكيل من سبع أجسام مستديرة، يلاحقه على نحو منتظم.. وكان ذلك التشكيل لا يشبه أية طائرات عرفها من قبل، كما كان يتخذ شكلاً أشبه بتشكيل المقاتلات الأرضية المعروفة...

ولقد لاحقه ذلك التشكيل لما يزيد على الدقيقة الواحدة، وعندما أراد الدوران لمواجهته، ارتفع ذلك التشكيل فجأة، على نحو عمودي مباشر، يستحيل فيزيائياً أن تقوم به أية مركبة طائرة أرضية، وانطلق إلى أعلى بسرعة خرافية، قبل أن يختفي تماماً... ولقد أبلغ (كينيث أرنولد) المسؤولين ووكالات الأنباء بما شاهده، وعندما سأله أحد الصحفيين، عن شكل مركبات ذلك التشكيل، أخبره (أرنولد) أنها تشبه أطباقاً مقلوبة..

ومن هنا، برب إلى العالم، ولأول مرة، مصطلح (الأطباق الطائرة)؛ لوصف تلك الأجسام مجهرولة الهوية، التي راح الكل يصفها بأنها مركبات فضائية من عالم آخر، لزروار أتوا للكشف كوكب الأرض، وسرى هذا التفسير في كل الأوساط، وقنع به البعض قناعة شديدة، في حين رفضه البعض الآخر في شدة، ونفته القوات الجوية الأمريكية، وأكَّدت أن راداراتها لم ترصد شيئاً، في الموقع الذي أشار إليه (أرنولد)... وقبل أن ينحسم هذا الجدل، أعلنت بعض الصحف المحلية، في بلدة (روزوبل)، بولاية (نيومكسيكو)، عن سقوط جسم مجهرول الهوية في أطراف البلدة، وتحطمه، ورصد جثث لثلاث كائنات فضائية، متاثرة حوله...

وسرعان ما كانت القوات الأمريكية تحيط بمنطقة سقوط ذلك الجسم، وتعلن أنه بالون اختبار، سقط بسبب عطل فني، في حين تسأله العديدون عن مدى أهمية ذلك البالون، حتى تضرب القوات الأمريكية حصاراً على المنطقة كلها، على هذا النحو!...

ولسنوات وسنوات، راحت المخابرات الأمريكية تلعب مع الشعب الأمريكي، لعبة القط والفار، في شأن الأطباقي الطائرة، أو الأجسام الطائرة مجهولة الهوية؛ فلا هي تعلن الحقائق، ولا هي تنفيها، وكأنها تريد أن تشغل الشعب الأمريكي بقضية بلا حل، أو أنها تحاول إخفاء أمر آخر ...

ومضت عقود في هذه اللعبة، حتى فوجئ العالم كله بفيلم تسجيلي، لم يكن معروفاً من قبل، قلب قصة الأطباقي الطائرة وسكان الفضاء رأساً على عقب ...

الفيلم يثبت أن الأطباقي الطائرة، كانت أهم المشاريع النازية، في زمن الحرب العالمية الثانية، وأكثرها سرية وخطورة... وعبر مجموعة من اللقطات التسجيلية القديمة، يرصد لنا الفيلم أول طبق طائر، صممه علماء النازية، في بداية الأربعينيات، والذي هو صورة طبق الأصل، من مشاهدات الأطباقي الطائرة، التي سجلها كتاب شهير، جمع كل تلك المشاهدات، في الخمسينيات والستينيات، تحت عنوان (الكتاب الأزرق)... ولقد ابتكر علماء النازية تلك المركبة، مع بدايات الأربعينيات، وكانوا يعتمدون في تسييرها، على الدفع الهوائي، وال المجالات الكهرومغناطيسية، التي تتنافر مع جاذبية الأرض، فتؤمن لها سرعة الانطلاق، والقدرة المدهشة على تغيير المسارات، إلا أن التكنولوجيا المتاحة في ذلك الحين، لم تسمح بإنتاج الأطباقي الطائرة وتشغيلها، كسلاح فعال في فترة الحرب ...

ومع سقوط (ألمانيا) النازية، لم يكن مشروع الأطباقي الطائرة قد اكتمل بعد، وكان قد أضيف إليه مشروع آخر، عرف باسم (الجناح الطائر)، وهو عبارة عن طائرة شديدة السرعة، انكمش جسمها إلى الحد الأقصى، وصارت أشبه بجناحين بلا جسم، مما يجعل مقاومة الهواء لها أقل مما ينبغي، ويمنحها قدرة على المناورة، لا تملکها أية مقاتلة عادية، من التي كانت معروفة في ذلك الحين...

وعقب سقوط النازية، قام مكتب الخدمات الاستراتيجية، وهو الأب الأول لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، بالتحفظ على طاقمي علماء المشروعين بالكامل، مع كل الرسوم والتصميمات الأولية، وتم نقلهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية... وعلى الرغم من تسجيل وصول طاقمي علماء المشروعين، فقد اختفوا جميعاً، دون أي أثر، بعد وصولهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية بأيام، ولم تعلن السلطات الأمنية الأمريكية، أو يعلن مكتب الخدمات الاستراتيجية أي أمر بشأنهم... وبعدها بعامين فحسب، بدأت مشاهدات الأطباقي الطائرة، في كل أنحاء (أمريكا)...

وبعد سنوات قليلة، ومع حلول المخابرات الأمريكية، محل مكتب الخدمات الاستراتيجية، أجرت القوات الجوية الأمريكية تجاربها، على طائرات من طراز جديد، هو عبارة عن جناح طائر، له جسم يحتل أصغر مساحة ممكنة...

تماماً مثل تصميمات مشروع (الجناح الطائر) النازي، إلا أن تلك التجارب لم تؤت التائج المتوقعة، وأشار بعض رجال المخابرات الأمريكية السابقين، إلى أن جهاز المخابرات الأمريكي، قد اعتبر المشروعين النازيين سراً حربياً، من أهم وأخطر الأسرار، الخاصة بالأمن القومي الأمريكي، ورفضت كل محاولات الكشف عنهم، حتى مع طلب بعض الرؤساء الأمريكيين هذا...

ولقد تواصل مشروع (الجناح الطائر)، حتى تحول فيما بعد إلى (الطائرة الشبح)، والتي لو قارناها بالمشروع النازي، لوجدنا تشابهاً كبيراً، يكاد يبلغ حد التطابق...

أما الأطباق الطائرة، فقد ظلَّ كل ما يتعلَّق بها سراً، أخفته المخابرات الأمريكية، حتى عن العديد من الرؤساء الأمريكيين المنتخبين، وآخرهم الرئيس الأمريكي (باراك أوباما)، الذي وعد في حملته الانتخابية، بالكشف عن كل الأسرار المتعلقة بالأجسام الطائرة مجهولة الهوية، وحادثة (روزوبل)، إلا أنه لم يفعل أبداً، ولم يفصح حتى عن سبب ذلك، بل تجاهل الأمر برمته؛ لأن المخابرات الأمريكية أقنعته بأن الأمر أكثر سرية وخطورة، من أن يتم الإفصاح عنه...

وفي أوائل تسعينيات القرن العشرين، قامت مجلة (أومني) (Omni)، وهي مجلة علمية، ذات صدى بالغ الاحترام، بحملة جمع مليون توقيع، من المواطنين الأمريكيين؛ لطالبة المخابرات

الأمريكية بكشف أسرار الأطباقي الطائرة وحادثة (روزوبل)، ونجحت في جمع مليون وثلاثمائة ألف توقيع بالفعل، إلا أنها أيضاً لم تنجح في دفع المخابرات الأمريكية إلى كشف السرير، مما جعل أحد المحليين يقول: إن هذا يثبت أن ما نطلق عليه اسم (الأطباقي الطائرة)، ليس سوى مشروع عسكري بالغ السرية، لن يتم الإعلان عنه، إلا عند اكتئاله.... وهذا نقول: إن عالم المخابرات والجاسوسية عالم بلا حدود...

وفنونه لا تنضب ولا تنتهي، وهي ترتبط بما ندركه، وأيضاً بما لا ندركه، والتكنولوجيا تلعب فيه دوراً بارزاً، بدليل أن برنامج الفضاء الأمريكي ليس يدار لأغراض علمية فحسب، بل وعسكرية أيضاً... وهذا رواية قادمة.

\* \* \*

عندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية، في مد كابلات، بينها وبين (أوروبا)، تحت المحيط الأطلسي، كان الغرض المعلن لهذا هو تسهيل الاتصالات الهاتفية بين القارتين، ثم لم يلبث أن تحول إلى نقل الاشتراكات التليفزيونية أيضاً...

إلا أنه كان من المستحيل أن يحدث أمر كهذا، دون أن تدس المخابرات الأمريكية أنفها فيه، وتضيف إليه وسيلة اتصال مباشرة، بينها وبين عملائها، في كل أنحاء (أوروبا)... ففي ذلك الزمن، مع نهايات الخمسينات وبدايات الستينات،

كان الصراع بين القوتين العظميين قد بلغ مداه، وكانت كل منهما تسعى للسيطرة على القسم الأعظم، من كعكة العالم كله؛ لضمان وجودها، ووجود وانتشار سياستها وفكرها، في أكبر مساحة ممكنة، وبالذات بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وقد ضمَّ الاتحاد السوفيتي إليه (أوروبا) الشرقية، ونصف (ألمانيا)، في حين فاز الحلفاء الباقيون بالنصف الآخر من (ألمانيا)، إلى جوار قواعد عسكرية في (إيطاليا)، وفي (اليابان) أيضًا...

ولأن كل قوة كانت تدرك أن القوة الثانية ترِبص بها، وتسعى لإسقاطها، فقد صار صراع المعلومات هو الساحة الرئيسية، التي يتقاول عندها الجميع، حتى أنه ذات يوم، وبمصادفة بحثة، كشفت السفارة الروسية في (باريس)، وجود نفق كامل أسفلها، صنعته المخابرات الأمريكية؛ للسيطرة على كل كابلات الهاتف، المتصلة بالسفارة الروسية؛ حتى يمكن رصد أية مكالمات صادرة منها، أو واردة إليها...

وكم كانت دهشة المخابرات الفرنسية نفسها، أن تم كل هذا العمل، تحت ستار الإصلاحات والإنشاءات الحكومية، دون أن يتبه أحد، حتى تم إكمال مركز رصد كامل، يحوي أحدث الأجهزة، بمقاييس ذلك الزمن، أسفل السفارة الروسية، وتم نقل كافة المعدات إليه، في وضح النهار، عبر فتحات الصرف، وبواسطة عمالٍ يرتدون الزي الرسمي لعمال الصيانة الفرنسيين!!... في نفس الفترة، أهدت السفارة البريطانية في (اسبانيا)،

ساعة حائط أنيقة، إلى السفير الروسي هناك.. وكإجراء أمني تقليدي، تم فحص الساعة بمتنهى الدقة، واتفق كل الفنانين الذين فحصوها، على أنها مجرد ساعة حائط عادية، حتى أن السفير الروسي قد وضعها في مكتبه شخصياً...

وبعد عامين كاملين، كشف السوفييت أنه ما إن يتم توصيل التيار الكهربائي إلى تلك الساعة، حتى يعمل جهاز بسيط داخلها، ينقل كل الذبذبات الصوتية التي تصدر في حجرة السفير، بما فيها محادثاته الخاصة والسرية للغاية، عبر شبكة أسلاك الكهرباء في المبنى، إلى عميل في قسم الصيانة والمتابعة، يعمل في قبو المبنى، والذي كان يقوم بتسجيل كل ما يصله، ثم يسلمه لندوب المخابرات البريطانية، الذي ينقله بدوره إلى القسم الفني في (لندن)، حيث يتم تحويل الذبذبات إلى صوت مسموع، ينقل إلى البريطانيين كل أحاديث السفير، وكل ما يدور في مكتبه...

ولقد استمرت حرب المعلومات هذه لسنوات، كان الطرفان يعملان خلاها على تطوير الصواريخ، وإنفاق عشرات المليارات على أبحاث الفضاء، التي كان الغرض المعلن لها هو الكشف العلمي لأسرار الكون، في حين كان الغرض الأهم، والذي لم يعلن كلاماً عنه صراحة، هو إيجاد وسيلة مراقبة فضائية شاملة للطرف الآخر....

وفي دستور وكالة (ناسا) الفضائية الأمريكية، (NASA)، والتي أنشئت عام ١٩٥٧م، بتمويل سنوي يقدر بستة عشر مليار

دولار، وهو مبلغ يساوى ميزانيات دول في ذلك الحين، تحديد لدور تلك الإدارة الوطنية للملاحة الفضائية والفضاء، بأنها مسئولة عن البرنامج الفضائي، بالإضافة إلى مسئوليتها عن الأبحاث المدنية والعسكرية الفضائية طويلاً المدى، وهذا يعني، وبكل وضوح، أن دورها يتتجاوز البحث العلمي، إلى دور عسكري فضائي، يتعلق بإطلاق أقمار التجسس، التي تدور حول الكوكب كله، ويمكنها رصد أية تحركات عسكرية، لمنع حدوث أية هجمات مفاجئة، كذلك التي وجهها سلاح الطيران الياباني للأسطول الأمريكي، في ميناء (بيرل هاربور)، والتي كانت السبب الرئيسي في دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية...

ومنذ أطلقت الأقمار الصناعية حول الأرض، بدأت حقبة جديدة من حقبات التجسس، وصار من الصعب إخفاء أية تحركات عسكرية كبيرة، إلا لو تمت عبر برنامج مناورات منتظم، يمكن لتلك الأقمار رصده، دون تفسير الهدف الأساسي منه...  
ولقد كانت المخابرات الأمريكية تتداول صور الأقمار الصناعية مع (الموساد) الإسرائيلي، طوال حقبة السبعينات، وحتى قرب نهاية السبعينات، عندما استغل (الموساد) تلك الصور، في ترتيب ضرب المفاعل النووي العراقي (أوسراك)، دون الرجوع إلى المخابرات الأمريكية...

وهنا صدر قرار بمنع منح صور أقمار التجسس الأمريكية لجهاز (الموساد)، إلا في حدود خمسة وأربعين ميلاً، من (تل أبيب)،

باعتبار أن هذه المساحة تكفي لحماية الأمن القومي الإسرائيلي....  
ولم يعجب هذا القرار الإسرائيليين بالطبع، وحاولوا  
جاهدين إلغاءه، إلا أن الرد جاءهم أن الأمن القومي الأمريكي  
يتعارض مع هذا...

وهنا لجأ (الموساد) إلى لعبته التقليدية، فجمع كل المعلومات  
عن العاملين في رصد وتحليل صور الأقمار الصناعية التجسسية  
الأمريكية، ونجحوا في الإيقاع بأحدthem، وتجنيده للعمل  
لحسابهم، بحيث ظل لأكثر من سبع سنوات، ينقل إليهم سرًا  
صور الأقمار الصناعية، التي تتجاوز المساحة المسموح لهم بها...  
في تلك الفترة، انتبهت المخابرات الأمريكية إلى أن التحركات

السياسية والعسكرية الإسرائيلية، تتم على نحو يوحى بحصو لهم  
على ما يتتجاوز مساحة الأميال الخمسة والأربعين المسموح بها،  
فقمت بمتابعة ومراقبة ومراجعة كل العاملين في هذا المضمار،  
إلى أن تم كشف ذلك الجاسوس، في موقع شديد الأهمية، يتيح  
له الاطلاع على كل صور أقمار التجسس بلا استثناء، وتم  
إلقاء القبض عليه، وكان هذا سببًا في حدوث أزمة دبلوماسية  
محدودة، بين (إسرائيل)، والولايات المتحدة الأمريكية...

ولكن عالم الجاسوسية والمخابرات، لا يختلف كثيراً عن عالم  
السياسة، من حيث إنه لا يتم فيه قطع كل العلاقات، من منطلق  
تجاوز أحد الأطراف، وإنما يتم وضع ضوابط جديدة للتعامل...  
هذا لأن عالم الجاسوسية والمخابر عالم شديد التعقيد إلى حد

يصعب وصفه...  
ولهذا قصة أخرى.

\* \* \*

جندي بسيط، في الجيش الإسرائيلي، يجلس في أحد مناطق خط (بارليف)، في بداية السبعينات، خرج لتدخين سيجارة، بالقرب من الساتر الترابي، الذي يحمى خط (بارليف)، ويطل على الشاطئ الآخر لقناة (السويس)، حيث تركزت قوات الجيش المصري آنذاك...

وفي سرعة، وعندما صار وحيداً، أخرج الجندي الإسرائيلي من جيبه كيساً صغيراً، وضع فيه بعض تراب الساتر، ثم دسه في جيبه، وعاد إلى مكانه، داخل خط (بارليف)، ونام ملء عينيه... مندوبون من وزارة الزراعة المصرية، زاروا (ألمانيا)، للتعاقد على مضخات مياه جديدة، تملك من القوة ما يكفي لري مناطق كبيرة من الحقول، بالسرعة المناسبة...

شاب فرنسي تقدم بطلب عمل، في أحد مصانع الكيماويات الفرنسية، وجذب انتباه رؤسائه؛ بنشاطه الملحوظ، وعقليته التي تفوق مستوى الدراسي، حتى أنه انتقل للعمل في قسم خاص، يقوم بتصنيع مادة حارقة معقدة التركيب...

رجل في الأربعينات من عمره، انضم إلى طاقم العمال، في مصنع بلجيكي؛ لصنع المضخات الماصة الكابسة، وساهم في استكمال شحنة من تلك المضخات، مرسلة إلى الشرق الأوسط...

رجل أعمال إسرائيلي، تربطه علاقات طيبة، بعده من السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، يوقع عقداً لبعض التركيبات المهمة، في قلب (سيناء)...

وفي المخابرات المصرية، تجتمع كل هذه المعلومات... عينة الرمال، التي أرسلها المجنّد الإسرائيلي إلى فتاته في (روما)، وعينة المادة الحارقة، التي أرسلها الفرنسي الشاب من (باريس)، إلى (لندن)... وتركيبة المضخات الماصة الكابسة، التي أرسلها الرجل البلجيكي، على ميكروفيلم دقيق... ووصول شحنة المضخات الزراعية، التابعة لوزارة الزراعة... ويدأ رجال المخابرات في تحليل العينات... عينة تربة الساتر الترابي، حددت القوة الدافعة، اللازمة لإذابته في مياه القناة....

وهكذا، اشتركت العينات التربوية، مع مضخات وزارة الزراعة، التي انتقلت إلى الجيش، في إزالة الساتر الترابي، مع اندلاع حرب ١٩٧٣ م...

أما عينة المادة الحارقة، وتركيبة المضخات الماصة الكابسة، فقد ساعدت على إجراء تجارب عملية، في نيل (حلوان)، على مواجهة النابالم، الذي قال الإسرائيليون أنهم سيضخونه، على سطح القناة، في حالة محاولة المصريين عبورها...

التجارب انتهت إلى تدمير تسعين في المائة من موجة الهجوم الأولى، لو تم ضخ النابالم بالفعل...

وهنا جاء دور رجل الأعمال، الذي يحيا بهوية إسرائيلية منذ سنوات، متخلّياً عن هويته المصرية الأصيلة، ودون أن يتخلّى، ولو لحظة واحدة عن انتهائه لوطنه الأصلي (مصر) ...  
وعبر رجل الأعمال هذا، وصلت خريطة أنابيب النابالم، إلى المخابرات المصرية ...

وفي فجر السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، بدأت عمليتان هما الأخطر والأهم، في تلك الحرب ...  
العملية الأولى انزلت فريقاً من الكوماندوز، في قلب (سيناء)، لقطع أنابيب النابالم، بحيث يضخ السائل الحارق في قلب الرمال، وليس في القناة ...  
أما العملية الثانية، فقد قام بها رجال الضفادع المصرية؛ لسد فتحات النابالم، بحيث لا يصل السائل الحارق إليها، مهما كانت الاحتمالات ...

وعندما بدأ عبور قناة (السويس)، أسرع الإسرائيليون يضغطون أزرار تشغيل مضخات النابالم الماصة الكابسة، التي صنعتها المصانع البلجيكية خصيصاً من أجلهم ...  
و عملت المضخات بكل كفاءة... ولكن النابالم الحارق لم يصل إلى سطح القناة، فالأنابيب مقطوعة، والفتحات مسدودة... ونجح العبور، بأقل خسائر يمكن تصورها...  
هكذا يكون عمل أجهزة المخابرات دوماً... أفعال عديدة، في أماكن شتى، تجتمع كلها على مائدة المعلومات والتحليل،

وخرج بتائج شديدة الأهمية والخطورة...

والشخص العادي، لا يمكنه أبداً فهم ترتيب الأحداث، الذي يقود إلى التائج؛ فهو يرى دوماً خطوة واحدة، قد تبدو له بلا معنى، أو بلا قيمة، ولكن ضباط الحالة، الذين يديرون اللعبة كلها، هم الذين يرون الصورة الكاملة، والذين يستطيعونربط الأمور بعضها البعض؛ للوصول إلى التائج المنشودة...  
 تماماً مثل لعبة البازل...

كل قطعة منها، لا يمكنها أن توحى لك بالصورة الكاملة، مهما حاولت؛ لأنك لا ترى سواها...

ولكن المسؤول عن جمع القطع، ورصفها إلى جوار بعضها البعض بالوسيلة الصحيحة، هو الذي يستطيع رؤية الصورة الكاملة...

وهذا ينطبق على رجال المخابرات أنفسهم، فيما عدا ضابط الحالة، المسؤول عن الصورة الكاملة للعملية...

ففي المخابرات قاعدة أساسية تقول: «المعرفة بقدر الحاجة»....

وهذه القاعدة تعني، أنه إذا ما تولى شخص ما، مهمة بعينها، فله كل الحق، في معرفة وجمع كل المعلومات الالزمه؛ لأداء مهمته على أكمل وجه، ولكن ليس من حقه السؤال عن سبب قيامه بمهمته تلك، أو عن علاقتها بالصورة الكاملة...

وهذه القاعدة تتبعها كل أجهزة المخابرات، في كل مكان

في العالم، والغرض منها هو الحفاظ على أقصى درجات السرية للعملية، والتي تضم، أو ربما تضم، عدداً لا يأس به من المهام الصغيرة أو الكبيرة، فكل شخص يقوم بمهامته فحسب، على أكمل الوجه؛ ليس لهم بقطعة من البازل، الذي يقوم بتكونيه ضابط الحال، وهو ضابط المخابرات المسؤول عن العملية الكاملة، والذي يقوم بتوزيع المهام وتحديدها، وفقاً للخطة التي وضعها مع فريقه، بحيث تقوم كل المهام بخدمة الغرض الأساسي للعملية، حتى ولو بدت متباعدة، وغير مترابطة، بهدف منع العدو من معرفة، أو حتى استنتاج الهدف الرئيسي للعملية... وكلما ازداد تعقيد المهام وتبعادها الظاهري، زادت حيرة العدو في فهمها، وفي تحليلها وبالتالي...

وفي بعض الأحيان، تكون من بين تلك المهام ما ليست له أية صلة مباشرة بالعملية الرئيسية، وهذا لكي يحاول العدو وضع تحلياته مستنداً إليها، في حين أن الهدف الرئيسي منها هو إرباكه، ودفعه إلى جانب يخالف الهدف الرئيسي تماماً... وهذا هو أعظم فن من فنون عالم الجاسوسية والمخابرات... التمويه والإرباك، هو فن أيضاً شديد التعقيد... وله حديث آخر.

\* \* \*

كيف تربك الخصم؟!  
ربما يكون هذا أحد أهم فنون عالم المخابرات والجاسوسية،

والفن الذي يعتمد عليه نجاح تسعين في المائة من عمليات التجسس، التي تدور في شتى أنحاء العالم بلا انقطاع، وطوال الوقت...

فلاعبة المخابرات أشبه بمباراة قوية في الشطرنج، بين بطلي العالم، كل منها يدرك جيداً كل فنون اللعبة، وكيفية الاستفادة إلى أقصى حد، من حركة كل قطعة على الرقعة، وكل منها يحاور ويناور، وهو يدرك أن الطرف الآخر يراقبه في دقة، ويدرك اللعبة كما يدركها، وعليه أن يسعى لتشتيت انتباذه، وخداعه بحركات جانبية، حتى يلتف حول ذكائه، ويربح المباراة...

وفي هذا الصدد، تستطيع أن تقول: إن ألعاب عالم المخابرات تشبه ألعاب الحواة، عندما يضع الحاوي شيئاً في يده أمام عينيك، ثم يحرك يده في سرعة، ويفتحها فتجد أن ذلك الشيء قد اختفى، قبل أن يعود هو إلى إظهاره، فيبهرك بعلمه...

وطرق الإرباك والالتفاف في عالم المخابرات هي فن ما بعده فن... عندما يقوم جهاز مخابرات بعملية كبيرة مثلاً، وتحتاج إلى عدد من العمليات الفرعية لبلوغها، فقد يقوم في الوقت ذاته بعملية لا تتنمي بصلة للعملية الأصلية، من خلال عملاء لا يمثلون له أهمية ذات شأن، ويسير فيها على نحو يمكن كشفه، بحيث يقوم بجذب انتباه العدو إلى هدف زائف، يرصده، ويسعى إليه، ويوضع الخطط للسيطرة عليه، وينشغل به، مما يمنحك جهاز المخابرات الأساسي الفرصة لبلوغ هدفه الحقيقي، من خلال العملية الأصلية، التي تدار بشكل جديد، شديد التعقيد والتركيب...

وفي أحيان أخرى، يتم تجنيد جاسوس، ليس بغرض الاستفادة منه، وإنما بغرض كشفه، كتغطية لعميل آخر أكثر أهمية، ففي إحدى العمليات، خلال الحرب العالمية الثانية، دفع البريطانيون عميلاً المانياً إلى القيام بمهمة محدودة، ثم جعلوا عميلهم الأساسي يكشف أمره، بحيث يكتسب العميل الأساسي المصداقية، ويثبت أنه وطني مخلص لبلاده...

في تلك العملية، كان العميل الأقل شأنًا هو الضحية، ولكن دعونا لا ننسى أن المخابرات البريطانية لم تtower عن دفع (اليابان) إلى مهاجمة ميناء (بيرل هاربور) الأمريكي، والذي راح ضحية الهجوم عليه أكثر من ألف وخمسين شخص، وخسرت فيه (أمريكا) سبعين في المائة من قطع أسطولها، فقط لتدفع (أمريكا) إلى دخول الحرب العالمية الثانية، بجندتها وأسلحتها...

اللعبة الأكثر فاعلية، في فن المراوغة وإرباك العدو، هي عندما تكشف المخابرات جاسوسًا قويًا، يثق العدو فيه وفي قدراته، وتدرك أنه ينقل إلى العدو معلومات باللغة الأهمية، ثم لا تلقي القبض عليه، وإنما تستخدمه كوسيلة لإرباك والتشویش.. تمامًا كما حدث في حالة (إبراهيم سعيد شاهين) و (انسراح على موسى)، اللذين جندهما الإسرائيرون في (سيناء)، ثم ساعدوهما على الانتقال إلى (القاهرة)، خلال فترة ما بعد نكسة ١٩٦٧م، وما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م...

وفور انتقالها إلى (القاهرة)، بدأ المحسوسان في عقد عدد

كبير من الصداقات، في محيط سكنهما، وعدد أكبر من العلاقات، عبر عملهما وتجارتها الوهمية، وخاصة مع بعض المجندين وعُمَال المطارات؛ للحصول على البيانات والمعلومات، عن تحركات الجيش، وتسلیحه واستعداداته، وسرعان ما كشف ابنها الأكبر (نبيل) ما يفعلانه، مما جعله يطالعها باقتسام التورته، فزادوا من مصروفه، وطلبو منه معاونتهم في لعبة التجسس، ثم سرعان ما ضما إليها ابنها الأصغر (محمد) أيضاً، لتحول العائلة كلها إلى مستنقع خيانة كبير... .

وعلى الرغم من أن (نبيل) قد بذل قصارى جهده؛ لجلب البيانات والمعلومات، حتى يثبت أنه مناسب للعمل، وحتى يمكنه المطالبة بمزيد من المال، إلا أنه ارتكب أكبر غلطة، يمكن أن يرتكبها جاسوس، فقد راح ينفق عن سعة، بما لا يمكن أن يتناسب مع دخل الأسرة ووضعها، مما جذب انتباه عيون صقور المخابرات المصرية، وجعلهم يتسلّلون عما تفعله تلك الأسرة... وفي منتصف عام ١٩٧٢م، كشفت المخابرات المصرية اللعبة، وعلى الرغم من هذا، فهي لم تلق القبض على أي من أفراد تلك العائلة المسمومة... .

لقد قرر صقور المخابرات التعاون معهم، على نحو خفي، لكي يحوّلهم من جواسيس، إلى سلاح ممتاز لإرباك العدو، ودفع المعلومات الخاطئة إليه... .

ولقد كانت سعادة (نبيل) غامرة، عندما التقى بأحد

المجندين، الذين يقضون مدة خدمتهم على الجبهة، فعمل على توثيق صداقتها، وبدأ يدعوه إلى المنزل، ويقضي معه سهرات خارجية أيضاً، وينفق عليه بسخاء؛ حتى يحصل منه على كل المعلومات عن الجبهة واستعداداتها، وعن إجابة السؤال، الذي ظل يشغل (إسرائيل) طوال ست سنوات كاملة...

هل تستعد (مصر) لشن حرب ثأرية أم لا؟!...  
ولقد كان ذلك المجنّد ساذجاً طيب القلب، ما إن تلقى عليه مجرّد استفسار، حتى يثرثر بكل ما يعلمه دون تحفظ، وهذا عمل (نبيل)، وعملت الأسرة كلها على تقريره منها، وضمان استمرار علاقته بها...

والواقع أن ذلك المجنّد الساذج الطيب البسيط، كان أحد رجال المخابرات العامة، والذي انتحل تلك الصفة؛ حتى يصبح عيناً للجهاز، داخل منزل العائلة المسمومة، وحتى ينقل إليهم بعض المعلومات الكاذبة، التي يدسّها بين معلومات صحيحة، تصل عبر جواسيس الأسرة إلى العدو، فيبني عليها كل حساباته، مما يربك خطته، ويفسد معلوماته...

ولقد كان أهم دور قام به المجنّد الزائف، هو اقناع (نبيل) و(إبراهيم) و(انشراح)، بأن كل شيء على الجبهة يوحى بأنه لا حرب قادمة، ولو بعد خمس سنوات....

ثم قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وكانت صدمة عنيفة للإسرائيлиين، أثبتت أن صقور المخابرات المصرية هم الأذكي والأبرع،

والأقدر على استخدام وإدارة لعبة الإرباك والخداع والماوغة...  
وبعدها بشهور قليلة، صدر أمر بإنهاء عملية (إبراهيم)  
(انشراح)، فتم القبض على العائلة المسمومة، وصدرت  
الأحكام العادلة على من خانوا الوطن...  
هكذا تدور اللعبة...  
وهكذا يكون الفن...  
والحديث عن فنون المخابرات لا ينتهي، ولكن لا يمكن  
التوقف هنا، دون الإشارة إلى فن أخير...  
أخطر فن.

\* \* \*

الجاسوسية فن...  
والجاسوسية المضادة أيضاً فن...  
ومن أهم وأخطر فنون الجاسوسية المضادة، ضرب علاقة  
المهابة والاحترام، بين الشعب وجهاز مخابراته، مما يقطع الصلة  
بينهما، ويجعل المواطن يشعر، وكأن جهاز مخابراته، الذي يفترض  
منه أن يحمي أمنه، ويصون أسراره، ويكون درعاً دائماً في وجه  
أعدائه، وسيفًا يحول بينهم وبين أمن الوطن وسلامته، هو جهاز  
فاسد، وخائن...

على الرغم من أن هذا مستحيل عملياً...  
هذا لأن فساد جهاز المخابرات لا يعني ضعف المخابرات  
فحسب، ولكنه يعني انهيار كل كيان الدولة تدريجياً، حتى لا

يعود لها كيان أو وجود، وسط عالم متصارع، متلاطم الأمواج في  
عنف، تدور فيه حرب الجاسوسية والمخابرات طوال الوقت بلا  
انقطاع أو توقف، ولو لثانية واحدة....

ومادامت الدولة، أية دولة، قائمة، يجد فيها الناس قوت  
يؤمنهم، زاد أو نقص، فهذا يعني أن جهاز مخابراتها - أيًا كان -  
يعمل بكفاءة، ويواصل حمايتها بنجاح...

هذا لأن عمل أجهزة المخابرات، مع سريته البالغة والدائمة،  
ضرورة حتمية؛ لبقاء أية دولة، وهو أشبه بالأنفاس التي تردد في  
صدورنا...

تنفسها طوال الوقت، ونملأ صدورنا بها، ونحيا ونعيش  
بالهواء الذي تحبله لنا، ولكننا لا نشعر أبدًا بأننا نتنفس؛ لأننا  
نفعل هذا طوال الوقت، في سلالة وتلقائية...

فقط نبدأ الشعور بأنفاسنا، عندما تضيق، أو تصاب بأزمة  
ما، تمنع سلاسة التنفس، وتجعله ثقيلاً....  
هكذا عمل المخابرات....

لو أنها تعمل بكفاءة ودقة ونجاح، ودون كلل أو ملل،  
وعيونها ترصد كل شيء، طوال ساعات الليل والنهار، ولا  
تجامل أو تحابي أحداً، على حساب أوطانها، فنحن لا نشعر  
بوجودها، ونتصور أنه لا عمل لها...

أما لو توقفت، ولو لساعة واحدة، فسيتهز الأعداء  
الفرصة، وينقضون بلا رحمة أو شفقة، وعندئذ سنشعر بغياب

دور المخابرات، وبغيابها عن الساحة....

ومن أهم فنون الجاسوسية، في لعبة هدم الدول وإضعافها، أن يدفع جهاز مخابرات ما، مواطني دولة معادية له، أو مترصدةً لمحاولاته، إلى الشك في جهاز مخابراتهم، أو توجيه الاتهامات بالفساد والتجاوز إليه...

ولأن عمل المخابرات سري، ويعتمد على مصادر يستحيل كشفها، أو يمكن أن يؤدي كشفها إلى إفساد عدد آخر من عمليات، تعتمد على المصادر نفسها، فالمخابرات لا تجد وسيلة مناسبة للرد، أو إثبات أنها تعمل كما ينبغي..

ومن هذا المنطلق، يسعى العدو إلى دفع المزيد من الشائعات والأخبار الكاذبة إلى الشارع؛ لاستشارته على جهاز مخابراته، وهذا التحقيق هدفين أساسين...

أوّلها إنشاء شعور شعبي، بالعداء لجهاز المخابرات، مما يضعف من تركيزه، ويضعف من ثقة الناس فيه، في الوقت ذاته، فلا يميلون إلى التعاون معه، أو مساعدته إليه، فيفقد بهذا ركيزة هامة، من ركائز سبل معلوماته...

والهدف الثاني أن يستطيع، مع ضعف ثقة الناس بجهاز مخابراتهم، أن يجتذب إليه ضعاف النفوس، من أبناء الشعب العدو، فيصنع منهم طابوراً خامساً، يسعى دون حتى أن يدرى، إلى تحطيم الجبهة الداخلية لوطنه، عبر ترديد الشائعات، التي يدسها العدو في مهارة؛ لتوسيع الصدع بين الشعب ومخابراته

رويداً رويداً.....

وفي كل الكتابات والدراسات، التي تتحدث عن عالم الجاسوسية والمخابرات، تم تصنيف نوع من الجواسيس، باعتباره أقوى أنواع الجواسيس، وأكثرهم فاعلية وخطورة، وهو الجاسوس، الذي لا يعلم أنه جاسوس...

وهنا يدور التساؤل: كيف يمكن أن يكون الإنسان جاسوساً، دون أن يعلم أنه جاسوس؟!....

وإجابة هذا الأمر ليست عسيرة، كما قد يتصور البعض؛ فهناك أنواع عديدة من الجواسيس، الذين لا يدركون فعلياً أنهم جواسيس، مثل الشخص الذي يتحدث في مكان علني، عن بعض أسرار جهة عمله، غير مدرك ما الذي يمكن أن يسفر عنه الأمر، إذا ما كانت هناك آذان تستمع، وعقول تتذكر، وأعين ترصد، وأجهزة معادية بكمالها، تجمع كل معلومة، صغيرة أو كبيرة، وترصدها إلى جوار بعضها البعض؛ لتصنع منها صورة حيوية واضحة كاملة، يمكن أن تتحول إلى سلاح قاتل، عندما تحين اللحظة المناسبة لاستخدامها....

وهناك الشخص، الذي يصدق كل ما يصدر عن العدو من شائعات، ويرددُها، ويضيف إليها ما يؤيدها، فيتحول بهذا إلى صدى للعدو، ومنفذ لأهدافه دون حتى أن يدري ...

الأمر الهام، الذي ينبغي أن ننتبه إليه وندركه، هو أن الشائعات، التي يطلقها العدو، لا تكون أبداً بسيطة ومباشرة،

مثل أية شائعة، يطلقها شخص ما، أو تطلقها جماعة ما؛ لتحقيق أهداف محدودة...

الشائعات التي يطلقها العدو، تكون دومًا شائعات مدروسة بعناية، يقوم على وضعها فريق كامل من المحترفين في هذا المجال، ويعتمدون فيها على مجموعة من الحقائق المعروفة، مع إعادة صياغتها، وتحديد مضامين مخالفة لها، وترتيبها على النحو الذي يحقق المستهدف منها، كما لا يتم إطلاق الشائعة، إلا بعد التمهيد لها، بشائعات أصغر، تحوى وسطها بعض الحقائق، مما يمنح الشائعة النهائية صورة زائفه من المصداقية، تعتمد في الأساس على مشاعر الناس، وعلى رغبتهم في استنتاج كل ما يخفى عنهم، وعلى ما تمثل إليه نفوسهم، بحيث تخرج الشائعة في صورة نهائية، قابلة للتصديق، على الرغم من عدم ربطها بأية أدلة أو براهين...

وبهذا يتحقق فن آخر من فنون الجاسوسية، وهو فن إثارة الشعوب، وتجنيدها لتحقيق أهداف العدو، دون حتى أن تدرى أنها تفعل هذا!!!

وفي كل الأحوال، يعمل كل جهاز مخابرات، من أجل الحفاظ على الأمن القومي لوطنه، حتى لو أدى هذا إلى هدم أوطان أخرى....

فعلم الجاسوسية والمخابرات في النهاية، أشبه برقعة شطرنج كبيرة، يحتاج ربح المباراة إليها إلى عمل دؤوب، لا ينقطع ليلاً

أو نهاراً...

وإلى عيون ترصد، وعقول تحلّل، وقلوب لا تخشى في الحق  
لومة لائم...  
إنه عالم العقول...  
والجرأة...  
والابتكار...  
والفن..  
كل الفن.

\* \* \*

# ملاحق جاسوس النصف قرن

خمسون عاماً تمر، على أول ظهور لأشهر جاسوس على الشاشة، طوال نصف قرن من الزمان، دون أن تنجح أية شخصية جاسوسية أخرى في منافسته، أو حتى بلوغ ذلك المستوى الذي بلغه، من عدد مشاهديه، أو إيرادات أفلامه، بدءاً من (دكتور نو)، وحتى (казينو روיאל)... والعميل السري، أو الجاسوس البريطاني الأشهر (جييمس بوند)، الذي يحمل الرقم (٠٠٧)، وهو ذلك الرمز الكودي المتميّز، الذي يعني انه يحمل تصريحًا دائماً بالقتل، دون الرجوع إلى رؤسائه، بدأ كروايات أو قصص قصيرة، لمبتكر الشخصية (أيان فليمنج)، والذي كون الشخصية من مزيج من بعض الشخصيات، التي التقى بها، أو عمل معها، عندما التحق بالمخابرات البحرية البريطانية، في زمن الحرب العالمية الثانية...

والطريف أن (فليمنج) كان شاباً عابشاً، لأسرة انجليزية عريقة، يئس أمه من محاولة تقويم سلوكه، أو حتى إقناعه بالعمل في شركة الأوراق المالية، التي تملكها الأسرة، فسعت لإلحاقه بكلية عسكرية؛ لعل هذا يساعدته على الانضباط، إلا أنه استغل وسامته الشديدة، لإقامة علاقة مع زوجة مدير الكلية

العسكرية، أدى اكتشاف أمرها إلى فصله من الكلية، مما أجبره على العمل في شركة الأوراق المالية للأسرة، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية أجبر الشركة على إغلاق أبوابها، وخشيت الام من عودة (فليمنج) إلى حياة العبث، ومن اضطراره للالتحاق بالجيش، والسفر إلى الجبهة، فسعت للاحقة بوظيفة عسكرية إدارية، عبر صديق للأسرة، اخذه سكرتيرًا خاصًا، في المخابرات البحرية البريطانية...

وهناك تألفت قريحة (فليمنج)، وظهرت مواهبه الفذة، في ابتكار وسائل العمليات الاستخباراتية غير المعتادة، والتخطيط للضربات على نحو غير متوقع... وعلى الرغم من مواهبه، لم يتجاوز (فليمنج) وظيفته كسكرتير عسكري، داخل المخابرات البحرية، حتى وضعت الحرب أوزارها، فتم صرفه من الخدمة، ليعود مضطراً للعمل في شركة الأوراق المالية، التي فتحت أبوابها مرة أخرى بعد الحرب...

في تلك الفترة، ابتكر (فليمنج) شخصية (بوند)، الجريء، المغامر، صاحب الشخصية المميزة، واختار له اللهجة الإسكتلندية، التي أعجبته من رئيسه المباشر، في فترة العمل في المخابرات...

ومن مجموعة قصص قصيرة إلى رواية و أخرى، جذبت الشخصية انتباه واهتمام صناع السينما، و اختاروا قصة (دكتور نو)، كأول عمل يقدم (بوند) على الشاشة، والطريف أنهم

اختاروا الممثل ذائع الصيت آنذاك (جريجورى بيك)؛ لأداء دور (جيمس بوند)، ولكن (بيك) كانت له مطالب، رفض المخرج الرضوخ لها، فقرر أن يتحدى شعبية (جريجورى بيك)، ويختار مثلاً جديداً؛ للعب دور (بوند) على الشاشة... باختصار، لقد راهن على الشخصية، بأكثر مما راهن على النجم...

وعندما بدأ اختيار من يؤدى دور بوند، لم يرق أي من المتقدمين للمخرج (تيرنس يونج)، حتى انه فكر في إعادة التفاوض مع (جريجورى بيك)، لولا أن ساقت إليه الأقدار (شين كونرى)، الذي جذب بعض اهتمامه، بلهجهة الاسكتلندية المتميزة، وقامته الرياضية المشوقة، إلا أنه لم يحسم قراره بشأنه تماماً، وبدأ التفكير في (بيك)، حتى بعد انصراف (كونرى)... وكان (يونج) منهماً في التفكير أمام النافذة، عندما شاهد (كونرى) ينصرف، بقامة مشوقة، وخطوات واثقة قوية، فهتف فجأة: «أريد هذا الرجل»...

وقد كان... وفي عام ١٩٦٢م، ظهر أول أفلام (بوند) (دكتور نو)، المأخوذ عن رواية بنفس الاسم، كتبها (فليمنج) عام ١٩٥٨م، وقام ببطولته (شين كونرى)، مع صاروخ الإغراء في ذلك الحين (أورسولا أندرسن)، حيث دارت الاحداث في (جاميكا)، وهناك يتصدى (بوند) للعدو (دكتور جولياس نو)، الذي يعترض إطلاق الصواريخ الأمريكية، بموجات راديو قوية... لم تكن رواية (دكتور نو) هي أول روايات (فليمنج) عن

شخصية (بوند)، وإنما كانت روايته الأولى هي (كازينو روالي)، والتي لم تنتج سينمائياً إلا بعدها عشرات السنين، ولكن (دكتور نو) كانت بداية الانطلاق لشخصية (بوند) في عالم السينما، ولعدد آخر من شخصيات حاولت تقليله، في سينما الجاسوسية، ولكن تركيبتها لم تتحقق النجاح ذاته...

ولقد تعاقب عدد من الممثلين على اداء شخصية (بوند)، خلال نصف قرن، فمن بداية الشخصية سينمائياً، مع (شين كونر)، ثم محاولة إحلاله بالممثل المسرحي (جورج ليزني)، فقط مجرد التشابه الشكلي بينهما، ثم فشل (ليزني) بعد فيلم واحد، و اختيار (روجر مور)، بطل الحلقات التليفزيونية (القديس)، للعب دور (بوند) لعدة سنوات، ثم (تيموثى دالتون)، وبعده (بيرس بروسنان)، ثم (دانیال كريج)...

تعاقب من أدوا الدور، وبقيت شخصية (بوند) تتحدى عالم سينما الجاسوسية، وتنتقل من نجاح إلى نجاح، على نحو تحول إلى أسطورة على الشاشة، تصعب منافستها، بعد نجاح دام واستقر لنصف القرن...

وعلى الرغم من ان (بوند) يمثل التيار الكلاسيكي النمطي، في شكل وطبيعة الجاسوس، ومن ان عشرات الشخصيات الأخرى قد سعت لمواكبة التطور، ونجحت في رسم صورة مغايرة للجاسوس، إلا أن شخصية (بوند) بقيت مطلوبة على الشاشة، بكل كلاسيكيتها ونمطها، فهو الجاسوس الوسيم،

الخذل، الذكي، صاحب العقلية التعلية، والمهارات التي لا حدود لها، والذي يواجه دوماً شخصيات غير عادية، لكل منها نمط غير تقليدي، وتسعى كلها إلى هدف واحد، ألا وهو السيطرة على العالم، على نحو أو آخر...

فالجمهور أحب (بوند) على ما هو عليه، وعشق دهاءه، وذكاءه، وسعة حيلته، وحتى شغفه بالجميلات، والملابس الأنثقة، والأجهزة الحديثة المبتكرة، التي يفاجئ بها جمهور السينما دوماً، في مواجهاته مع الآخرين...

المدهش أن معظم الابتكارات، التي ظهرت في عالم (بوند)، والتي بدت مبهرة في حينها، قد صارت اليوم سلعاً متاحة، على شبكة الانترنت، لأي مستهلك عادي، ولم تعد مبتكرات (بوند) هي التي تثير المشاهد، وإنما (بوند) نفسه، والذي يتضرر الكل فيلمه القادم في شوق ولهفة، دلالة على نجاح الشخصية المبهرة، خلال نصف قرن...

وعلى الرغم من النجاح الكبير لأفلام (جيمس بوند)، في المجتمعات العربية على وجه العموم، والمجتمع المصري على وجه الخصوص، إلا أن شاشات السينما لدينا لم تنجو بعد أية شخصية محاثلة، ربما لأن القانون يفرض مراجعة الأجهزة الاستخباراتية والأمنية مثل هذه الأعمال الدرامية، على الرغم من ضعف الثقافة الدرامية لدى رجال الجهات الأمنية والاستخباراتية في هذا الشأن، وحساسياتهم المفرطة تجاه كل ما يتعلّق بهم، وإصرارهم

على أن كل ما لا يتوافق مع الحقيقة والواقع، بنسبة مائة في المائة، يسيء إليهم وإلى أجهزتهم، على الرغم من أننا لم نسمع أو نقرأ دراسة واحدة، تشير، أو حتى توحى بأن أفلام (جيمس بوند) أو مشيلاتها، قد أساءت إلى جهاز المخابرات البريطاني، أو الأمريكي، أو أي جهاز آخر، بل على العكس تماماً، لقد زادت من انبهار العامة به، ومن احترامهم له، ولكنها مشكلة الرقابة دوماً، أيًّا كانت جهتها، أنها تصر على تسييد فكرها ورؤيتها، دون محاولة النقاش أو المراجعة...

وبغض النظر عن عدم وجود شخصيات سينمائية استخباراتية على الشاشة، على الرغم من وجودها في الأدب المطبوع، فأفلام الجاسوسية على نحو عام، لم تبلغ لدينا حد الفيلم المتقن، بأي حال من الأحوال، فقد يَـ شاهدنا فيلم (جريمة في الحي الاهادي)، والذي بدا فيه الجواسيس في صورة ساذجة ضعيفة، يُـ يسلل لعابهم على امرأة جميلة، ويُـ يدمون المواد المخدّرة، ويفقدون أعصابهم في سرعة، وكل ما يخالف طبيعة أصغر جاسوس، في أصغر دولة، ورأينا فيلم (الجاسوس)، ملك الترسو آنذاك (فريد شوقي)، والذي حاول من خلاله تقليد أفلام وشخصية (بوند)، حتى أنه اختار للبطل أن يكون ضابطاً في القوات البحرية؛ حتى يرتدي نفس الزى الذي ارتداه (بوند)، في بعض أفلامه، وفي ذلك الفيلم شاهدنا الفنان (عزت العلايلي) يلعب دور الجاسوس، على النحو الذي يناسب الأفلام الهزلية،

بأكثر ما يناسب الأفلام الجادة؛ إذ يرتدي معطف مطر، ومنظر شمس أسود في قلب الليل، ولا تنقصه سوى لافتة توضع على صدره، وعليها إشارة واضحة إلى أنه جاسوس.....

ولكن أفلام الجاسوسية الأفضل، لم تظهر على الشاشة، إلا عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣م، عندما ظهر أول فيلم عن الجاسوسية، مأخوذ عن قصة حقيقة، ومعالج بحرفيه، جعلته أفضل فيلم جاسوسية مصرى، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور، وهو فيلم (الصعود إلى الهاوية)، والذي روى تفاصيل واحدة من أنجح عمليات المخابرات العامة المصرية، قبيل حرب أكتوبر ...

والفيلم الذي قام ببطولته الفنان القدير (محمود ياسين)، مع النجمة الراحلة (مديحة كامل)، وآخرجه (كمال الشيخ)، تعامل ولأول مرة على الشاشة العربية، مع عالم المخابرات بوعي واقتدار، وبحرفية تتناسب مع الواقع الفعلى لذلك العالم المثير، وفتح الباب لنوعية جديدة من دراما الجاسوسية، والتي كان الفيلم هو نقطة التحول في مسارها...

وهذا يختلف بالتأكيد، عنها خرجت علينا به (نادية الجندي)، من مجموعة من أفلام ساذجة المضمون، ولكنها حققت نجاحاً جماهيرياً كبيراً، فقط لأنها تتحدث عن عالم المخابرات، بكل غموضه وأسراره... في ذلك الحين، ومع قلة عدد أفلام المخابرات، على الشاشة الكبيرة، فاجأ التليفزيون المصري مشاهديه، بواحد من أروع مسلسلات الجاسوسية، عبر تاريخ الدراما كله، وهو

مسلسل (دموع في عيون وقحة)، والذي قام ببطولته الفنان (عادل إمام)، مع (معالي زايد)، و(مشيرة)، و(مصطفى فهمي)، وروى قصة (أحمد الهوان)، الذي حاول الإسرائيлиون تجنيد، عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م، ولكنه لجأ إلى المخابرات المصرية، الذي جعلته يتعاون معها، على خداع العدو الإسرائيلي، الذي وثق في انتهاء إليه تماماً، حتى أنه منحه أحد أقوى وأحدث أجهزة الاتصال حينذاك، والذي لم يكن سوى النسخة الأولى، من الهاتف المحمول، الذي يحمله كل شاب الآن...

حول المسلسل، الذي كتبه الراحل المبدع (صالح مرسي)، اسم (أحمد الهوان) إلى (جمعة الشوان)؛ لأسباب أمنية صرفة، وتعلقت عقول وقلوب شعب (مصر)، من (الاسكندرية) إلى (أسوان) بمجموعة المسلسل، الذي يطلق عليه الناس اسم (مسلسل جمعة الشوان)، حتى أن الشوارع كانت تخلو من المارة، في زمن عرضه، وتألق فيه (عادل إمام)، وهو يؤدي دور الشاب البسيط، الذي وجد نفسه أمام موقف يفوق إمكانية، فلجأ إلى مخابراته، التي أدارت صراعاً عبقرياً مع العدو، وربحته في النهاية، لتحقق انتصاراً جديداً على المخابرات الإسرائيلية...

وتعود أهمية هذا المسلسل بالتحديد، إلى أنه قد وضع المشاهد أمام حالة جديدة من دراما الحاسوبية، إذ لم يكتف عم (صالح) بنقل تفاصيل العملية الاستخباراتية، وإنما صنع خلفية اجتماعية ممتازة لبطله (جمعة الشوان)، وجعلك تشعر به،

وبحياته، ومعاناته، ومشكلاته، وتفهم مبررات سفره، وتعامله مع مندوب المخابرات الإسرائيلية، ثم تفاعل مع موقفه، عندما قرر، مع كل ما يمر به من أزمات، أن يتخلّى عن كل إغراءات العدو، ويمد يده إلى وطنه..

وكما كان فيلم (الصعود إلى الهاوية) عالمة فاصلة، في سينما الجاسوسية، على الشاشة الكبيرة، صار مسلسل (دموع في عيون وقحة)، عالمة فاصلة في دراما الجاسوسية، على الشاشة الصغيرة... وبعدها لم يكن من الممكن انتاج مسلسلات ساذجة المعنى، أو بسيطة المضمون، وصار المسلسل هو النموذج، الذي ينبغي أن تسير عليه المسلسلات التالية...

ولكن دراما الجاسوسية لم تحظ بعدها بالاهتمام الكافي، على الرغم من نجاح مسلسل (دموع في عيون وقحة)، وإعادة عرضه أكثر من مرة، فقد جاءت الأعمال التالية للمسلسل ضعيفة، ودون المستوى، مما ادى إلى انصراف المشاهدين، عن هذه النوعية من الأعمال، حتى عاد عم (صالح) مرة أخرى...

ف ذات يوم، طالعتنا مجلة المصوّر بالحلقة الأولى، من رائعة عم (صالح)، ودرة دراما المخابرات (رأفت الهجان)، وهي رواية مأخوذة من واقع ملفات المخابرات المصرية، عن شخصية (رفعت الجمال)، الذي تم تجنيده، في زمن سابق لإنشاء المخابرات العامة رسمياً، من أجل رصد تحركات إليهود المصريين بعد الثورة، خاصة وأن (إسرائيل) كانت تشعر أن الثورة المصرية

نقطة خطر في مسارها، وكان معظم اليهود المصريين يزورونها، في ذلك الحين، مما وضع فكرة زرع عين للأمن وسطهم، ومع سقوط (رفعت) في قبضة الأمن، ومع ما يتمتع به من ذكاء، وبراعة، وقدرة على الاحتيال على الآخرين، تم إقناعه بالعمل لحساب الأمن المصري، مقابل العفو عن بعض تجاوزاته السابقة، ثم ومع نجاح تقمصه، واندماجه في المجتمع اليهودي، والذي تزامن مع قرار إنشاء المخابرات المصرية، تم إعداده للسفر إلى (إسرائيل)، كعميل مزروع هناك؛ بحيث يصبح عيناً نافذة للمخابرات المصرية، في قلب المجتمع الإسرائيلي...

ولقد لاقت رواية عم (صالح) رواجاً مدهشاً، ونجاحاً عظيماً، مما أسرف عن تحويلها إلى مسلسل تليفزيوني، يعد الأشهر، بين كل دراما جاسوسية على الشاشة الصغيرة، حتى يومنا هذا، على الرغم من ميزانية انتاجه المحدودة، وديكوراته البسيطة، ولكنه جذب المشاهدين من اللحظة لأولى، مع مشهد موت البطل، الذي بدأت به الأحداث، والذي جمع النجمين (محمود عبد العزيز) و (يسرا)، والذي كان يفترض منه أن يكون بمثابة خطأ درامي إذ أنه ليس من الطبيعي، أن تتتابع دراما جاسوسية، ينبغي أن تشعر فيها بالقلق على البطل، في حين أنك تعلم، من المشهد الأول، أنه قد مات في فراشه، في سن متقدمة، ودون أن ينكشف أمره ولكن المشاهد حول وجهة تفكيره، مع تلك البداية، إلى سؤال مختلف تماماً، وهو: كيف نجح في أن يتحل

شخصية يهودي، ويحيا كل هذا الوقت في (إسرائيل)، ويكون كل هذه العلاقات، دون أن ينكشف أمره؟!...

ولأن الأحداث قد انتقلت، من هذه المفاجأة الأولى، إلى متابعة كيفية العثور على (رفعت الجمّال)، أو (رأفت الهجان)، كما اسماه عم (صالح)، ومبررات اختياره، وخطوات تدريبيه على مهمته، فقد شغف المشاهد بهذا العالم الغامض، وأساليبه الدقيقة غير المباشرة، وانبهر بتطورات الموقف، وسيطرة المخابرات المصرية على رقعة اللعبة، في كل خطواتها، وانحبست أنفاسه مع المواقف، التي واجهت (رأفت)، في مرحلة إعداده، وتلاحت نبضاته، مع كل مواجهة، مع عيون (الموساد) في (مصر) ...  
وأخيراً رقص الكل طرّباً، مع مشهد النهاية، عندما كان (رأفت) يودع رجل المخابرات (محسن ممتاز)، قبيل رحيل سفيته من (مصر) مباشرة...

ومرة أخرى خلت الشوارع من المارة تقريرياً، وصمتت الأصوات في المقاهي، مع زمن عرض الجزء الأول من (رأفت الهجان)، ونجح عم (صالح)، للمرة الثانية، في أن يصنع من الجاسوس شخصية ثلاثية الأبعاد، تشعر بها، وتعيش معها، وتعاطف مع كل خطوة لها، وتفرح بنجاحها، وتحزن كلما واجهت الخطر...

الأهم من هذا أن مسلسل (رأفت الهجان)، وما صاحبه من نجاح مبهر، قد أعاد الحيوية في قوة، إلى دراما الجاسوسية،

سواء على الشاشة الكبيرة، أو الصغيرة، وشهدت السينما موجة من أفلام الجاسوسية، منها تلك الأفلام التي أشرنا إليها من قبل، للفنانة (نادية الجندي)، مع أفلام استغلت نجاح (محمود عبد العزيز)، في أداء دور الجاسوس، مثل (إعدام ميت)، وأفلام أخرى للفنان (نور الشريف) وغيرها...

ثم جاء الجزء الثاني من مسلسل (رأفت الهجان)، والذي يبدأ بوصوله إلى (إسرائيل)، ومراجعة الأمن له هناك، ثم سار معه في مشوار حياته، حتى استطاع مد جذوره في المجتمع الإسرائيلي، وما صحب هذا من علاقات عاطفية، خلبت لب المشاهد، وسحرته بعالم من الغموض، والأسرار، والرومانسية، والمغامرة، والخطر...

وكالمعتاد، سال لعب عدد من كبار الفنانين، على دراما الجاسوسية، وانضم إليهم المخرجون، وشركات الإنتاج، وبدأ التهافت على أعمال عم (صالح)، فظهرت مسلسلات مثل (الحفار)، والذي لم يحظ بأي نجاح يذكر، على الرغم من قوة مؤلفه (صالح مرسي)، وقوة العمل الأدبي المطبوع، و(الشعل) للكاتب (إبراهيم مسعود)، والذي لاقى المصير نفسه، مع عدد من أفلام السينما، التي لم ترق أبداً لمستوى أول أفلام دراما الجاسوسية الحقيقة (الصعود إلى الهاوية)... ومع عرض الجزء الثالث من (رأفت الهجان)، والذي لم يلق نفس نجاح الجزأين السابقين، كانت هناك عدة أعمال من دراما الجاسوسية، على

الشاشتين، تحاول التفوق عليه، أو حتى اللحاق به، إلا أنها، وعلى الرغم من ضعف الجزء الثالث عما سبقه، لم تستطع الفوز بنصيب إلى جواره...

ثم، ومع نهاية التسعينات، هدأ سباق دراما الحاسوبية إلى حد ما، وانشغل الكل بدراما الفساد السياسي، التي صارت سمة من سمات ذلك العصر، وراحت الشاشتان تتحولن إلى صرخة شعب، يجأر مما يحيط به من فساد، كاد أن يسلبه حتى الانتهاء لوطنه...

ثم فجأة، ومع الألفية الثالثة، دبت الروح مرة أخرى في دراما الحاسوبية على الشاشتين، وعادت مسلسلات الحاسوبية تشق طريقها، وسط سباق الدراما الرمضانية، والتي صارت الدراما الوحيدة، التي يسعى إليها منتجو الشاشة الصغيرة، ولكن الاعمال هذه المرة، على الرغم من ميزانية انتاجها الضخمة، التي تفوق بخمسين ضعف على الأقل، ميزانية الجزء الأول من (رأفت الهجان)، ومن حشد عدد هائل من النجوم فيها، ومن مشاهدها العديدة، التي يتم تصوير معظمها خارج (مصر)، لم تكن بنفس جودة ونجاح المسلسلات القديمة، ربما لأن مخرجيها، على الرغم من تاريخهم العريق، لم يحاولوا فهم واستيعاب قواعد ونظم المخابرات، والاستعانة بمن يرشدهم إليها، كما كان يفعل (كمال الشيخ) و(يجي العلمي) قدّيمًا، لذا فقد جاءت التصرفات الأمنية في المسلسلات الحديثة، أقرب إلى تصرفات البحث الجنائي، منها إلى تصرفات استخباراتية دقيقة

ومدرسة، وبدا بعضها ساذجاً، إلى حد لا يصلاح حتى لخفيض  
نظامي، فما بالك برجال مخابرات، يواجهون خصوماً محترفين  
طوال الوقت!!...

والأمر الذي أثار المشاهدين، في دراما الجاسوسية الجديدة،  
هي انفصال المشاهد عن زمن الأحداث، على نحو لا يمكن وصفه  
إلا بأنه مستفز، فالأحداث تدور في الستينات، أو أوائل السبعينات،  
وعلى الرغم من هذا، يستخدم من فيها سيارات حديثة، تعود إلى  
الألفية الثالثة، ويبحرون اتصالاتهم بهواتف محمولة، لم توجد قبل  
السبعينيات، وعبر أجهزة فاكس، تم اختراعها في الثمانينات،  
ويسيرون في شوارع بها لوحات رقمية مضيئة، وفي محل تستخدمن  
أجهزة كمبيوتر محمولة ومتطور، ثم يدور الحديث طوال الوقت  
باعتبار أن كل هذا يعد لحرب أكتوبر ١٩٧٣م، وكأن المشاهد  
سيساير الأحداث، أو يغض النظر عنها يراها...

وهكذا حققت دراما الجاسوسية في (مصر)، حالة فريدة من  
نوعها، في أي مكان في العالم، إذ بدأت قوية جذابة، ثم راحت  
تنحدر، حتى صارت هزيلة هزلية...

كل هذا و (جيمس بوند)، الذي تتطور أفلامه في سرعة  
وقوة، مازال يواصل نجاحه، ويواصل جذب المشاهدين،  
وتحصد الإيرادات، وإثبات أنه، وعلى الرغم من كل الانتقادات،  
التي وجهت له عبر تاريخه، مازال أشهر وانجح جاسوس عرفته  
السينما، في كل عصورها....

الجاسوس الذي حصل هذا العام على لقب لم يفز به أحد  
من قبل ...

لقب (جاسوس النصف قرن).

\* \* \*

كلام في سرك !!...  
«الكلمة تعنى وطن....»...  
«... «كلمة تشعل حرباً...»...  
«فَكَّرْ قبل أن تتكلّم...»...

عبارات مثلها، أو تشبهها، خرجت إلينا في حملة دعائية كبيرة، تعيد إلى ذاكرتنا تلك الأيام العصيبة، في الفترة ما بين نكسة يونيو ١٩٦٧ م، وانتصار أكتوبر ١٩٧٣ م، حيث كنا نطالع اللافتات الإرشادية المشابهة، في كل المصالح الحكومية، وكل المنشآت الحيوية، وحتى في الصحف والطرقات ...

هذا لأن عالم الأسرار عالم شديد التعقيد، وشديد البساطة في الوقت ذاته، فأجهزة الاستخبارات الكبرى، لا تحصل على كل ما لديها من معلومات، عبر جواسيس محترفين، ومغامرات تشبه أفلام (جيمس بوند)، بل إن الجانب الأعظم من المعلومات، تحصل عليه من مصادر علنية، متاحة للجميع، مثل الصحف والمجلات، والقرارات الحكومية المعلنة، وأحياناً أسعار السلع الأساسية، مثل الخبز والبنزين، حتى أن دولة كبرى مثل (الصين)، لا تنشر تقاريرها الاقتصادية أبداً، وتعتبرها سراً

قومياً، لابد من الحفاظ عليه بأي ثمن...

وهناك جزء من المعلومات بالطبع يحتاج إلى زرع وتجنيد الجواسيس، للوصول إلى مكامن الأسرار، وخزائن المعلومات، إلا أن الجزء الأخطر، هو الذي يمكن الحصول عليه، من خلال رصد أحاديث عادية، أو الدفع إلى ترويج شائعة بعينها، في وقت محدود بدقة بالغة...

والأمثلة عن استقاء المعلومات العلنية، والاستفادة منها مدهشة، لعل أشهرها واقعة الصحفي السويسري (برتولد جاكوب)، والذي نشر كتاباً في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، في الوقت الذي كانت فيه (المانيا) النازية تعد جيشه، وتعمل على تقويته، في سرية بالغة، ليصف كتابه، وبكل الدقة، كل تفاصيل الجيش النازي، بألويته، وفصائله، وأسماء قادة الأولوية والفصائل، وموقع تمركز كل كتيبة... وهكذا... ولما كانت المعلومات باللغة الدقة، إلى حد مذهل، فقد أصيب (هتلر) بالجنون، واستدعي إليه قائد (الجستابو) (همлер)، وطلب منه، وبكل الغضب والصرامة، البحث عن مصدر المعلومات، وكيفية حصول (جاكوب) عليها...

ولما كان التحقيق مع قادة الجيش جميعهم أمراً عسيراً، فقد قام (همлер) بما بدا أنه أقصر طريق؛ للوصول إلى الهدف، فأرسل فريقاً من رجاله إلى (سويسرا)؛ لاختطاف (جاكوب)، وإحضاره إلى (برلين)، وهناك، في مقر (الجستابو)، الذي كان

يعرف باسم (بيت الثعالب)، انهار (جاكوب) رعباً، وروى لهم، وبكل التفاصيل، كيف حصل على معلوماته الدقيقة... وكانت المفاجأة أن (جاكوب) ليس لديه أي مصدر لكل هذه المعلومات، سوى صفحات الوفيات، في الصحف الألمانية، والتي ظل يطالعها طوال عام كامل؛ ليجد بينها نعيّا يقول: «العقيد فلان، قائد الفرقة رقم كذا، ينعي زوجة اللواء علان، قائد الفرقة كذا... وهكذا»... إعلانات وفيات من هذا القبيل، راح يجمعها، ويصنفها، ومنها حصل على كل تفاصيل الجيش النازي، التي لم تحصل عليها دول كبرى، في ذلك الحين... تلك الواقعة نبهت النازيين، والعالم كله من بعدهم، إلى ضرورة عدم ذكر أية تفاصيل عن رجال الجيش، أثناء نشر نعيهم، أو نعي أحد من يتمنون إليهم، بعد أن أدرك الكل مدى خطورة هذا، وكم المعلومات المدهش، الذي يمكن الخروج به، من مجموعة من المعلومات الصغيرة، التي تبدو وكأنه لا قيمة لها..

المعلومات، في تعريف رجال المخابرات، أشبه بلعبة بازل كبيرة، مكونة من عدد من القطع الصغيرة، إذا ما قمت برصها إلى جوار بعضها البعض، بالترتيب الصحيح، فإنها ستكون في النهاية صورة كبيرة واضحة، تحوي الكثير من التفاصيل والمعلومات... قبل حرب ١٩٦٧ مثلاً، كانت خطب الزعيم (جمال عبد الناصر) نارية ملتهبة، وكان واثقاً من قوة جيشه وتسلیحه، حتى أنه طلب سحب القوات الدولية، التي تمركزت في عدة مناطق في

(سيناء)، عقب انسحاب (إسرائيل) منها، عام ١٩٥٦م، وعلى الرغم من أنه قد طلب سحب القوات الدولية من (شرم الشيخ) وحدها، إلا أن القوات الدولية رفضت الانسحاب المحدود، وأصرّت على الانسحاب الكامل من (سيناء)، في نفس الوقت الذي تصاعدت فيه حدة خطابات (ناصر)، إلى الحد الذي بدأت فيه (إسرائيل) تقلق، من احتمال استعداده لشن حرب ضدها بالفعل... ولما كان شن الحروب، أو حتى الاستعداد لمواجهتها، يعني تكلفة مالية هائلة، لم تكن (إسرائيل) مستعدة لشن حرب على (مصر)، إلا عندما تيقن من أن (مصر) جادة بالفعل، في الاتجاه نحو الحرب، ومن هنا نشط جواسيسها في قلب المجتمع المصري؛ بحثًا عن أية معلومات، تؤيد أو تنفي هذا...

والمدهش أن المعلومة التي حسمت الأمر، لم تكن معلومة عسكرية خطيرة، أو معلومة سياسية، من مطبخ صنع القرار، بل أتت من عامل بسيط، في شركة من شركات إنتاج الأغذية المحفوظة، على مقهى صغير، في حي شعبي...

العامل كان يتناول كوبًا من الشاي المصري، وهو يجلس مع أحد أصدقائه، وأخبره أنهم قد ضاعفوا الورديات في المصنع، لإنتاج ضعف الكمية، من علب الخضار المحفوظ.... والتقطت أذن أحد جواسيس (إسرائيل) المعلومة البسيطة، ونقلها وسط معلومات أخرى إلى (تل أبيب)، وهناك، اعتبرها محللوا المعلومات قطعة من البازل المعلوماتي، أضافوها إلى معلومة

أخرى، تقول: إنه مع الاستعداد للحروب، يتم مضاعفة تعين الجندي العادي، فيحصل على علبتين من الخضار المحفوظ يومياً، بدلاً من علبة واحدة... وهكذا اكتملت بالنسبة لهم الصورة، وبيات من الواضح أن (مصر) جادة في الاستعداد للحرب، وقررت القيادة السياسية الإسرائيلية، بناءً على تلك المعلومة، شن حرب خطافه؛ لمنع (مصر) من توجيه ضربة قاصمة لها... المعلومات إذن ليس فيها كبير أو صغير....

المهم أن تأتي المعلومة، لتكمل جزءاً من البازل المعلوماتي، وتضع صورة واضحة في النهاية... والشائعات لا تختلف كثيراً، في هذا المضمار، باعتبار أنها سلاح قوى وفعال؛ هدم الجبهة الداخلية لأية دولة، ولقد استخدمها (جوبلز)، وزير (البروباجندا)، أو الدعاية، في حكومة (هتلر)؛ لتحطيم الجبهة الداخلية في (تشيكوسلوفاكيا)، حتى يمكنه احتلالها، بأقل قدر ممكن من الخسائر، مستغلاً وجود أقلية ألمانية، بدأت الشائعات عندها؛ لإقناع أبنائها بأنه هناك محاولة من الحكومة التشيكية لطمس هويتهم، ومزجهم في الأكثريية التشيكية، مما أدى إلى حدوث مصادمات بين الأقلية ورجال الشرطة، سرعان ما تطورت، مع تناقل سيل الشائعات، الذي واصل (جوبلز) تلقييم الأقلية الألمانية به، وتحولت إلى فوضى أمنية عارمة، راحت تنتشر كالعدوى، وسط الشعب التشكي كله، وبدأ جواسيس (المانيا) اتصالاتهم مع قادة الرافضين، ونصحوهم بعدم قبول أية

عروض، منها بدت مغربية، من الحكومة التشيكية، التي وصل بها الامر إلى عرض منحهم الحكم الذاتي، ولكنهم واصلوا رفض كل شيء وأي شيء، حتى تدخل (هتلر) عسكرياً، بعد أن أيقن من تفكك كيان الدولة؛ بحججة حماية الأقليات الألمانية، واحتل (تشيكوسلوفاكيا) بالفعل، بخسائر تكاد لا تذكر...

وفي (إنجلترا)، وبعد الدروس المستفادة، بدأت حملة؛ لتوسيع الناس بضرورة الحفاظ على الأسرار، وعدم ترديد الشائعات، قبل التيقن من كل ما تحويه، وكانت تلك الحملة، في قلب الحرب العالمية الثانية، تعتمد على النصائح المباشرة هبر المذيع، والافتتاحية في الطرقات، وداخل كل المنشآت، والمدارس والمعاهد، وحتى المستشفيات...

في البداية، رأى بعض المثقفين أنها وسيلة ساذجة، لا يمكنها أن تؤدي إلى شيء، إلا أن كل الدراسات خلال وبعد الحرب، أثبتت أن تلك الأساليب، التي نصفها بالنمطية، تأتي بنتائج مدهشة، مع قطاع عريض للغاية من أي شعب، إذ أنها تعتمد على نظرية الإلحاد والتذكرة، والتي تؤدي حتماً، عند نسبة كبيرة من الناس، إلى إعادة التفكير في كثير من الأمور، التي كانوا يقومون بها، على نحو تلقائي، دون الانتباه إلى عواقبها، أو إلى تعريفهم بخطورة الأمور البسيطة، التي لم تبد لهم بهذه الأهمية، وهم يمارسونها على نحو تلقائي، كما اشارات تلك الدراسات، إلى أن التفكير على مستوى المثقفين، لا يجسم الأمور على نحو

مثالي؛ باعتبار أنهم، في أية دولة، لا يمثلون أكثر من نسبة ٥٪ من مجموع سكانها، أما الغالبية العظمى، فهي الأكثر تأثيراً بما يراه المثقفون أموراً نمطية غير فعالة...

وقد يدهش البعض، معرفة أنه، حتى في أروقة كل أجهزة المخابرات في العالم تقريباً، توجد لافتات إرشادية مماثلة، تحذر العاملين طوال الوقت، وعلى نمط إلحاقي، بضرورة الحفاظ على أدق الأسرار، وعدم ترديد أية أقاويل، دون الرجوع إلى مصادرها، والتأكد من صحتها؛ لعلم أجهزة المخابرات بجدوى وأهمية هذه الأساليب المباشرة، إلى جوار وسائل الدعاية الأخرى غير المباشرة، والتي تتطور أيضاً يومياً، إلى حد القدرة على الوصول إلى العقل الباطن للشخص العادي، وزرع فكرة بعينها فيه، مثل الصور الخفية، والعبارات ذات التأثير المعنوي وغيرها...

والحديث عن حرب المعلومات والشائعات يطول ويطول؛ لأنه حديث غزير المعلومات، كثير التفاصيل، إلى حد مدهش... أو ربما مخيف...

ولكن، وفي النهاية، كلام في سرك: هل ردت شائعة ما اليوم؟!...

راجع ما فعلته منذ استيقظت، دون انفعال أو تشنج، وأراهنك أنك قد فعلت...  
أليس كذلك؟!

\* \* \*